نصف الرجل إمرأة

زانغ كزيليانغ

ترجمة:
ميرنا ابي نادر



اصدارات المجمع الثقافي

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

نصف الرجل إمرأة

٨٩٥,١

زان ص

زيانليانغ، زانغ

نصف الرجل امرأة / زانغ زيانليانغ؛ ترجمة ميرنا ابي نادر.- ط [illegible].- أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م.

٣٧٥ص: خرائط؛ ٢٠ سم.

١- القصص الصينية.

أ- ميرنا ابي نادر، مترجم.

ب- العنوان.

المجمع الثقافي ١٩٩٩م

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة-ص.ب ٢٣٨٠-هاتف : [illegible] ٢١٥٣

Email:nlibrary@[illegible]cultu[illegible]

http:/www.[illegible]cultural.org.[illegible]

دار الانتشار العربي

بيروت-لبنان-ص.ب: ١١٣/٥٧٥٢

Email:arabdiffusion@[illegible]

P.o.box 113/5752 - Beirut

حقوق النشر والطبع محفوظة

زانغ زيانليانغ

نصف الرجل امرأة

ترجمة:

ميرنا أبي نادر

中國是一個神秘的國家。她不但在外國人眼里難以理解，在中國人心目中也是一個謎。正因為她是一個謎，所以她才可愛。這本书向讀者透露出了一点謎：請讀者去猜測她。

張賢亮

一九八六年十一月十八日

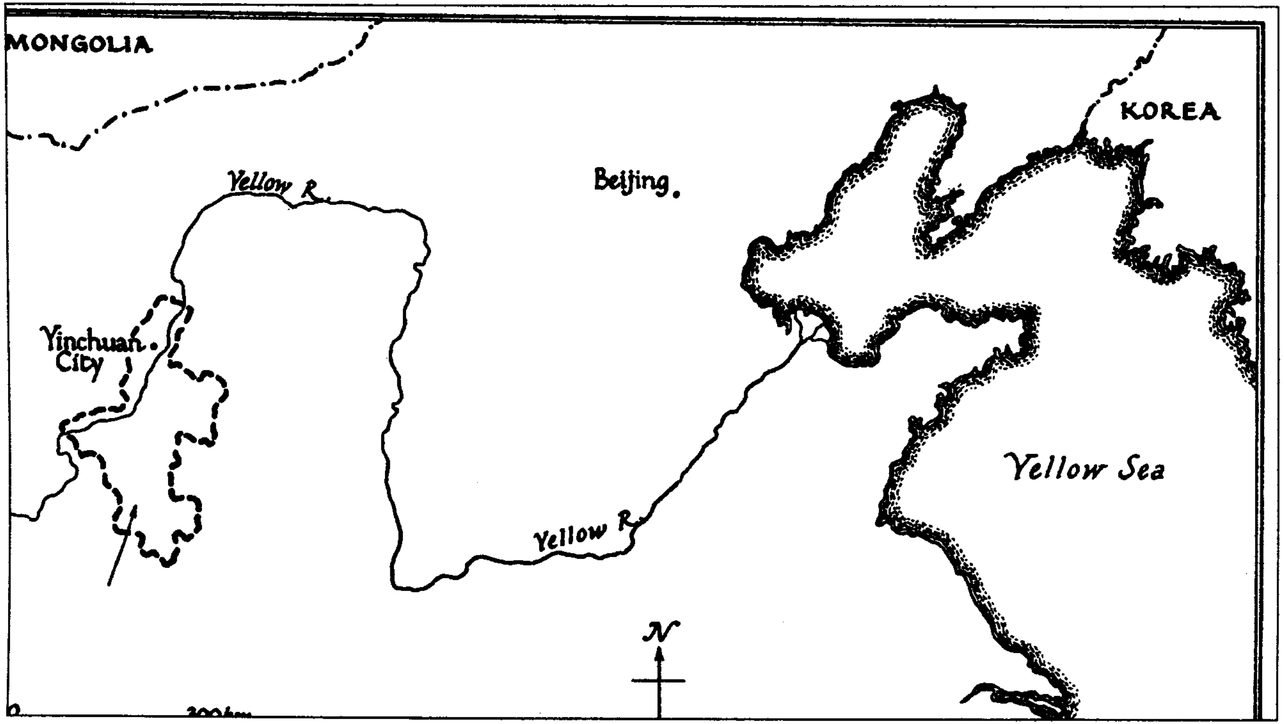
كلمة من المؤلف

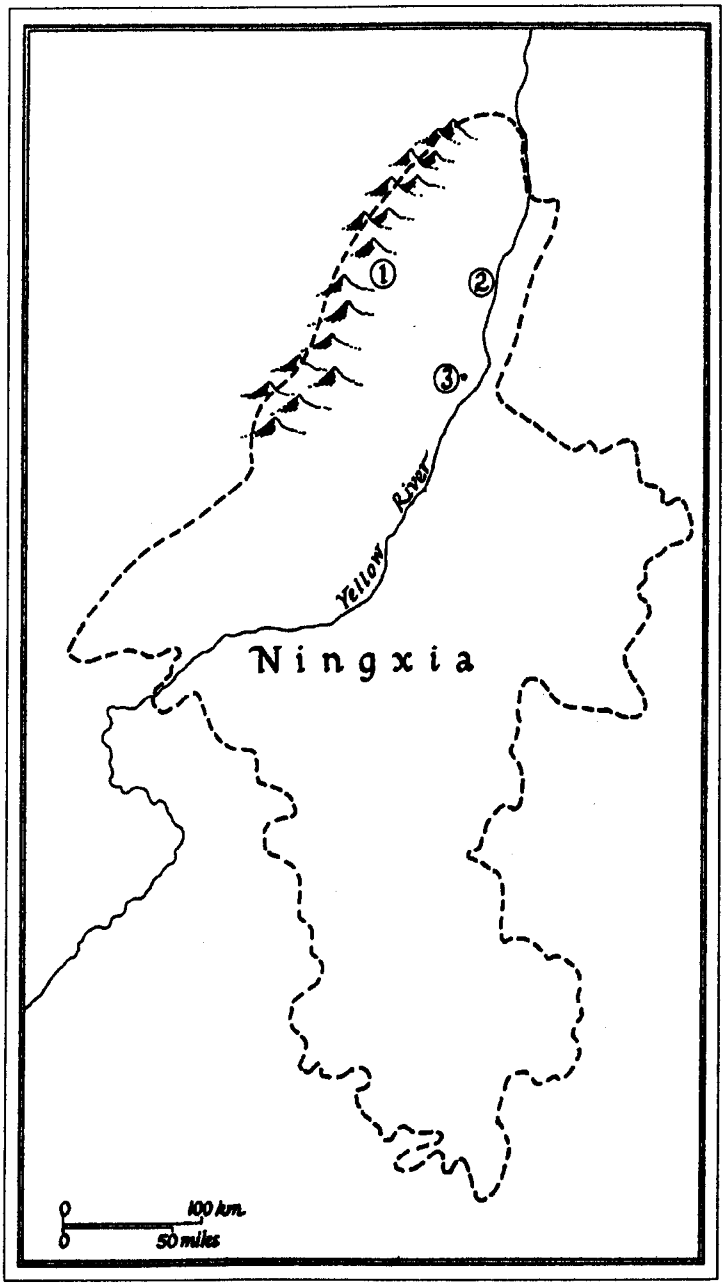
إن الصين بلد يلفه الغموض وتكتنفه الأسرار؛ بلد يصعب فهمه ويشكل لغزاً بالنسبة للغرباء، ويمثل أيضاً أحجية بالنسبة للصينيين أنفسهم. وهذا الغموض العصي هو ما يضفي على الصين سحرها وفتنتها. هذا الكتاب يقدم بعض الإشارات حول جواب الأحجية، وآمل أن يصل قراؤه إلى استنتاجاتهم الخاصة.

زانغ زيانليانغ

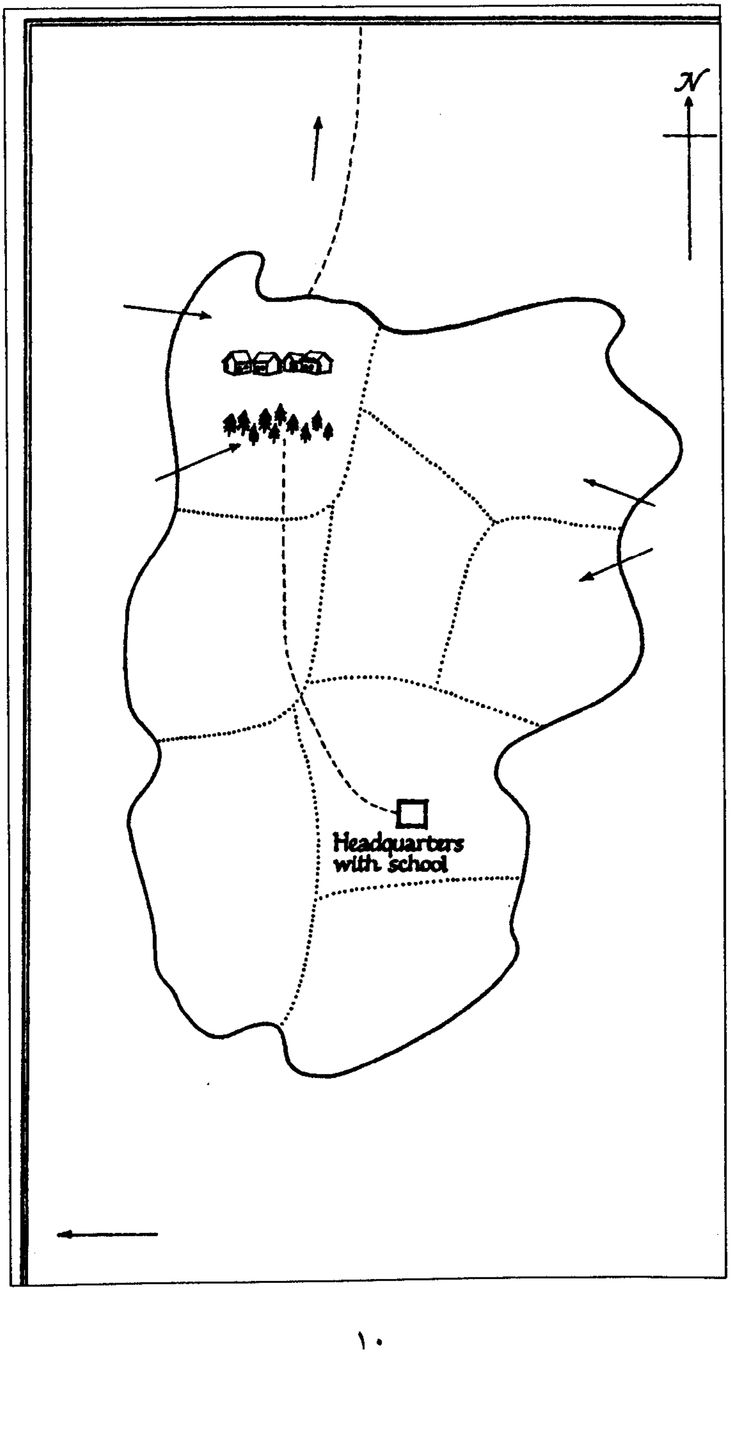
تشرين الثاني/نوفمبر

١٩٨٦


MONGOLIA
KOREA
Beijing
Yellow R.
Yellow R.
Yinchuan City
Yellow Sea
N



①
②
③
Yellow River
Ningxia
0 100 km
0 50 miles


N
Headquarters
with school

مقدمة

لماذا لم أعمد إلى كتابة كل هذا من قبل؟ لعلها المرارة هي التي أعاقتني عن القيام بذلك أو لعله الخجل ــ خجل الرغبة في إخفاء شيء من الماضي.

إن المرء يكون في الغالب ألد أعداء نفسه.

الشمس تنحدر الآن عبر النافذة، وتكسو الحائط الشرقي بلون ذهبي دافىء. من على الصورة حيث كانت تجثم، طارت فراشة وراحت ترسم دوائر في أرجاء الغرفة.

قريباً، سوف تختفي الشمس لتعود في الغد وتسلك درباً معروفاً سلفاً. والفراشة؟ قد تموت قبل عودة النهار.

يبدو كل شيء وكأنما راغباً في العيش إلى الأبد.

شعورياً أو لا شعورياً، يتوق كل شيء إلى دعابة الخلود إنما ليس أنا: لقد كان لي خلودي. في الواقع، إن لكل شيء خلوده حتى ولو لثانية واحدة. ثانية واحدة على الأرض لهي كافية لكي ندرك حقيقة كل شيء.

في مسار العمر، تبدأ المشاعر بنخل نفسها؛ مشاعر لا يمكن وصفها، تفتقد لعظام توفر إمكانية تحليلها. وتندفع بلا هوادة لتتجمّد في زاوية ما من قلب الإنسان. ما من إمكانية لوصف نواتها غير القابلة للذوبان. يصعب

على الناس التعرف حتى على أنفسهم. بيد أن لهذه المشاعر المتعذرة التحديد معنى لا نهائياً.

مغسولة بأمواج عمر بكامله، إنها هي التي تستمر وتبقى. الشمس تغرق؛ المساء يقترب. الحلم يقترب من جديد ـ هذا الحلم، لعله قشرة النواة الخارجية: مثل جدول جبلي تسيل المياه في قناة إلى جانب الطريق، قعرها بلون اليشب الأخضر. سمكات صغيرة بطول بوصتين أو ثلاث تتجمع تحت الأعشاب التي تغطي جانبيها. ظهور سوداء تثب فوق المياه وبطون فضية تلمع كالنجوم.

كل ما حولي مشرق بأنوار كثيفة، الهواء متراخٍ وصامت. آثار دواليب في الأرض اللينة تشبه سكتين تسيران قدماً. أمشي في منتصف الطريق، تبطيء خطواتي، لا يزال الضوء حاضراً. يتصاعد الغبار من تحت حذائي أشبه بضباب الفجر الرقيق، فيجعل العالم ناعماً لا يمكن تمييزه. أشعر بقوة غريبة هائلة في نظري كما لو كان بمقدوري اختراق الغبار الكثيف ورؤية ما يختبيء وراء وعيي. أرى هراً رمادي اللون مخططاً بالأبيض. يرفع ظهره ناحيتي بخوف، وهو واقف على إحدى السكتين في الطريق. هو الهر الذي كنا أضعناه «نحن». يتوارى الهر في صمت العالم ـ الحلم. أرى أربع بطات تسبح في مصرف للمياه. بوسعي أن أحزر أن اثنتين منها أنثيان من استقامة العنق والذنب. تسبح البطات بصمت، بعكس مجرى مياه لقناة. وكأنها تود جرّي إلى أعماق تذكارات أقوى المشاعر والانفعالات. لا إرادياً، أسير وراءها. بوصولها عند بقعة من القصب في بركة، راحت تحرك أذنابها، وأخذت تدور وتدور قبل أن تغادر المكان، منتهزة إياب تيار المياه، وهي تشق طريقها داخل صفوف القصب الكثيفة.

في حلمي، أتابع سيري داخل ضباب من الغبار. أبذل شيئاً من الجهد رافعاً قدمين ثقيلتين. رغم ذلك، أتابع سيراً خفيفاً مثل طائر يحلّق عكس رياح شاردة.

بعد أن اجتازت البركة، عادت البطات لتظهر من بين آجام القصب. لم تعد أربع بطات ضخمة إنما بطيطات. متدثرة بوبر ذهبي اللون، بدت

وكأنها تذوب في الضوء الأصفر. كانت هنالك، تلك البطيطات، تسبح مغتبطة، نافخة صدورها وهي تنظر نحوي. كانت مناقيرها المعكوفة وكأنما تعبّر عن فرح عارم. أدركت أنها بطاتنا «نحن»، تلك التي رأيت، بطاتنا حين كانت بطيطات صغيرة. الزمن يعود مسرعاً إلى الوراء: هل بوسعي اللحاق به والعودة إلى ذلك الزمان، زماننا «نحن»، حتى ولو في الحلم؟

بعد ذلك لم أرَ سوى التشويش، أشبه بنشوة حلم داخل حلم. وبعد أن استيقظت، أدركت أن التشويش ينجرف إلى أمواج عمري. إن معنى حياة ما، خلود ما، يكمن وسط هذه النشوة بالذات.

أشرقت الشمس من جديد. اختفت الفراشة، أتراها ما زالت على قيد الحياة، أم لا؟ أود أن أفسر خطوط الحلم، أن أجعلها متميزة واضحة حتى أمشي في إثرها. أود أن أعيد رسم الطريق بواسطة الكتابة؛ الكتابة الصادقة. إذا لم يكن ثمة في حياتنا ما نخجل منه، فعلى أي أساس يجب أن نحكم عليها؟

ماتت الفراشة. كل من يشعر بأنه مسؤول عن قصر حياتها، له الحق بانتقاء كل الدروب التي سلكتها في طيرانها المتوحّد.

يسطع النور علي بقوة، مشعاً في أعماق قلبي. أسبح في لونه، مبتعداً عن هذا العالم الصاخب، المغبّر. أنتهز فرصة سقوط الوحي وأمسك قلماً وحبراً. في أي لحظة أخرى، لربما سأبدّل رأيي.

الجزء الأول

١

قد أكون رأيتها من قبل من دون أن ألاحظ ذلك. ولعلي لم أرها قط. هذه المرة تركت فيّ انطباعاً قوياً.

كنت أشرف على الأشغال الشاقة في حقول الأرز، بعد أن كان تمّ نقلي، قبل شهرين، من مكان يطلق عليه اسم «دازو». كنت أنا نفسي أسيراً، بيد أني كنت مسؤولاً عن فريق من الرجال يشكل جزءاً من مجموعة(*) أكبر، كان حُكم على أفرادها بالإصلاح بواسطة الأشغال(**)، حين تمّ نقلنا إلى حقول الأرز، وعهد إليّ مجدداً الإشراف على مفرزة صغيرة. الرجل الذي طلب نقلي كان «وانغ»، قائد الزمرة «وانغ»: كادر(***) محلي، رجل

(*) مجموعة: طوال فترة الثورة الثقافية، كانت المصطلحات العسكرية تستخدم لكافة المنظمات في الصين. وبحسب الكاتب فإن استخدام هذه العبارات قد توقف في العام ١٩٧٩ .

(**) العبارة تستعمل للدلالة على المخيمات، وقد شاهدت المترجمة الأميركية مارتا أفيري تلك العبارة على أبواب أحد مخيمات السجون المونغولية العام ١٩٨٦.

(***) «كادر» في الصين المعاصرة تعني إما: موظف عام في منظمة حكومية، أو عضو قيادي أو إداري بمختلف المستويات.

طيب سليل عائلة مزارعين. سحب سيجارة كان لفّها بنفسه وبدأ الحديث. «أنت مشرف أليس كذلك؟ إذاً فإن الرؤساء يولونك ثقتهم. اللعنة إن هؤلاء السجناء الإثني عشر يصعب التعامل معهم. لا يجلبون سوى المتاعب. أيها البغي، لو قيض لك السيطرة على هؤلاء الاثني عشر فلسوف تتمكن عند خروجك من هنا من إدارة مصنع فيه ألف وثمانمئة عامل».

كان يجلس القرفصاء على ضفة عالية عند قناة للري. كنت قد خرجت من طرف مصرف مياه يتدفق إلى حقل شاسع، ووقفت عاري القدمين قبالته.

بدا وكأن لديه المزيد ليقوله لي، بيد أنه لم يفعل، راح يدخّن سيجارته بصمت. كان وجهه الصغير، النحيل، الجاف، والمغضن، يكشف عن استغراق في التفكير. لم أعرف بمَ كان يفكر، بيد أني أدركت مغزى وقفته: كان التمهيد المحتوم لمنح سجين ما امتياز إعطائه وظيفة مميزة. كان استغراقه في التفكير يعكس جدية كبيرة، ويؤكد على الحدود القائمة بينه وبينك. كان جلياً أنه قد فكّر ملياً بأمر المهمة الجديدة. وبدا حتى أنه لربما غيّر حكمه عليك، ذلك الحكم الذي فرضته سلطة عليا تحكمها بدورها حكمة جماعية. كان مدى أهمية المسؤولية الجديدة واضحاً للغاية وكذلك ثقته بك. غالباً ما يلجأ الكوادر الذين لا يمتلكون ثقافة مدرسية، والذين يشعرون بضيق وحرج عندما يتكلمون، إلى تقنية الصمت تلك لكي يضاعفوا احترامك لهم. بصمتهم ذاك، كانوا يجعلونك تدرك أن حملك، ابتداءً من تلك اللحظة بالذات، ومن واقع تلك الثقة، صار حملاً أثقل. الأشغال الشاقة ليست بالأسلوب العادي للإصلاح. إنها إصلاح من أكثر الأساليب جدية. وإذا ما أرفقت

بعمل جديد أو «ثقة» جديدة، يمكن أن تكون تمهيداً «لمكافأة محتملة عن خدمات تستحقها»، كما يمكن أن تزيد من فرص احتمال إطلاق السراح قبل الأوان المحدد. إن مقابلة من هذا النوع كانت في الغالب بمثابة نقطة تحول في حياة السجين.

كان مظهر وانغ الصامت يخفي نيات طيبة. جثا على ضفة القناة وهو يدخن، فيما أنا واقف في الأسفل انتقل من قدم إلى أخرى وأستخدم ظهر إحداها لأحكّ بها الثانية. حين تمت زراعة الأرز، لم تكن البعوضة المحيطة بي ولدت بعد. هي الآن تشن هجومها وفوداً وفوداً، تطن وتلسع وتقود المرء إلى تخوم الخبل. حجمها الصغير كان ليسهل عليها اختراق تجاويف الآذان أو الجفون أو الآباط وكانت لسعاتها تتسبب في تقرحات فظيعة مختلفة الأحجام. فاركاً قدمي وملوّحاً بذراعي كما لو كنت أقدّم أداءً راقصاً، رحت أترقب أوامر وانغ.

لم ينبس بحرف. محمياً وراء دخان سيجارته وقبعته أيضاً، كان يبدو أقل مني حماسة للحراك.

كان اللواء الرئيس أضحى على مسافة منا، وهو يسير بمحاذاة القناة. كانت شمس المساء تلفح زي أفراده الموحد الأسود الخاص بالسجون، وهم يقتربون من بعض شجرات الصفصاف عند أحد منعطفات القناة. من الخلف، بالرفوش فوق أكتافهم وبأيديهم الملوحة، كانوا يبدون وكأنما مفعمين بالنشاط والحيوية.

كان ذلك المنعطف يجتاز قرية صغيرة، حيث كان لبعض السجناء المحليين أهل. أما أنا فمشاعري العائلية كان يمكن اختصارها بكوني واحداً بين عدد هائل من الزملاء السجناء في العالم أجمع. لم أكن أنتمي إلى أكثر من أحد ألوية الأشغال.

وكأنما للتأكيد على هويتي تلك، تناهى إلى مسامعي في تلك اللحظة لحن مألوف، متموجاً وسط حقول الأرز المزروعة حديثاً.

إصلاح، إصلاح، أصلحوا هذا الإصلاح، هاي!

إلى المنزل مساءً، إلى المنزل ومغرفة طعام، هاي!

بالرغم من وقوفي في مواجهة وانغ، صعب عليّ كبت ابتسامة. كانت تلك أغنيتنا نحن عصابة «الإصلاح بواسطة الأشغال»، وكانت تروي يوميات سجين. غنيناها بلحن أغنية شعبية خفيفة، ووضعنا كلماتها باللهجة المحلية. باللغة الصينية الشمالية التي كانت غريبة في هذه المنطقة، كانت تشير إلى ما معناه: «فليسقط المطبخ، فليسقط المطبخ، فليسقط هذا المطبخ».

إن عبارة «إلى المنزل مساءً إلى المنزل ومغرفة الطعام» كانت لتثير لدينا ذكريات ومشاعر: كانت المغرفة تُملأ بعصائبية الأرز، يُرش عليها بوفرة البصل الأخضر المقطع. كان الطباخون في المطبخ يعملون بدقة متواترة ويحركون الأحواض الساخنة التي يتصاعد منها البخار. كانت عضلاتهم تتحرك في أذرعتهم الخشنة. وفيما كانوا يحركون كانت تتقطر في الأحواض نقاط ضخمة من تعرّقهم اللاذع فتضفي، بكل ما في الكلمة من معنى، نكهة خاصة على عشائنا، نكهة صلصة الجنس البشري الحادة.

رغبت في العودة إلى زمرة العمل تلك، والالتحاق بالسير الميكانيكي المضني، وأكثر من كل شيء، الحصول على «مغرفتي الكبيرة». في تلك الأغنية كان يمكن للمرء أن يسمع الضجيج المرافق لتناول السجناء طعامهم بسرعة وشراهة كبيرتين.

كان قائد الزمرة وانغ صامتاً. وطالما هو راغب في الصمت، علي أنا أيضاً الالتزام به. سبق لي أن قمت بأشغال أكثر صعوبة

وكنت متمكناً من قوانين المعسكرات. ولأني كنت على معرفة بتلك القوانين غير المكتوبة، مُنحت، وأنا اليوم أقضي عقوبتي الثالثة، امتياز إدارة أربع مجموعات: أربعة وستين رجلاً من الفرقة الرئيسة.

في الخارج يتمّ دائماً تجنب من تكون لديه ميول سياسية تثير الشك. إنه منبوذ ولا يمكن أن يكون موضع ثقة. وفي المقابل كل الذين ارتكبوا بعض الإساءات المعنوية يعتبرون قليلي الحظ وحسب.

إنهم يعانون من «تناقضات داخلية» ليس إلا. في الداخل، كانت الأمور مختلفة. كل القيم والمفاهيم وطريقة التفكير التي يتشبث بها أفراد جماعات الأشغال كانت وكأنما في نزاع دائم مع باقي الصين. ولهذا السبب فإن حياة السجين تفسح الفرصة أمام بعض التبصّر، وأيضاً بعض المكافآت.

وبين أفراد جماعات الأشغال، يكون السجين السياسي في موضع ثقة، بيد أن هذه الثقة وباعتراف الجميع، هي ثقة محدودة. المجرمون ـ أو المنحرفون أخلاقياً ـ كانوا يتلقون معاملة مغايرة تماماً.

إن معسكر العمل لهو أشبه بمملكة مستقلة، مجهزة بكافة مستلزمات الحياة. ونتيجة لذلك، فإن مبدأ استخدام مهارات المرء إلى حدها الأقصى يتم تطبيقه وممارسته تماماً مثل الديانة: أياً تكن مهارات أحدهم فإنه سرعان ما سوف يكتشف أن تعيينه قد تمّ لتنفيذ مهمات توكل إليه وفقاً لمهاراته. فإذا ما دخل طبيب، كان ينظف المراحيض في الخارج مثلاً، سرعان ما يعين مشرفاً على الأطباء، وتولى إليه معالجة المرضى. مقارنة مع الواقع في الخارج، قد يبدو معسكر الأشغال المكان الأكثر عقلانية.

بالرغم من وضعيتي المثيرة للضحك وأوصالي وهي تومىء

موزعة ضربات خفيفة، وبالرغم من أني قد افتقدت لوهلة، أصول اللياقة والتهذيب، لم يؤنبني قائد المجموعة وانغ. تابع التدخين. كلانا كان يعرف أن امتثالي بالوقوف أمامه كان يحمل معنى آخر. كان من الممكن جداً أن يقذفني ببعض الأخبار التي تسرّبت من الخارج. هذا الكادر الجاف النحيل كان رجلاً طيب القلب. وبعد عمر طويل من التواصل مع الأرض الصفراء في السهول العالية غدت طبيعته مستقيمة، واضحة المعالم كما التراب نفسه. كانت الزراعة بالوسائل القديمة لمئات السنين قد وسمت أهله وشعبه بالقيم التقليدية. كل تلك المسائل المتعلقة بصراع الطبقات كانت عديمة المعنى بالنسبة إليهم. لم يكن وانغ يعاقبنا حين نطلق نكات فاحشة أو حين نغني «أغنية الإصلاح» الخاصة بنا، تلك المجردة من كل احترام. بل على العكس، كان يخلع قبعته ويحك رأسه ويطلق عبارة لا تخلو من الإعجاب بنا: «ها، أيها البغايا، اللعنة عليكم، بغايا!» وبحسب إحدى الإشاعات، فإن عبارة «هؤلاء البغايا» كان وانغ قد استخدمها مراراً للإشارة إلى الضباطِ الفيتناميين الذين نجحوا في إسقاط عدد كبير من الطائرات الأميركية. وقد لاحظنا حتى، إنه في اليوم الذي اصطحب معه حفيده إلى الحقول، راح يداعب الصغير ويقول له: «أيها البغي!» وبالتالي فنحن السجناء كنا نشعر بشيء من الألفة والرضى حين كان يطلق علينا هذه الصفة.

كان أفراد جماعتنا في حقول الأرز، ينتزعون الأعشاب الضارة في ربيع العام ١٩٦٦، حين كانت الثورة الثقافية تستعد للانطلاق. توجه قائد الجماعة وانغ إلى البلدة بغية الاستعلام عن الأمر، وقام بصحبة فرقة من قوى الشرطة المحلية، بجولة في الضواحي لاستعراض انتصارات الثورة الثقافية العظيمة. لدى عودته، تجنب التعريج على منزله متجاهلاً وجبة الطعام المنزلي، وتوجه مباشرة إلى

حيث كنا في الحقل وهو يسير بخطى واسعة يصفق بقبعته على رجليه ويثب فوق مصارف المياه ليتوقف قبالتي قائلاً: «زانغ، أيها العاهر اللعين! قصائدك اللعينة تلك! إنها هناك على الحائط بأحرف بحجم حبات الجوز!» وجمع اثنين من أصابعه ليشير إلى حجم حبة الجوز. الصورة الفعالة التي رسمها منحت شعري نوعاً من القوة الجسدية. «تلك الكلمات كانت ضخمة! يا رجل أنت فعلاً تجيد الكتابة!»

في المناطق الجبلية آنذاك، كان يسود مفهوم عام يؤكد على أن أهمية الكلام تكمن في حجم الأحرف التي يكتب بها. وكانت السلطات بدأت تنتقي جزافاً، عبارات من «الكتاب الأحمر الصغير» وتنشرها أينما كان، بأحرف كبيرة سوداء. من وجهة نظر وانغ، اتخذت تلك القصائد التي كنت كتبتها العام ١٩٥٧ أهمية موازية. كان شعري يعتبر دليلاً قاطعاً على جرمي وقد نشر على الملأ أمام النقد العام. بيد أن السجناء، باستماعهم إلى وانغ راحوا يرمقونني بنظرات الاحترام.

تسع سنوات قد مرت منذ أن كتبت هذه القصائد، ومع ذلك لا يزالون ينشدونها بغية «استعراضها أمام الجماهير». في الخارج كانت الصين تحافظ على تماسكها، وفي الداخل كنت لا أزال سجيناً. ألا تعني هذه القصائد أنني، وبالرغم من كل شيء، لم أغرق في النسيان؟

في الصين، كل ما كان المرء بحاجة إليه هو أن يُشار إليه إشارة صغيرة في غمرة «حركة الجماهير»، ولن يكون أمامه بعد ذلك أي سبيل للهروب من صفوف التاريخ. ومع ذلك، فإن قدر من يُشار إليه، غالباً ما يكون في عداد نزوات العالم. فالأمر لم يكن متعلقاً، أو أنه بالكاد يتعلق بإرادة الإنسان نفسه.

سوّيت استقامة ظهري، لففت حفنة من الأعشاب ورميتها على الضفة. نظرت إلى القمم البعيدة بصمت ولا مبالاة. انحنيت مجدداً، فرّقت نبتات الأرز اليانعة لأفتش تحتها عن الأعشاب الضارة، ومن على سطح المياه الموحلة تلألأت أنوار صافية راقصة متبدّلة. التاريخ المتقلب والثابت كان في قصائدي تلك، وكان أيضاً في داخلي.

حتى ليكون المرء إنساناً، عليه أن يقابل التقلبات المستمرة، بقلب ساكن وفي الوقت نفسه أن يأمل باستمرار هذه التقلبات، حتى يقارن ما قد حصل في الماضي مع الذي يحصل في الوقت الراهن.

حين وقفت مجدداً لأرمي على الضفة حفنة أخرى من الأعشاب، ملأني شعور بأني مارد، تماماً كما لو كنت بطلاً من أبطال التراجيديا. كل السجناء حولي كانوا مثل اللصوص مع المسيح في الجثمانية. شعرت وكأني «ابن الإله». بداية راودني شعور بالتفوق ومن ثم جعل إحساس بالشفقة يتأجج في أعماقي. شكراً لك يا وانغ لأنك جلبت لي هذه الأخبار! يتوجب على سجين مقيد ومذلول أن يجاهد ليستمر في العيش، وبالتالي عليه أن يحاول ويبذل الجهد ليُشعر نفسه بأنه متفوق.

عند حلول فصل الخريف، كان تمّ حصاد الأرز، بيد أن التاريخ في الخارج كان يسير أكثر سرعة من الفصول نفسها. نحن السجناء كنا نعمل في مفرزة النقل. كان علينا أن نوضب رزماً كبيرة من الأرز نلفها بالقش بقصد نقلها إلى جانب الحقل. هناك كنا نكوّم الرزم حزماً حزماً، ثم نربطها بإتقان ببعضها البعض بواسطة «حبل الظهر».

كان السجين يجثم أمام رزمة الأرز ويمد ذراعيه إلى داخل الحبل

المتقاطع الذي يلفّها، لتصير بنهضة منه، مثبتة على ظهره المتقوّس الذي سرعان ما ينتصب حاملاً الرزمة الضخمة.

كنت أشرف على كل هذا المجهود وبطبيعة الحال كنت أحمل أوزاناً أكبر. في مخيم الأعمال كان لا بدّ من بذل ذلك المجهود حتى يقدّرك الآخرون. لم يكن ثمة من تقدير لنسب عائلي أو تربية عالية، أو سجل نظيف أو غير نظيف: وحدها المقدرة على العمل كانت لتثبت جدارتك. الإصلاح من خلال العمل كان ما يتوجب علينا الامتثال به وهذا ما كنا نقوم به. إذا ما أنجزته بشكل أفضل، تحظى بمعاملة خاصة. تحظى بامتياز السماح لك بإدارة الآخرين ويسمح لك أن تتغوط على الآخرين، بدل أن يتغوطوا عليك. تحظى «بالثقة» وبلقب «سجين حر».

وفي نهاية النهار، تعود لتسير في صفوف «المغرفة الكبيرة» ولا تحظى بواحدة منها بل باثنتين.

إن العمل يخلق الإنسان، ويخرج منه غزيرة لطالما غمرتها الثقافة المتقدمة. إنه يعيد الإنسان إلى تلك الحالة البدائية حين كان يمجد الخلق: حين كان ينتابه شعور بأنه يخرج إلى الوجود ويتبدل ويزداد جوهره خصوبة وثراء. اذهب إلى معسكر العمل وجرّب ذلك بنفسك! فليعد بك الزمن إلى الوراء، إلى عملية العصرنة. اشعر مجدداً بالرضى الناتج عن كونك بعيداً في الزمن وتسير قدماً.

انقضت خمس سنوات منذ أن شعرت للمرة الأولى بهذه الحاجة البدائية الملحة، منذ أن نافست هاي كسيكسي(*) في عمل

(*) الشخصيات من عمل سابق لزانغ أصدره العام ١٩٦١. وكان الكاتب قد أطلق سراحه من معسكر للمساجين، وكان شبه مشرف على الموت جوعاً وتلقى علاجه في إحدى القرى.

جسدي شاق، حين منحتني يينغوا القوة.

شعرت مراراً بفرح غريب.

حين تلاقت مجرفة بكفي، أو بللت رطوبة كيس الخيش كتفي أو أثقل الأرز على ظهري، دخلت في غمرة السلوان كما لو أني انتعلت حذاء سحرياً، وصار بمقدوري أن أقفز إلى أعماق اللجة أو حتى إلى الموت.

حين رفعت الأرز تهيأ لي أن ما من كمية كانت لتكفيني ـ كان يتملكني الجشع وتلحّ علي حاجة لأن أعرف كم بإمكاني أن أحمل كحد أقصى. ليس ثمة أكثر إقناعاً من حمل ثقيل، للبرهان على مادية العالم. يمكن لرُزمة من الأرز أن تكون مكتنزة كمثل وسط بقرة. بمقدور السجين العادي أن يرفع رزمتين أو ثلاث. كان يتعذّر علي الاكتفاء بخمس أو ست، بل كان علي أن أرفع سبعاً.

وبمروري مترنحاً بالقرب من قائد الزمرة يانغ كان يهتف في وجهي مكافأته الخاصة: «هاي أيها البغي إنك تجيد الرفع أكثر من بغل».

اللعنة! ما البغل مقارنة بي.

أنا هو أنا.

اغربي عني أيتها الشفقة على الذات.

اغرب عني يا حب الذات.

المزيد من الشجاعة.

حارب القدر حتى الموت.

لما كنتُ في كل مرة أزيد حمولتي، كان «وانغ» يهبّ لمساعدتي بين الفينة والأخرى. حين كنت أعمل على تكديس

الكوم، وأتأهب لرفع الحمل، كان يركض باتجاهي ليساعدني في الدفعة النهائية. مثل رافع أثقال كنت أنفخ بطناً ضخماً ثقيلاً. لو أبقيت قدميك تحتك ثم انتصبت واقفاً، يمكنك أن تحافظ على أي وزن كان على ظهرك. «لا تقتل نفسك» كان يردد «أنت تضني نفسك ولو استمررت في هذا، لسوف تبصق الدماء وينقضي أمرك».

التاريخ في الخارج كان يسير بسرعة هائلة، خارج هذا الروتين اليومي. ذات يوم، وفيما كنت أوثق الحبال وأتأهب لرفع حملي، تقدم مني «وانغ» ليساعدني.

ولكنه عوض أن يقدم لي يد العون، جلس على الأرز. «يا رجل، يا أيها البغي، إن حالنا أفضل بكثير داخل معسكر العمل». أتاني صوته من الوراء وفيه نبرة لا تخلو من الغرابة. «أنت تستعرض قدراتك أليس كذلك؟ حسناً دعني أخبرك ـ أول من أمس ذهبت إلى البلدة. ومن كان يستعرض نفسه هناك في وسط الشارع لم يكن سوى أمين سر حزب هذه المقاطعة بكاملها. وأيضاً رئيس الحزب. يعتمران قبعات الورق الضخمة. يضربان على مغاسل مكسورة (بدل الجرس) ويصرخان بأعلى صوتيهما عبارات عن الرأسمالية. يا رجل أنت محظوظ. هيا امضِ في استعراضك. هل تذكر ذلك العرض الذي ذهبت لأشاهده ـ «إنجازات الثورة الثقافية العظيمة»؟ اللعنة، اليوم يردد الحراس الحمر أن الأمر كان مجرد واجهة. حيلة أعدّها معارضو الرأسمالية لإخفاء جرائمهم. يقولون إن مقاطعتنا لم تعرف قط ثورة ثقافية صادقة. آن الأوان لنبدأ. أمين السر والرئيس، هل تصدق؟ ووراءهما صف طويل، «مالكو أراض أثرياء، أشرار، يمينيون» ويقولون إنهم أناس عاديون مثلك. جميعهم

يعتمرون تلك القبعات الورقية الملعونة، حتى أن البعض منهم قد صبغوا وجوههم. يا رجل، أيها البغي، إن الذي رماك في هذا المعسكر لا بدّ وأنه قد خلقك من جديد، وإلا كنت ستقف في الخارج أنت أيضاً بين أبناء الزنا أولئك، مسلماً نفسك للناس ليعملوا على «تقطيرك» حتى الموت.

جرّحت أشواك الرزم وجهي. وملأ دخان سيجارته أنفي. غريب كيف أنه حين تخالجك حاجة ملحّة للتدخين، يكفي أن تستنشق رائحة دخان سيجارة حتى ترتوي حاجتك. شعرت باسترخاء في جسدي. مع الأحداث المتقلبة بسرعة هائلة، أو يعقل أن تكون بعيدة نقطة التحول في قدر بلد ما، أو إنسان ما؟

كدّست الرزم فوق بعضها البعض. سبع منها لم تكن كافية. أردت أن أرفع ثمان. راح وانغ يصرخ مذهولاً «أيها البغي! أو تحاول أن تقتل نفسك؟ لا تنس، بقي أمامك سنتان تمضيهما هنا! الأمر عائد إليك إن كنت تود البقاء على قيد الحياة أم لا».

من كان ليعرف ـ من كان ليحلم ـ إن سجناً في معسكر العمل في الصين سوف يصير لدى البعض أشبه بجنة السلام؟ كان الأمر هكذا. بيد أني هذه المرة، وفيما أتلقّى عذابات البعوض، انتظرت بلا جدوى أخباراً من الخارج.

لم يصدر من ذلك الوجه الذاوي سوى خيوط الدخان اللولبية الصامتة. على مقربة مني، أزاح التراكتور المسلفة الميكانيكية وأوقفها على قارعة الطريق. بعد نهار طويل كانت أمضته تحت شمس حارقة، انتشرت في المكان رائحة زيت المحرك الكريهة، وانقضت على الروائح الطبيعية التي تنشرها الأرض الموحلة. كانت الأرض وكأنما تقاوم وتتقيأ هذه البدع العصرية التي تغلبت عليها بروائحها

الخاصة. ذلك المزيج المثير للغثيان أصبح لا يطاق.

«أيها القائد وانغ هل ثمة من أمر آخر؟» نظر من حوله كما لو كان لاحظ للتو وجودي. «لا. هذا كل شيء» وراح يفتش في جيوبه وسحب سيجارة ملفوفة نصف مدخنة. «عد».

«عد» كانت تعني إلى المخيم. أخذت السيجارة التي قدّمها لي وانتزعت طرفها الذي لا يزال مبلولاً بريقه. وسرعان ما تساقطت السيجارة أشلاء. اللعنة لم يكن حتى يجيد التدخين مثلي. لا يهم طالما أن معي سيجارتي الخاصة. كان صدر قرار يسمح للسجناء بمصروف الجيب وسجائر أيضاً توزع عليهم شهرياً: كان أصبح عالماً مختلفاً عما كان عليه في العام ١٩٦٠. سحبت علبة الأبر الألومنيوم التي كنت سرقتها من كومة نفايات بالقرب من مقر وحدة الصحة. وضعت فيها التبغ الذي جمعته بتأنٍ ثم لففت لنفسي سيجارة كاملة، لي أنا وحدي. أشعلتها. «عد».

كانت الأخبار التي نقلها إليّ عبر صمته الطويل، أجدى وأعمق من الكلام نفسه. الشواش في الخارج كان بدأ يصير عصياً على الفهم. صمته ذلك كان تأكيداً على وجود ذلك الشواش، مثل ختم نهائي. هذا الأمر كان بمقدوري أنا أن أفهمه في مخيمات العمل، كان كل واحد منا هيغلياً: من «لا شيء» كان بمقدوره أن يخلق «شيئاً». بالأساس ما من بقعة خالية في العالم، ما من مطرح مجرد من المكان والزمان. تلك المساحات التي تبدو وكأنها فارغة يملأها في الواقع، بصيص أمل: أمل المساجين.

قراره بنقلي إلى حقول الأرز أتاح لي فرصة رؤيتها.

2

منذ اختراع السجون، لم تولد فكرة أكثر ذكاءً من استخدام السجناء لحراسة سجناء آخرين. السجناء الاثنا عشر الذين أوكلت إلي مهمة الإشراف عليهم، وكانو أرسلوا من فرق مختلفة للعمل في الحقول، لم يكونوا مشاكسين كما كان افترض القائد وانغ. كان قد تكلم من وجهة نظر كادر، أي من وجهة نظر طبقة منفصلة عن تلك التي يشكلها السجناء. وبقوله ذلك كان يضعني أنا أيضاً ضمن فئة مختلفة عنهم.

بيد أنه، في الواقع، سرعان ما نشأت ضمن أفراد جماعتنا صداقة متينة. كنا منفصلين عن اللواء الرئيس، وكانت قاعدته على بعد أميال عديدة من حقول الأرز. أما مقر لوائنا الصغير فكان في منزل قديم من الآجر الترابي على قمة إحدى التلال. منه، كان بمقدورنا مراقبة «لواء إنتاج» من عامة الشعب في الجانب الآخر من القناة.

لم يكن ثمة برج للمراقبة أو أسلاك مكهربة. لم يكن هنالك أي سجان يحمل بندقية على مقربة منا. أصوات نباح الكلاب وزقزقة

العصافير كانت تولد لدينا شعوراً وكأننا في ديارنا. حين كانت الأزهار تتفتح على جانب القناة لجهتنا نحن، كانت النحلات تطير من الجانب الآخر، كما لو أنها نجحت في محو خطوط الحصون القائمة بين الناس.

بعض «السجناء الأحرار» الذين شكّلوا أفراد جماعتنا، كانوا يقضون عقوبة قصيرة الأمد، أما البعض الآخر فكانوا على وشك إنهاء عقوبة طويلة ما جعل أي محاولة للهرب فكرة بعيدة الاحتمال، أو غير مرغوب فيها على الإطلاق.

من كان ليرغب في الهروب من جنة نائية مماثلة خلال الأوقات العصيبة التي كانت تمر بها الصين؟

كان الأرز بدأ ينمو آنذاك وراحت أوراق شجر الزيتون البري تتساقط على ضفاف القناة. كانت الأزهار الذهبية الصغيرة تتساقط في المياه، ليجرف التيار بعضها والبعض الآخر تستوقفه أغصان شجرات الصفصاف المتدلية وتستبقيه في تيار دائري.

أزهار كانت الأغصان تلتقطها بوفرة، شكّلت إلى جانب عسيل الصفصاف مزيجاً أصفر وفضياً يطوف على سطح المياه المتموجة. بعد نهار من العمل في الحقول، كنا نقصد القناة ونجلس لتناول العشاء على ضفتها. هنالك على الجانب الآخر تحت شجرات الصفصاف كان أولاد القرية يقفون صفوفاً بصمت. كانوا يحدقون بنا، نحن زمرة الرجال في الزيّ الأسود الموحد، يحدّقون بنا وكأن الغرابة بحد ذاتها تتمظهر في كل حركة نأتيها. هالة من الغموض كانت تلفّ ثيابنا، كتلك التي تلفّ برد الأستاذ الأسود. ماذا فعل هؤلاء الرجال؟ ما القدر الذي كان وراء

اجتماعهم هنا؟ في عقولهم الصغيرة كان يولد رعب مما يمكن أن يكون قد حصل، رعب العالم الخارجي، المستقبل.

إذا صدف مرور اللواء الرئيس متوجهاً إلى العمل في الحقول، بمواكبة حراس الأمن، يزداد جمهور المتفرجين على الضفة الأخرى. كان المزارعون القادمون من قراهم البعيدة لزيارة أنسبائهم يحولون فرصة مشاهدة السجناء إلى مناسبة احتفالية.

«هاي، أنظر إلى هذا! لا يزال يضع نظارات».

«انظري إلى ذلك الشاب، أجل ذاك، أوليس وسيماً؟»

«ماذا إذاً؟ أو ترغبين في أن يصير صهرك؟»

«هل لك أن تصمتي. لست عجوزاً إلى هذا الحد».

سرعان ما كانت تلك الأحاديث تنقلب إلى شجار بينما النساء ينطلقن في مزاح بلا حدود. خشبة مسرحنا تلك كانت بمثابة مسرح في الهواء الطلق.

بعد فترة وجيزة، كنا نشعر بالتعب والإرهاق، حتى ولو لم يكن عمل النهار شاقاً.

وبغية الترفيه عن أنفسنا، حتى لو لم يكن وانغ أمرنا بذلك (والغناء كان يتم أيضاً بالأوامر) كنا ننطلق في أغنية نغنيها بعفوية مطلقة. من بين كل «الأناشيد الثورية» اثنان منها كانا الأقرب إلى قلوبنا:

إن الشمس تغيب وراء التلال الغربية

بينما الغيوم الحمراء تذروها الرياح

يعود الجنود إلى المخيم بعد تمرين على الرمي يعودون إلى المخيم.

نحن... رجال الحزب الشيوعي

نشبه تماماً... البذور!

ولدى وصولهم إلى كلمة «بذور» كان السجناء الأصغر سناً يقفون على ضفة القناة ويرمقون بنظراتهم الشابات الواقفات إلى الجانب الآخر.

لم يكن وانغ يولي أهمية لما كنا نغنيه. كان يكتفي بإطلاق «بغي» ودية إذا غنينا بشكل جماعي، بحماسة وإتقان. واستمرت هذه الحالة إلى أن صودف في أحد الأيام مرور حراس الأمن. ونقلوا اعتراضهم إلى السلطات، «سلطات الإصلاح العمالي»، كما كانت معروفة آنذاك، التي سارعت بدورها إلى إصدار قانون يمنع الغناء الكيفي ويطالب: «من السجناء، وفي هذه «الفترة الثورية الحرجة» اقتصار أغانيهم على تلك التي تهاجم «العناصر الرجعية». وكان علينا الالتزام بأغانٍ محددة، كما لو أنه ما من سبيل إلى الانتصار على الرجعية، إلا بتحطيم وسحق كل ما هو رجعي».

بيد أنه بحلول العام ١٩٦٧، تمّ إلغاء صلاحيات تلك السلطات. كافة أعضاء دائرة الأمن الشعبي ودائرة التحقيقات والدائرة القانونية تم «تحطيمهم وسحقهم». أولئك النبلاء اعتبروا أنفسهم متفوقين على كادرات الاصلاح العمالي الوضعاء في القرى النائية، وعمدوا إلى تنفيذ قوانينهم العرفية الخاصة.

وفقاً لما جاء في كتاب ماو، «الكتاب الأحمر الصغير»، فإن الوضعاء هم الأكثر ذكاءً، في حين أن «النبلاء» هم الذين يحتاجون إلى إرشاد وتوجيه. نتيجة لذلك انبجس الشك والريبة في الكتاب بين صفوف «النبلاء».

أيّاً تكن طبقتك أو حزبك فإنه بمقدورك أن تنتزع منهما ما

تشاء. لعلّ الكتاب الأحمر الصغير كُتِبَ لتبرير كافة الغايات.

عبارة «العناصر الرجعية» على سبيل المثال، من كانت تعني بالتحديد؟ كيف لك أن تكون على يقين من أن الآخرين كانوا يقصدون ما أنت تقصد؟

إن فريق السجناء كان يشكل مصدر قلق بالنسبة إلى «النبلاء» - ومن بين المنبوذين المتعذر فهمهم أولئك، كيف لك أن تحدد من هم الذين يطلق عليهم صفة «العناصر الرجعية»؟

في نهاية المطاف، صدر أمر بمنع الكتاب الأحمر الصغير والأغاني على حد سواء. ونتيجة لذلك بدأنا نغني أغنيتنا الخاصة ووضعنا الكلمات لنشيدنا الخاص:

«إصلاح، إصلاح، أصلحوا هذا الإصلاح. هاي!

إلى المنزل مساء، إلى المنزل ومغرفة من الطعام. هاي!»

كل يوم، كان يتم تعيين أحد الرجال ليأتينا «بمغرفة» الطعام من اللواء الرئيس إلى كتيبتنا في الحقول. كان يسمح لنا بملء قدرين من الحديد وكان رجلنا يأتينا بهما ممتلئين أياً كان نوع الطعام.

في الخارج كان تم إنكار النظرية القائلة بأن «لكل واحد ما يستحقه وفقاً لعمله» بيد أنها كانت في مخيمات العمل بمثابة قوانين صارمة. حين كانت الخضروات كالبندورة والخيار موجودة بوفرة، كنا نأخذ منها ما نشاء. المسؤولون عن الخضار كانوا «سجناء أحرار» مثلنا، فشكلنا معهم معاهدة وبتنا نطبق نظرية «لكل واحد بحسب حاجاته». نحن السجناء كنا نأكل الخضروات طازجة قبل الآخرين، قبل قادة الفرق، وقبل أي من الكوادر وعائلاتهم.

اكتشفنا أن الحرية نسبية. إذا كان بمقدورك، في أسوأ الحالات، الحصول على جزء صغير منها، فإن مكافأتك ستكون أكبر وإن بشكل متفاوت.

بعد أن كنا نملأ بطوننا بمغرفتين وأيضاً بكمية وافرة من الخيار والبندورة، كنا نشعر بتخمة تجعلنا عاجزين عن الحراك. كنا نستلقي على منحدر القناة فنشعر باقتراب السكينة والهدوء.

وبينما الشمس تغرب وراء الجبال البعيدة، كان الصمت يأتينا عبر الحقول المروية الشاسعة. نقيق الضفادع المتواصل كان يتناهى إلى مسامعنا عالياً تارة ومنخفضاً طوراً وكأنما بكسل. وعلى نحو مفاجىء يحدث لضفادع حقل بكامله أن تستيقظ بنقيقها الأجش، المبتهج والساخط في آن. وكأن تلك المخلوقات كانت تتقصد استرجاع العالم وانتزاعه من قبضة الناس وفي أصواتها كان وعد بالنصر.

هبت إحدى النسيمات وموّجت سطح المياه ولونتها بأنوار ذهبية.

أغمضت عينيّ ودخلت في غفلة ساكنة. تلك الحالة الذهنية كانت أجمل ما يمكن أن يتوصل إليه سجين، بيد أنه كان من الصعب تحقيقها من غير تدريب ومراس.

إلى أن تتبدّى نقطة تحول في التاريخ في الخارج، لم يكن لدينا نحن القدرة على التحكم بما يحتمل حدوثه. كان من الأجدى الغرق في الغفلة. ما الذي كان بوسعنا التفكير به على أية حال؟ العالم في الخارج كان يسير ما وراء حدود قوانين الماركسية التي كانت وكأنما تتلمس طريقها؛ كل الكتب تمّ إقصاؤها. وقيل إن هذه المرحلة من التطور كانت بالضبط ما تنبأ به ماركس. ورغم

ذلك، حتى «وانغ» نفسه كان عاجزاً عن تفسير ما كان يحصل، في حين كنت أنا منفياً إلى عالم مختلف. كان لصمت وانغ الهائل أن يخفي بعض أمل لا أساس له بيد أنه لم يشِ بأي إشارة لما كان يحدث في العالم. على أية حال وبحسب ما ردده سبينغلر فإن الجهل لا يمكن أن يكون أرضاً خصبة للدفاع».

قلت لنفسي إنه ينبغي بي أن أكف عن التفكير وأن أكون سجيناً ليس إلا. رغم ذلك، شعرت بالخجل فهذا بالفعل ما أصبحت عليه، سجيناً حتى العظام، وأكثر من نصف حياتي قد انقضى في هذا المنصب الاستثنائي.

بعد فترة طويلة من الاستلقاء على الضفة، يروح السجناء يتهيأون للنهوض واستعادة نشاطهم. «قل، ألن يكون الأمر رائعاً لو تأتي لزيارتنا روح هذه الليلة؟»

«بالتأكيد، شرط ألا تكون ساحرة شريرة. بل الأفضل أن يكون وجهها مجملاً بالمساحيق. أحمر الشفاه، ظلال الخ».

«اللعنة على كل هذا، الأرواح المشنوقة تتدلى ألسنتها الطويلة الحمراء ـ تلعق وجهك وينقضي أمرك».

«روح واحدة لن تكون كافية. نحن بحاجة إلى عدد كبير منها. ثلاث عشرة. واحدة لكل منا...»

«قائدنا لا يريد واحدة، إنه عثة كتاب».

«عثة كتاب؟ حتى تلك بحاجة للمضاجعة».

لم يكن بمقدوري أن أمنع نفسي من الضحك مع الآخرين. مغلق العينين، كنت أشعر بنظراتهم الموجهة صوبي. كانوا يرون إليّ وكأني مخلوق متفوق وعلى حدة. رغم ذلك شعرت بكثير من

التماثل معهم.

إثر «تشويع» الصين العام ١٩٥٨، أضيف على قوانين البلاد السائدة عبء قوانين إضافية. هذه القوانين الجديدة تسربت، بطريقة لا مثيل لها، إلى كل صدع في الحياة القروية.

كل مزارع كان يعيش ما روته إحدى الخرافات الإغريقية: تلك القوانين كانت بمثابة سيف مسلّط في مكان ما فوقهم وكانوا بالتالي، يعيشون في رعب انتظار اليوم الذي يسقط فيه السيف على رؤوسهم.

الاستماع إليهم، وأحدهم يروي للآخر تفاصيل أوضاعه المذرية كان كمثل الاستماع إلى أنين الرياح وسط الغابات.

«الأمر شاق. أليس كذلك. أنت لا تسرق فكيف تفلح في الاستمرار في العيش؟ معدتك خاوية...»

كان ثمة رجل ذو أنف أفطس قد سرق سماداً كيميائياً كان يستخدمه فريق الإنتاج خاصته وباعه من جديد. حكموا عليه بالسجن خمس سنوات بيد أنه شعر بشيء من الغبطة لأنه كان محظوظاً: «كان الأمر يستحق العناء. فلقد تمكنت من شراء الدواء لوالدتي العجوز. حكموا علي بالسجن خمس سنوات لكنهم لم يسترجعوا المال».

«أجل أنا أيضاً محظوظ». سجين آخر دبر له سوء الطالع موت بقرة الكوميون فوقه: قيل إنه أطعمها حتى التخمة. «سألتني المحكمة: هل تفضل أن تقوم بالأعمال الشاقة أم أن تدفع ثمن البقرة؟ فكرت ملياً بالأمر. في معسكرات العمل من السهل أن يجد المرء ما يقتات به. فاتخذت قرراي. ليس الوضع بسيء لولا افتقادنا النساء. تباً، قليل من الصبر».

أحياناً كانوا يتوجهون بسؤالهم إليّ: أيها القائد زانغ، ما الذي أتى بك إلى هنا؟» «أنا» كنت أجيب «أتيت بلا سبب».

وكانـت أفواههـم تتشدق بضحكة عالية تنم عن تعاطف كبير.

«أدخلت بلا سبب» العبارة كانت بمثابة حادثة عرضية يومية في المخيمات، مثل أحداث عرضية كثيرة: حين تأكل أكثر من شبعك تتجشأ بطبيعة الحال، وتصاب بالزكام حين تشعر بالبرد. لم يكن أحد ليسأل عن التفاصيل. لم يكن أحد ليسأل «لماذا يتم إرسال رجل إلى الأعمال الشاقة بلا سبب؟» كان ذلك بفعل طبيعة الإنسان التي لا تعرف التذمر، التي تثق بالقدر كما لو كانت ورقة تطفو على سطح النهر. «فليحدث ما يحدث» ردة الفعل تلك التي لا تعبر إلا عن خنوع جنسنا.

أنا أيضاً كانت تنتابني الشكوك. مانفع التفكير عندما يبدو لك أن كل شيء يتحكم به القدر؟

عرفت سبب تفكيرهم بأشباح نساء وخصوصاً أولئك اللواتي متن شنقاً.

المنزل حيث كنا نعيش كان تمّ تشييده في الخمسينات قبل أن تتقرر إقامة معسكرات الإصلاح العمالي في هذه السهول الواسعة. وأطلق عليه آنذاك اسم «أسرة منزلية مستقلة» وهذه العبارة مأخوذة عن المصطلحات اليابانية التي كانت تستخدم في استراتيجية الحروب القديمة.

تمّ تشييد المنزل من الآجر على بعد مسافة قصيرة من اللواء الرئيسي، وأتلفه مرور السنوات وتمّ هجره تدريجياً. وبحسب ما ترويه الأسطورة أن فتاة رائعة الجمال كانت تعيش في قرية

مجاورة. وبغية التفلت من قرار بالزواج دبره لها والداها، هربت الشابة البائسة إلى المبنى المهجور الذي نعيش فيه اليوم، والمكان يعتبر مثالياً لمن يريد أن يشنق نفسه، وهناك في منزلنا قتلت نفسها. لا بد أنه كان سهلاً عليها تدلية حبل من رافدة خشبية قديمة ناتئة. من كان يخطر بباله أن يزور مكاناً مهجوراً كهذا خصوصاً وأن أمامه يافطة تقول: «يمنع الدخول منعاً باتاً». من كان سيخطر له أن يطوف في أرجائه ويمنع امرأة شابة من أن تضع حداً لأيامها؟

كان السجناء القدامى الذين يعيشون في المنزل منذ أكثر من عشر سنوات لا يزالون يبدون اهتماماً فائقاً بهذه الحكاية.

«اللعنة. كانت رائعة الجمال! كانت لا تزال تنتعل حذاءً أحمر وضفائرها متدلية لمّاعة متلألئة. وجهها كان أبيض رائعاً ورموشها طويلة. عندما حملناها كان جسدها... آه... ناعماً رقيقاً...»

وقال بعض الرجال إن سروالها الداخلي كان مبللاً بالبول وإن لسانها كان يتدلى من فمها، فيما اعتبر السجناء الأكبر سناً أن كل هذا الكلام تجديف وكفر ويسود اعتقاد لدى الكثيرين أنها تحولت إلى شبح.

نحن الذين قدمنا في وقت لاحق لم يكن لدينا، بطبيعة الحال، أي شعور بالمهابة. كنا نتمنى فقط لو كان بمقدورنا إعادتها إلى الحياة حتى نشعر بجسد نابض بالحياة يطوف حولنا.

«قليل من الصبر والصمود»! في غمرة اكتئابنا وشوقنا، كانت لنا مصدر عزاء وسلوى. وليغفر لنا أفكارنا الرديئة كل العذارى وذوات العفة.

بين الفينة والأخرى، كان اللواء الرئيسي يقوم بعرض أحد الأفلام السينمائية في الفترة المسائية وكان وانغ يأمرنا بالذهاب إذ

أن أفلام السينما كانت تعتبر نوعاً من سبل «التربية والتثقيف».

ولما أنه كان يتوجب على الرجال البقاء خارجاً لتأمين الحراسة الليلية، كنت على استعداد دائم للتطوع لهذه المهمة. حتى عندما يكون المرء سجيناً فإن منصبه كقائد يتوجب منه بعض التضحيات ليحظى باحترام رجاله.

ذات ليلة شعرت بسحر يغمر المكان من حولي. راحت رياح خفيفة ترقرق فوق حقول الأرز وهي تصرخ وتتكلم وتؤنب. كانت المياه تتموّج تحت لمستها تموجات رقيقة ناعمة بينما الضفادع ترسل نقيقها المتواصل. خارج نافذتنا الوسخة لم يكن سوى اللون الأسود اللماع.

رفيقتي الوحيدة كانت شعلة قنديل زيت بحجم حبة الفاصوليا. كان الصمت يسود بكل ثقله وكل ما بوسعي رؤيته كان ظل جسدي على حائط الطين المرقش. استرسلت في التفكير. «ثلاثة عشر، ثلاثة عشر». رحت أفكر بهذا الرقم الأكثر شؤماً محاولاً استدعاءها.

من العارضة في الأعلى، نزلت تطوف حولي. بداية ظهرت غيمة ضبابية من السديم الملون ومن ثم تجسدت في فتاة رائعة الجمال. وكما وصفها السجناء القدامى كانت تتدلى من رأسها ضفيرتان لماعاتان، رموشها طويلة متلألئة عيناها دامعتان. وفي ضوء قنديل الزيت الخافت كانت بشرتها تخفي لوناً قرنفلياً رائعاً تحت لونها الأبيض الشفاف. كانت لا تزال ترتدي فستاناً صيفياً وفي قدميها حذاء أحمر.

طرأ تحول جذري على منزلنا البسيط الجاف. اقتربت مني بخجل وهي تنفض ثيابها بحركات تفيض رقة. وبصوت إنسان

كمثل صوتي قالت لي: فاجع، آه، إنه لأمر فاجع جداً».

«تعالي. قلت لها باسطاً لها يدي. حياتك كانت فاجعة وحياتي أيضاً. فلنبق معاً».

«ولكني أتكلم عنك أنت». وضعت يدها على كتفي بينما راح جسدها الطري يزداد التصاقاً بجسدي. ألقت بنظرها على الكتاب المفتوح أمامي وقالت: «أنت من هو تعيس. بعد أن يموت المرء تزول كل آلامه. أراقبك كل مساء وأنت تنتظر أن ينام الجميع لتنهض وتقرأ. لماذا؟ أنت ترهق صحتك».

كانت في صوتها نبرة رقيقة مؤنبة. أمسكت خصرها النحيل ورحت أضمه بقوة إلى جسدي. قلت لها: وأنت أيضاً لست بمحظوظة! لماذا اخترت أن تقتلي نفسك وأنت في ربيع عمرك؟ آه لو أنك ما زلت على قيد الحياة».

«لم يكن بوسعي الاستمرار في العيش». أخذت تتمايل أمامي برفق فشعرت وكأني أطأ أرض الأحلام.

«كانوا سيرغمونني على الزواج من أحدهم. لم يكن بوسعي - أو تعتقد أنه كان بمقدوري الاستمرار؟» وتابعت بصوت منخفض «لو أنك كنت موجوداً لكان تغير كل شيء».

ضممتها إلى صدري وأجلستها على ركبتي. رحت أداعب شعرها. «الذنب كله ذنب المجتمع». شرعت بالقول. «لم نتوصل بعد إلى تحقيق المساواة بين الجنسين، لم نبلغ بعد مرحلة الزواج بملء الخيار والحرية. لهذا السبب أنا أقرأ. حتى أكتشف كيفية تحقيق المساواة بين إنسان وآخر».

لم تبد رغبة بالاستماع إلى الدرس الذي كنت ألقيه عليها، وأخذت تتلوى في حضني. «متى سيتحقق كل هذا! سوف

يستغرق ذلك مررو أجيال عدة. لا أجرؤ حتى على التفكير بالأمر».

كان وزير مقاطعتنا يتكلم هكذا. حتى مكبر الصوت كان يتكلم هكذا. «يالكل هذا الهراء. على أية حال، أن يكون المرء ميتاً ليس بالأمر السيىء. ولكن إذا كنت تريدني حية فسأعود إلى الحياة من أجلك». رفعت رأسها وبانفعال مفاجىء قالت: «أنت رجلي. لا تصغ لما يقوله مكبر الصوت. دعني أغنِّ لك أغنية لطالما كنت أتوق لغنائها. دعني أغنِّ لك كيف يمكن للحياة أن تكون جميلة. دعني أغنِّ لرجل كان بإمكاني أن أحبه». شرعت في غناء رقيق عذب. وانتشر أمام عيني مزهر رائع من الزنابق الذهبية. حقل من الزنابق لم يسبق لي أن رأيت له مثيلاً. حقل يغري الناظر بالدخول إليه.

«على زجاج النافذة الدامع يظهر وجه،

تنظر باسمة إلى حبيبها في الخارج،

ينفتح بهدوء باب من بابين يتأرجحان ذهاباً وإياباً.

تدعو حبيبها للدخول.

تتلاصق جفونهما والعيون.

برموشهما يتكلمان عما في قلبيهما.

زوج من الحمام يطير جنوباً.

سوف أضم حياتي إلى حياتك وأنام معك».

شرع الرجال آنذاك بالعودة. كان بوسعي سماع أصواتهم من بعيد.

بعد لحظات كان كل ما تبقى من الأغنية ضباب رقيق وأنفاس

دافئة من جسدها.

دلف الرفاق من الباب وراحوا يكدسون البندورة والخيار في المكان حيث كانت تجلس.

«السارق لا يعمل مجاناً» قال أحد السجناء.

«كلْ! أو تعرف مدى صعوبة إيجاد خيار طازج كهذا؟»

أمسك خيارة وراح يمسحها بكف أكثر وساخة من الخيارة نفسها، وقدمها لي مقتنعاً بأنها نظفت من الأوساخ. لم يكن يكترث إذا ما وُصف باللص.

في زمن كان من غير الطبيعي الامتناع عن السرقة، وهذا ما كان يقوم به كل مزارع، لم تكن السرقة مدعاة للخجل. بدأ الرجال يهيئون أفرشتهم القطنية على منبسطات(*) الآجر.

وسرعان ما انتشرت في الغرفة رائحة تعرّق نتنة. حين آوى الجميع إلى فراشهم بدأوا يتحدثون عن الفيلم: «ذلك الرجل في الفيلم، أراهنك أنه قد ضاجع الفتاة. كلاهما في الكتيبة نفسها. أو تصدق ذلك؟»

«كل الجنوبيين يعبثون هكذا، إن الجو هناك لمثير جداً...».

«سمعت أنه في الجنوب لا تخصص مراحيض للرجال وأخرى للنساء».

«أو تعرف أن النساء والرجال يستحمون معاً في اليابان؟»

«في اليابان، ماذا عن الصين؟ حين انتقلت إلى شانغهاي، شاهدت منظراً لا يزال عالقاً في ذاكرتي إلى اليوم. شاهدت بأم

(*) منبسطات الآجر كانت تستخدم للنوم ليلاً وللجلوس نهاراً وكانت تتم تدفئتها بواسطة مداخن المواقد الممتدة من تحتها.

عيني شلة من النساء والرجال يعبثون معاً في حوض للسباحة».

«بدون ثياب؟»

«ماذا تعني «بثياب»؟ كيف لهم أن يعبثوا في المياه بهذه الطريقة وهم يرتدون الثياب؟ كانوا كلهم عراة تماماً».

«آه. حسناً»...

أما أنا، وبين ذراعي فتاتي العذراء، كنت أطأ عالم الأحلام. أفسحت لها مكاناً بالقرب مني ونامت بجسد ناعم لكنه خاو.

في إحدى المرات كان تسنى لزمرة العمال مشاهدة فيلم «لينين في أكتوبر» ومن المشاهد التي انطبعت في ذاكرتهم ذلك الذي يصور فاسيلي وهو يطبع على فم زوجته قبلة الوداع: «إذاً فعليك أن تمسك الوجه بهذه الطريقة وتمضغ!»

«هل سبق لك أن مضغت زوجتك. ها. ها! هل مضغتها. أخبرنا هيا. أخبرنا وسنكون متساهلين معك».

كان السجناء يذكرون جيداً مصطلحات عملية الاستجواب وكانت هذه المصطلحات تخرج تلقائياً من أفواههم.

«ماذا، أمضغ ذلك الوجه المقيت؟ ما إن ودعتها حتى وليت هارباً نحو الجهة الغربية من النهر...»

كانوا يرفضون تقبيل وجه مقيت لكن أجزاء الجسد الأخرى ألم تكن قذرة بنظرهم؟ إن الحب تعبير عن الثقافة. في مكان مجرد من الثقافة وفي إنسان يفتقدها يزول كل صفاء الحب الرقيق ولا يبقى سوى ذلك التوق الجسدي البدائي.

ادخل من الباب وأطفىء النور.

وضمني إليك بعنف...

انطفأ نور القنديل وأظلمت الغرفة حيث شنقت فتاة نفسها. الذين يشخرون بدأوا بالشخير والذين يصرون بأسنانهم راحوا يصرون بأسنانهم.

غط السجناء في نوم عميق الواحد تلو الآخر.

الرجل الذي أطعم بقرته حتى الموت شرع يغني مقاطع من أغنية ما وختمها بتمتمات من شفاهه قبل أن يلج الأحلام العذبة. في هذه الغرفة، كل الأحلام التي يراها كل هؤلاء الرجال كانت أحلاماً عن النساء.

تلك الأحلام كانت تشع في أذهان الرجال المتوحدين كمثل ومضات كهربائية. ماذا عني أنا؟ لم يكن بوسعي التمييز بين ما هو فاحش ولا أخلاقي وبين ما ليس كذلك. كنت مدركاً أن في جسدي شياطين رغبة جبارة، ذلك الجسد القوي البنية لرجل في الثلاثين من عمره. في محاولات بوذا ورد السؤال التالي: «ما هو بالتحديد ذلك الذي يطلق عليه اسم الشيطان؟»

والجواب كان على الشكل التالي: «ذلك الذي يسلب الإدراك والبصيرة، والذي يسيء إلى كل الطرق السليمة وإلى الفضيلة والطيبة».

إن بوسع الشيطان ـ الأنثى تدمير ذهن رجل وسلبه قدراته إلى الأبد وأيضاً أخلاقه وتربيته وذكاءه. بإمكانها أن تمحو كل ذلك بلحظة ولا تترك له سوى الانحطاط.

على أية حال، اللعنة على كل هذا فأنا كنت أقوم بالأعمال الشاقة. منذ عشر سنوات دمغوني بصفة «عدو الشعب» وها أنا في مخيمات العمل للمرة الثالثة. هي المخيمات التي تلقي علي قبضة الموت وليس الشيطان ـ الأنثى.

في البوذية تتردد أقوال عن «التعاقب الأزلي للموت والحياة» ولا يبدو أني حظيت بفرصة واحدة. إن الغنائية تبدو لي بلا جدوى ولا فائدة تذكر. نحن السجناء كنا ننام من دون ثياب وذلك لأسباب عدة، أولها رغبتنا في المحافظة عليها، وكانت ترسلها إلينا عائلاتنا أو أننا كنا نعمد إلى شرائها باستثناء الزي الأسود الموحد، والسبب الثاني كان القمل. تحت الأغطية راحت يدي الخشنة تحك صدراً نامي العضلات وكان الأمر أشبه بملاطفة حيوان متوحش قد يقفز مزمجراً في أي لحظة. «الحب»، لربما قد انطفأ في داخلي منذ زمن طويل. لقد زال كل ما شعرت به يوماً وتوارى جميع الذين عرفتهم.

لأني أحببتها لم يكن بوسعي أن أسمح لها بمشاركتي الحياة. لأني أحببتها لم يكن بوسعي الاقتراب منها أكثر. التوق إليها كان نوعاً من نفاق ورياء يحيلان حياتها ديناً علي. أن أدعها ترحل كان بمثابة منحها الحرية. وأيضاً كنت على يقين أن القلب حين يرق كان ليفضي إلى استحالة مواجهة الواقع القائم بالسلاح المناسب. كنت رأيت الكثير. رأيت رجالاً يقعون أرضاً وقد حطمهم الواقع. أولئك كانوا ذوي قلوب رقيقة. كان ينتابهم القلق حول ما هو «الصواب». وكانوا قد وقعوا في الحب.

الحب الطاهر، الخوف وارتعاشة الحب الأول، الشذا والعبير، توهمات الغرام، أين أضحت كلها اليوم؟ لقد أبادتها ثياب السجون والوقوف في الصف ومناداة الأرقام وعملية إحصاء السجناء والسير إلى العمل.

لقد أطفأها الصراع المرير. ولم يتبق سوى الحاجات الجسدية الحيوانية. ما كان يثير فيّ الشعور بالخوف لم يكن خلو المكان

حولنا من نساء نحبهن. كنت أخاف من أن أخضع لاختبار فلا أجد ذرة حب متبقية في داخلي. أصبحت عواطفي قاسية مثل جلدي. لم يعد في عيني رقة سوى بمقدار ما في نظرة نسر. إن الجنس، وبرغم من كل شيء، موهبة فطرية: بفقدان الحب نعود إلى المرحلة الجسدية. فيما كنت أحك صدري، شعرت بوخز من الداخل، بألم في أضلعي وفي دماغي. سمعت لهاث حيوان غادر، شعرت به كما باحتراق داخلي ينساب في كل عروق جسدي وشرايينه. ذلك لم يكن أنا بل مخلوق آخر في أعماقي. وكان من الممكن أن يحدث انفجاراً مروعاً في أي لحظة. انفجار يمزقني أشلاء ويتلمظ بشفاهه الدامية لينقضّ على أول امرأة يراها.

غفوت أخيراً. في أحلامي شاهدت نساء أو بالأحرى امرأة تظهر في صورة مشوشة يستحيل الإمساك بها. حسدت كل المزارعين النائمين حولي في الكوخ على أن الزواج المبكر كان من العادات الشائعة في هذه المنطقة. هذا العام سوف أبلغ الواحد والثلاثين من عمري، ومع ذلك فإني لم أعرف بعد امرأة. كان للآخرين تجارب كاملة. في أحلامهم كان بمقدورهم استذكار كل ما يتعلق بمعرفة الجنس الآخر.

كانوا يتفلتون من قيود سجنهم ويبلغون النشوة القصوى في هروبهم إلى الأحلام. أما أنا فلم أكن أعرف سوى التجريد. كنت أرى أطياف جسد رقيق تتموج، كنت أرى ألوان بيكاسو في مرحلته الفنية الأخيرة، تترنح في ضباب من الدخان. وكنت أحاول إقناع نفسي أن هذه امرأة.

أحياناً كانت تتخذ أشكالاً أكثر الفة وكانت تذوب فيّ أشياء كنت أجد فيها لذتي: كانت تستحوذ رقة ونعومة دخان سيكارتي،

نكهة ولين خبزي المبخّر؛ كان لبشرتها حفيف أوراق كتابي البيضاء. كانت لها نعومة مقبض رفشي الذي اكثرت استعماله. حين كانت تأتيني بمعية كل هذه الأشياء المحفوظة في رأسي، كنت لأدخل إلى أعماق اللجة. في العتمة وجدت أنا أيضاً لذة جسدية.

3

إن أقسى فترات العمل في حقول الأرز كانت تلك الممتدة بين غرس النباتات الصغيرة والوقت الذي تبدأ فيه بالانتصاب فوق المياه. وكان يطلق على فترة الأربعين يوماً تلك تسمية «مرحلة الحفاظ على النباتات».

بعد انقضاء هذه الفترة، كان مسموحاً لنا نحن الثلاثة عشر رجلاً أن نستغرق في فترة راحة واسترخاء.

خمسماية آكر من الأرز، مقسمة علينا بمعدل أربعين آكر للواحد، كانت تنمو طرية شبيهة بقطعة ضخمة من اليشب الأخضر. وعندها كان من الممكن استدعاؤنا للعمل إلى جانب اللواء الرئيسي. وبما أن القائد وانغ كان على معرفة وثيقة بإيقاع العمل الزراعي، كان يحترم فترة الاستراحة تلك باعتبارها مكافأة على أربعين يوماً من العمل الشاق طوال الليل والنهار. وثمة سبب آخر وراء تساهل وانغ وهو أن تلك الفترات كانت تشهد وبشكل مستمر إمداد المخيمات بأعضاء جدد. كانت الثورة الثقافية بصدد تحطيم الرقم القياسي العالمي في إحصاء عدد «المجرمين». وكانت

السلطات منهمكة في الإعداد للترتيبات اللازمة لاستقبال وفود عديدة من النزلاء الجدد وكانت في غنى عن خدماتنا نحن القدامى.

لدى عودته من مهمة إحضار طعامنا، أخبرنا الرجل ذو الأنف الأفطس بأنه التقى للتو في قسم الخضار بسجين جديد كان أُحضر تحت حراسة مشددة. وبحسب ما يرويه هذا الوافد الجديد أن الأخبار من الخارج تفيد بأن الحيطان كانت مفروشة بالقرارات القضائية. إن دخولنا إلى هذا المكان في وقت مبكر كان بمثابة نعمة وإلا فكان تمّ توقيفنا نحن أيضاً واستعراضنا أمام الجماهير. «الدخول باكراً وبالتالي الخروج باكراً، رحنا نفكر في أنفسنا: غمرنا نحن الثلاثة عشر شعور مفعم بالبهجة باعتبار أن وضعنا الحالي كمساجين لهو نعمة منّ بها علينا قدرنا السعيد.

ما إن تنمو النباتات الصغيرة حتى كان السهل بكامله يغدو مفروشاً باخضرار غض. كل شيء كان أخضر: جبال خضراء، مياه خضراء، حقول خضراء، حتى الهواء كان يبدو محملاً بأريج مخضوضر، بعصارة الطبيعة. كانت طيور اللقلاق البرية تنشر أجنحتها الرمادية الفضية فوق الاخضرار المنفلش، وهي غافلة عن سياجات الأسلاك الشائكة ولافتات «ممنوع الدخول منعاً باتاً» تحتها. إثر هبوطها كانت تشرع في تطوافها عبر الحقول متنقلة على سيقانها الطويلة فتبدو، في جديتها الصامتة، شبيهة بقائد المجموعة وانغ. كانت البطات البرية شرعت في بناء أعشاشها وسط آجام القصب اليانعة على ضفاف قنوات الري. بكل كد واجتهاد كانت تشيّد بيوتها الصغيرة بينما أذنابها الملونة تتلألأ تحت أشعة الشمس ونداءاتها تومض عبر حقول الأرز الشاسعة. هبت رياح قوية

وراحت تتموج على رؤوس النباتات المسترسلة هانئة في امتصاص غذائها من الأرض. كانت الطبيعة ثرية ومعطاء وتؤمن اكتفاءها الذاتي. وحده الإنسان طامع بلا هوادة إلى المزيد. كان القائد وانغ ينزل مراراً إلى الحقول. من بعيد كان يبدو رجلٌ على حدة، يمشي الهوينا ويداه خلف ظهره. كان يطوف ذهاباً وإياباً بمحاذاة السياجات ويشرف على عملنا. كانت سترة الجيش الخضراء تتدلى من إحدى كتفيه وهو يروح ضاغطاً على رؤوس نباتات الأرز القابلة للطفو كأنه كان يلعب بلعبة على النبع.

ما إن تعلو النباتات وتصبح في منأى عن أي خطر، كنا نغض الطرف عنها لينطلق كل منا على هواه. منا من يصطاد السمك ومنا من ينصب الشرك للبطات أو يفرش بزات السجن على الأرض ويستلقي هانئاً في ظل شجرات الصفصاف.

لم تنقطع فترات الاستراحة هذه إلى أن جاءني وانغ يوماً وراح يصرخ في وجهي: «راقب جيداً، قل لهؤلاء البغايا أن يسارعوا إلى تنظيف كل شيء. اجرفوا مصارف قنوات الري ووسعوا قليلاً الخنادق الضيقة. الجماعة الكبيرة قادمة لانتزاع الأعشاب الضارة وسوف تصل بعد يوم أو يومين».

شرعنا آنذاك في العمل الجدي. في صباح اليوم التالي وكنا قد انتهينا من تناول طعام الفطور، رأينا رجلاً مهرولاً نحونا وكنا أرسلناه لفتح مصارف المياه. راح يصرخ مردداً: «لقد وصل اللواء يُسي».

شعر الجميع بالإثارة وأنا لم أشكل استثناء. لم يكن لدي أنسباء في اللواء الرئيس ولا أصدقاء بيد أننا جميعاً كنا لا نزال نشعر بانجذاب قوي إزاء اللواء بزيه الأسود. قبل مهمتي الراهنة، كنت

أمضي نهاراتي ولياليَّ بصحبتهم. كانت قوانين المخيمات وكأنما عملت على قولبتنا في قالب واحد. كانت تجمعنا عادات وقوانين يومية واحدة. كان النظام يساوي في ما بيننا إلى درجة أننا كنا وحدنا قادرين على فهم لغته. أثار وصولهم في نفسي شعوراً عارماً فتوقفت عن العمل وهرولت مع الآخرين إلى الخارج.

«لقد مرّ وقت طويل، أيها الأصدقاء»!

كان ضباب الفجر الرقيق لا يزال منتشراً. وحدها قمم أشجار الحور والصفصاف ضربتها أشعة الشمس. كان الظلام يخيّم تحتنا. وقفنا على بقعة أرض مرتفعة على تلتنا ووجّهنا أنظارنا إلى الجهة الشمالية من القناة. راح طيف رمادي في خط ضبابي طويل يتقدم باتجاهنا الهوينا. ما لبث اللون الرمادي أن صار أسود وصرنا قادرين على تمييز الوجوه بينما الرجال يقتربون منا. صارت ملامحهم تتوالى الواحد بعد الآخر.

المتجهم، الكئيب، الوسيم، الحاقد، المنشرح، المحبط، مروا جميعاً بجانب السياجات. وفق إيقاع مسيرتهم الرتيبة.

أي سحر أسود جمع هذه الوجوه المتباينة؟ أي قوة خارقة جرتهم إلى كيان هذه المجموعة ووسمت كلاً منهم بهوية جديدة مروعة؟ كانت أقدار مخيمات العمل قد رسمت خطوطها على كل من تلك الوجوه. لم يكن بالوسع تبيّن بوادر المرض على محياهم خصوصاً وأن الطعام كان متوافراً بكثرة في مواسم العمل. ورغم ذلك كان القنوط بادياً على وجه كل منهم. كانت تجاعيد الأفعى ترتسم على الوجوه بدءاً من الأنوف نزولاً إلى محيط الأفواه والتسمية هذه مأخوذة من الأفاعي الطائرة حين تلجَ إلى أجحارها.

خطوط المرارة تلك لم تكن لتشاهدها على وجوه مواطنين

عاديين ولكنها على وجه سجين كانت تكشف وضعه الراهن وتؤكد على ثباته طوال عمر كامل في أسر ذهن معطل.

من على التلة، كنا نراقب من دون أن يساورنا أدنى شعور بالتعالي أو بتمضية وقت مسلٍّ. بحزن وصمت كنا نراقب صف الرجال المارين من أمامنا. لم يكن بوسعنا أن نتعرف إلى الظلم والاضطهاد إلا من خارج هذا الصف. لم يكن بوسعنا رؤية مأساة حياتنا إلا من على مسافة. سكان القرى كانوا يراقبون هم أيضاً بيد أن شعورهم كان مغايراً: ما كانوا يرونه وهم على الجانب الآخر، كان عالماً آخر. ما رأيناه نحن ذلك الصباح كان صورتنا.

فيما كنا نراقب المارين من أمامنا أدركنا أن لهذا الوفد بزيه الأسود دلالة مميزة: «حين تبتلعك هذه الصفوف الطويلة يكون أمرك انقضى حتماً». إذا ما رغبت في رؤية وجهك بوضوح يتوجب عليك إبعاد المرآة لمسافة معينة.

«تأهب! تقدم!»

رمى واحد من جماعتنا سيجارة مشتعلة إلى الأسفل. حملق الحراس بغضب لكنهم لم يتدخلوا. سارع أحد السجناء، وكان يمشي بمحاذاة السياج، إلى التقاطها ومج منها مجتين بنهم شديد ومررها إلى الرجل التالي. لم يكن يحق للسجناء سوى حصة ضئيلة من السجائر لكنه كان من السهل على «السجناء الأحرار» الحصول على ما يشاءون منها.

بعد النجاح الذي أحرزناه قمنا بتجربة أخرى وهذه المرة بالخيار ثم بالبندورة ومن ثم بكل ما لم نأكله بعد.

وفجأة، كمثل فريق كرة قدم أميركية، ارتفعت معنويات الرماة والمتلقّين معاً وراحت القهقهات تتعالى وسط ضباب الصباح

المتواري تدريجياً. من الخطأ الاعتقاد أن سجناء العمل كانوا يقضون كامل وقتهم في النحيب والبكاء. لم نكن لنتمكن من الاستمرار في العيش لإنهاء فترة عقوبتنا القاسية وكنا دائماً نجد ما يضحكنا. تباطأ سير الصف فصرخ الحراس: «هيا تحركوا هناك. هيا أسرعوا!» بيد أن ردات فعلهم لم تكن عنيفة ـ ليس سهلاً استخدام البنادق لتعنيف رجال يضحكون، ولربما لم يكونوا مقتنعين بأن هؤلاء الرجال قد ارتكبوا جرائم حقيقية.

حين مروا بالقرب منا تهيأ لي أننا أشبه برفاق في الجيش.

ولكن من هم أعداء هذه المجموعة المثيرة للشفقة؟ لا أعتقد أن أحداً منا كان بمقدوره الإجابة، رغم أننا جميعاً حكم علينا منذ وقت طويل بأننا «أعداء الشعب».

مرّ صف الرجال وراح الغبار يرقد شيئاً فشيئاً على السياج. في البعيد بدأ من كانوا في الصفوف الأمامية يخلعون ثيابهم ويتأهبون للعمل في حقول الأرز تحت إشراف وانغ. كانت لا تزال ترتسم الابتسامات على وجوه من رمينا لهم الخيار. ما كان مثيراً للبكاء تحوّل فجأة إلى ضحك ـ يا إلهي، أكان هذا جراء ضعفنا أم ثباتنا؟

فجأة استثار أحدهم إلى الشمال وصرخ إلينا بغبطة: «هناك المزيد!».

مدّ الرجل الذي أطعم بقرته حتى التخمة عنقه وحدّق طويلاً ثم قال ضاحكاً بشيء من الخبث:

«هناك نساء».

أجل كان هناك نساء. كان من الصعب التكهن بذلك من المسافة التي نحن عليها بيد أن الرجل، على ما يبدو، كان أدرك ذلك بواسطة حاسة الشم.

كان زيهنّ أسود كذلك وشعرهن قصيراً.

حين تمّ إرسالي إلى المخيم للمرة الأولى، كان لايزال بمقدور المرء التمييز بينهن وبين الرجال. كان لا يزال بمقدور المرء التمييز بينهن وبين الرجال. كان لا يزال مسموحاً للسجينات آنذاك إرسال شعورهن وتسريحها على شكل ضفائر.

وبعد العام ١٩٦٦ تم إلغاء كل القوانين القديمة وفي ليلة واحدة حلقت رؤوس كل من كانوا في المخيم.

لا أزال أذكر ما حدث مع إحدى «السجينات الجديدات» وكانت امرأة عجوزاً في الستين من عمرها. كانت تعمل في قسم الخضار على قدر كبير من التديّن والتقوى. تلك الليلة قصّوا خصلات قليلة كانت تتدلى من شعرها المعقود على شكل كعكة. لم تتذمّر قط، وكانت تقضي عقوبة سبع سنوات من العمل، بل على العكس شكرت الحكومة على الخدمة التي أسدتها لها: «حين يطلق سراحي سوف أحرق البخور لبوذا وماو وزيدونغ» راحت تردد. ولكن عندما قصوا كل شعرها لم تتمالك السيدة العجوز نفسها وراحت تصرخ مرددة: «خطيئة. خطيئة. لقد سقطت الثورة على رأسي»! وشرعت تنشد ترتيلة دينية غريبة لم يفهم أحد منها شيئاً». وبعد شهر واحد توفيت. تمّ اختيار أربعة منا لوضعها في التابوت. مشينا خلف القائد وانغ وطلعته الوقورة ودخلنا إلى حيث «اللواء الصغير».

تحت أنظار مجموعة من السجينات المرتعشات، حملنا جثة السيدة العجوز. وحين لم نرفعها بشكل مستقيم، وقعت قطعة الورق التي كانت تغطي وجهها وسقطت في الوحل، فبانت عينان ذابلتان تحدقان إلى الأعلى. حاولت أن أغلقهما بأصابعي بيد أن

جفنيْ ذلك الجسد المترهل كانا لا يزلان ينبضان بالحيوية. وكمثل حلزونة لزجة تتقلص في قوقعتها، تحركت العينان وانفتحتا بكل وسعهما وكأنما لتوبخاني لأني رغبت في لمسهما.

عندما نقف أمام جثة كهذه، وتحديداً جثة من مات حزيناً بائساً من الصعب أن نولي اهتماماً للنساء من حولنا.

لقد تغلبت سطوة الموت على فضولي. كانت هذه فرصة واحدة في المليون لمشاهدة النساء بيد أنني لم أرمقهن بنظرة واحدة. ورغم ذلك ما زلت أذكر أنه حين انفتحت العينان سمعت صراخاً وأنيناً من حولي وقرقعة قد تكون لوعاء نحاسي سقط من شدة الفزع. ألقيناهما في «بشرة متجعدة» وهو الإسم الذي كنا نطلقه آنذاك على التابوت المصنوع من خشب الحور الأبيض. كانت تلك السيدة محظوظة. في العام ١٩٦٠ لم يكن ثمة «بشرة متجعدة» لدفن من يموت، دفناً لائقاً. كل ما كان متوافراً هو حصيرة من القصب تلف بها الجثة وفي إحدى المرات كدت أُلفّ بها أنا أيضاً.

كان يتم فصل السجناء عن السجينات إلى درجة كنا ننسى تماماً أن ثمة نساء موجودات على مقربة منا، رغم أن الأرض كانت أرضاً واحدة والدروب دروباً واحدة.

بعض السجناء الأكثر شباباً منا، وبواسطة حاسة شم قوية، كانوا يتوصلون إلى معرفة المكان الذي عملت فيه النساء هذا النهار أو ذاك وأي طريق سلكن وحتى نوع العمل الذي قمن به.

كانوا إذا ما وجدوا في طريقهم رباطاً مطاطياً يستثيرون خيالهم ويسرحون به بعيداً. وسرعان ما أصبحت الرباطات المطاطية التي كانت تستخدم كأساور، كنوزاً صغيرة ورموزاً للأنوثة المفقودة.

لكم فتشنا عن آثار أقدام «اللواء الصغير»، تلك الآثار الصغيرة المطبوعة في الوحل كمثل آثار أقدام الأطفال! حتى قشور الفاصوليا التي كن يخلفنها وراءهن كانت تبعث لدينا شعوراً بالمتعة. كل تلك الآثار كانت أضحت بمثابة دروب ضيقة صغيرة تتقاطع في أرض حديقة أنيقة، ولتقود إلى لقاء جنسين. ومن غير المجدي حقاً القول إن هذا اللقاء لم يكن ليتم إلا في الخيال. وكان من المستحيل أن يصبح حقيقة إلا إذا كان الفريقان ينتميان إلى فئة «السجناء الأحرار».

عند المساء كنا نجلس بالقرب من المدفأة طلباً لشيء من الدفء في منزلنا الصغير وكان الرفاق القدامى يمتعون القادمين الجدد بالقصص المسلية: قصص رومنسية كانت تدور أحداثها تحت ثياب السجن السوداء.

السجناء القدامى كانوا بمثابة أحصنة تحميل إذ كان تاريخ المخيم بين أيديهم ومثل حمل يتوجب نقله كان عليهم نقل هذا التاريخ إلى الآخرين.

وهذا التاريخ كان ليؤكد على أن حياة النساء في المخيمات كانت أقسى بكثير من حياة الرجال. أرواحهن الرقيقة كانت أكثر توحداً وحياة السجن قاسية عليهن. كن في بحث مستمر عن شيء من الراحة والعون والحماية. حتى أن بعضهن لم يكنّ يتورعن عن مغازلة الحراس من وراء القضبان الحديدية: «أيها القائد هل تشعر فأرتك الصغيرة بالعطش؟ أو ترغب في امتصاص بعض المياه؟» إن هؤلاء النسوة كن بانتظار فرصة حظ صغيرة (رغم أنهن يدركن أن الحظوظ يتوجب صنعها ولا تسقط من السماء) ولم يكن ليردعهن أي شيء. فرصة صغيرة وتراهنّ يقفزن إلى أحضان

رجل بلا أي رادع. وبعض هؤلاء النسوة كنّ يمررن بمحاذاتنا في هذه اللحظة بالذات.

تلاشى ضباب الصباح وكانت أشعة الشمس البرتقالية اللون تسطع على السياج حيث خطوات لا تحصى قد رسمت في التراب أشكالاً متداخلة معقدة. كان ذلك رسماً نزوياً صنعته المرارة. عندما يبدأ النهار بضباب رقيق كان دليلاً على أنه سيكون معدم الرياح.

كانت أشجار الصفصاف تتدلى مثقلة وقصبات القناة تنتصب لملاقاتها شامخة بغرور وغطرسة كما لو كانت تترفّع حتى عن النظر إلى النساء.

راحت النسوة يسرن بمحاذاتنا بخفة أنثوية واضحة. كانت حركاتهن الاستفزازية تبدو وكأنما تستدعي نظراتنا الفاحصة. أجل كانت خطوات تلك السجينات لا تزال خفيفة رشيقة حتى لو أن الخجل كان بادياً على البعض منهن: كل النساء اللواتي يتم إرسالهن إلى العمل في الحقول الشاسعة كن في ربيع عمرهنّ. بيد أنه كان من الصعب أن نصدق أنهن نساء لولا مشيتهن الرشيقة وانتصابهن كمثل القصبات المتغطرسة.

أذكر أنه في «انبعاث» تولستوي حين بدأت رحلة ماسلوفا إلى سيبيريا كانت ترتدي تنورة لم أعد أذكر ما إذا كانت بيضاء أو رمادية اللون، ولكنها تنورة بالتأكيد، وكانت تعقد منديلاً على رأسها، لكن السجينات، هنا في الصين، كنّ يرتدين ثياباً رجالية: سترة فضفاضة وبنطال كانا يغطيان كل ما هو أنثوي في أجسادهن.

لم تكن تلك النسوة نساء أو رجالاً وبذلك كن انحدرن إلى

حالة أُوضع بكثير من حالتنا. كلمة نساء كانت تطلق عليهن وفقاً للعادة ليس إلا.

كنّ بلا خصور ولا صدور ولا أرداف، يعبرن من أمامنا بوجوههنّ الحمراء الداكنة. ورغم أنهن كن يفتقدن تجاعيد الأفعى التي على وجوه الرجال ولكن على وجوههن كانت ترتسم سمات حيوانية جلفة. كان عدد منهن يمضغن بذور عباد الشمس الفجة. راح بعضهن يرمقنا بنظرات أشبه بنظرات سمكة ميتة. كن على قدر من الأناقة وكأنما تقصّدن ذلك لمغازلتنا.

كانت بذور عباد الشمس تلتصق بأفواههن كمثل دوائر لعاب بيضاء.

فجأة شعرت بغثيان في معدتي ومرارة في حلقي. أشحت بناظري. لم يكن بوسعي أن أتابع النظر إليهنّ خشية أن يتحطم أملي في الحياة نفسها. مجرد التفكير بأن الأنوثة التي استمتعت بها في الماضي والنساء اللواتي أحببتهن قد آلت حالتهن إلى ما هي عليه الآن، كان ليثير في نفسي الرعب. حين يخطر ببالي أنه تم توقيفهن ودفعهن إلى نهايتهن هذه... ماذا بقي في الخارج ويستحق بعد أن نتوق ونشتاق إليه؟

أدرت ظهري إلى القناة وبدأت بالسعال.

يا إلهي! آه يا أمي! خطر ببالي فجأة أن الحيوان البدائي الأول الذي سارع لاستخدام ورقة أو جلد حيوان يغطي بها جسده لا بد كان حيواناً أنثى.

4

صيف حار نشر حرارته فوق حقول الأرز الممتدة بينما أخذت شمس نيغسكليا الحارقة تذوّب الغيوم في السماء. كان النهار طويلاً جداً تروح خلاله نبتات الدخن والقصب والعشب تتطاول وتمد أعناقها لبلوغ السماء اللازوردية.

من مكان عملنا وصولاً إلى الجبال المقابلة، كان يمتد السجاد الأخضر أشبه بقطعة عملاقة من الزمرد تؤذي العينين ببريقها الأخاذ. تحت هذا الاخضرار الساحق، كانت تختبىء شتولنا، نبتات الأرز اليانعة، طرية غضّة أشبه بالزغب وكان من الصعب جداً العثور عليها خصوصاً مع آلامنا الكثيرة المبرحة في ظهورنا والإرهاق في أعيننا.

كانت هذه المنطقة موطناً للبطات والأوزات البرية وأيضاً لأنواع شتى من الحشرات والنباتات.

كان السجناء، بدأوا في العمل في هذه المنطقة منذ مطلع الخمسينات، يجهدون سنة بعد الأخرى لتحويل هذا المستنقع إلى أرض صالحة للزراعة. وبالرغم من كل الجهود التي بذلوها عبر

السنين لم ينجحوا في تفريغ المياه كما ينبغي ولم يكن الزرع لينمو في هذه الأرض القلوية باستثناء الدخن والأرز.

كان السجناء، ولسنوات عديدة، يبذلون جهوداً هائلة لاقتلاع الأعشاب بيد أن هذه كانت أصغر من أن يتمكن المرء من اقتلاعها من جذورها ولم تكن لتنمو إلا حين بدأنا نمدها بالأسمدة. وكنا كلما وضعنا السماد على الأرز نمت الأعشاب وكبرت فتصل إلى متناول أيدينا لننتزع البعض منها إذ أن انتزاعها جميعها كان مستحيلاً.

وبالرغم من ذلك كان على الأيادي الاستمرار في المحاولة. إذا كان ثمة ما تمتلكه المخيمات فهو بلا شك أيادي الرجال.

تحرك، أنت هناك، اقتلع!

أطلقوا سراح هذه النباتات! وأحياناً بعد جهود جبارة كنا نبذلها لاقتلاع تلال من الأعشاب، لم يكن ليقابلنا سوى بقعة جرداء موحلة لا أرز فيها.

اقتلعوا هذه الأعشاب من جذورها! كان وانغ يمشي ذهاباً وإياباً على ضفة القناة معتمراً قبعة من القش. كيف كان لنا أن نقتلع القصب من جذوره؟ كانت مدفونة عميقاً في الأرض الغارقة في الوحل. كان على كل سجين أن يعتني بحصة يومية من الأرض بمقدار خمسة مربعات وكان مربعٌ واحدٌ يستلزم منا جهداً هائلاً نعمل عليه بدون توقف، مؤخرتنا إلى الأعلى ورأسنا إلى الأسفل. وكان الرجال يعمدون سراً إلى طمر الأعشاب المقطوعة في الوحل ـ لأنَّ رميها بدون جذورها على ضفة القناة كان يثير سخط المشرفين وحنقهم. بيد أن الأعشاب حين لا تنتزع من جذورها كانت، حين تروي الحقول، لا تلبث أن تطل برؤوسها وتروح

تصدر أصواتاً أشبه بالمفرقعات الخفيفة. تلك الأصوات كانت كمثل مخبرين يشون بالرجال إلى المسؤولين عنهم.

«ماذا تعني بأني لم أقتلع الجذور؟ كان ذلك صوت ضراطي!» كان يجيب أحدهم وهو يطلق ضحكة خبيثة.

«غريب كيف أن ذلك الصوت لم تصدر عنه أي رائحة! على أية حال من الأفضل أن تكون لك مؤخرة تصدر صوتاً مماثلاً على أن تصدر ما يخرج عادة من البغل!» وكان السجناء يسخرون من زميلهم وتتعالى في الحقل أصوات الضحك.

أجل كنا نعثر على أمور تضحكنا - وإلا كيف كان لنا الاستمرار في العيش في تلك الأيام الرهيبة؟ شرع أحدهم في غناء حاد رفيع:

«لقد ذهب الشقيق الأكبر(*) ليقضي عقوبة أعمال في المخيمات وخلّف وراءه الشقيقة الصغرى وحيدة في منزل غير آهل. أيتها الشقيقة الصغيرة، أيتها الشقيقة الصغيرة لا تقلقي في مخيمات العمل ثمة حصص طعام».

عند الظهر كانت تشتد أشعة الشمس وترخي بكل ثقلها على سطح الأرض. كانت البطات البرية والضفادع تطلق أصواتها ببلادة وكسل. كان الهواء يبدو وكأنما تجمد في كتلة مطاطية ضخمة.

من وقت لآخر، كانت تهب على الحقول نسيمات ساخنة، قادمة من الوديان القريبة، حاملة معها سخونة الصحراء البعيدة فتروح القصبات تحتك بصوت معدني رنان وتسخن المياه الموحلة

(*) الشقيق الأكبر: العاشق.

حتى لتحرق قدمي كل من يجرؤ على الاقتراب منها. كان ينكبون بصمت على اقتلاع الاعشاب وقد سلبتهم الحرارة القدرة اليومية. ألا ترى الشعار الذي يطلقه الحقل أمامك؟ «حوّل السيىء إلى ما هو أفضل، إن المستقبل لهو مجيد».

حملت الرفش على كتفي ورحت أتجول ذهاباً وإياباً في الحقل الذي كنت أشرف عليه. أمامي كان ينتشر حقل من الرؤوس التي لذعتها أشعة الشمس وهي تتصبّب عرقاً باعثاً رائحته أقوى من رائحة الدبال(*). وخلفي صفوف من المؤخرات الواقفة في المياه. كانت مؤخرات السجناء مغطاة برقع التصق عليها وحل سميك بني اللون.

فوق، سماء زرقاء صافية وتحت، مساحات خضراء داكنة شفافة عميقة رائعة الجمال. وبين الاثنين كانت صفوف سوداء مسحوقة من المخلوقات البشرية.

فجأة تعالى نداء من بين الحقول. لقد وصلت حصصنا من الطعام، وبانت عند الحائط الشاهق على ضفة القناة.

كانت أربعة أحصنة تحمل سلال الطعام ووراءها حمار يحمل كيغاً(*) من المياه. راحت الحيوانات تتكاسل وتتباطأ في ظلال شجرات الصفصاف. اللعنة عليك، لقد أكلت، بما فيه الكفاية! من الأفضل أن تكون كعكاتنا أكبر حجماً اليوم ـ من الصعب أن تشبعنا تلك الصغيرة الحجم. على الأقل ثمة ما نأكله عند كل وجبة طعام.

(*) مادة سمراء أو سوداء تنشأ من تحلل المواد النباتية والحيوانية وتشكل الجزء العضوي من التربة.

(*) الكيغ: برميل صغير سعته ٣٠ غالوناً أو أقل.

نفخ القائد وانغ صفارته وتهافت الرجال إلى حيث حمولة الطعام مثل من ينطلقون في عصيان مسلّح. اركضوا سريعاً أيها الرجال الجياع! من يصل أولاً يحصل على الكعكات الكبيرة ولا يحصل الواصل أخيراً إلا على تلك التي في القعر هذا إذا لم تتفتت أو لم تصبح مضغوطة مسطحة.

بالنسبة إلى سجين فإن تناول الطعام أشبه بالصلاة، ومثل المؤمنين يستوجب منه تركيزاً كاملاً. كل من يتجرأ على إزعاج أحدهم أثناء تناوله الطعام سوف لا يقع إلا على مجرم محتقن العينين بالدماء أو على زمجرة ذئب أو دمدمة حيوان مفترس يكشف عن أنيابه دفاعاً عن طعامه.

مهما كان العمل مستعجلاً لم يكن وانغ ليحثّنا على الإسراع في تناول الطعام. «حتى الصاعقة لا تضرب رجلاً يأكل». كان يردد.

حين كان العمل يسير على ما يرام في الصباح، كان وانغ يسمح لنا باستراحة عند الظهر. لقد أحرزنا اليوم تقدماً رائعاً بعد أشهر أمضيناها إما في الحبس وإما في العمل الشاق في الحقول الجافة وكانت فرحتنا كبيرة في استقبال المياه التي قد يضفي قدومها تغييراً على يومياتنا.

سُرّ القائد «وانغ» وأذن للرجال بالاستلقاء على ضفاف القناة. بدوا، وقد لذعتهم الشمس، أشبه بصف من الكعك الهلالي المقلي.

جالساً على حدة تحت شجرة، راح وانغ يخلل أسنانه بواسطة ساق عشبة. مثل راع يراقب قطيعه وقد أطعمه للتو، كان ينظر برضى إلى السجناء تحته.

نحن المشرفين على الحقول كان لدينا أعمال أخرى نقوم بها. وفي حال لم نكن على قدر كبير من الحذر واليقظة كان بوسع الرجال إحداث أضرار في الحقول وتعطيل سير العمل، كأن يجرفوا قنوات الري أو يدوسوا على السياجات. كانوا يعتبرون أن عملهم بلا قيمة وكذلك عمل الآخرين. ونحن كنا ننتهز فرصة هذه التعطيلات لنسرح في الحقول ونتفقدها.

كان المجرمون في اللواء الرئيسي يلقون كل اللوم على المشرفين وحين يعجزون عن إنهاء العمل في المساحة المطلوبة منهم تجدهم يفجّرون كل كبتهم وغضبهم في وجهنا. وفجأة كانت تُفرّغ البرك التي كنا نملأها بجهد فائق وتطوف المياه فتحطم كل السدود التي تقف في وجهها. وما كان علينا آنذاك إلا أن نعمد إلى إصلاح الأضرار بأكبر هدوء ممكن. كان الوقت هو كل ما نملكه في العالم. في تلك الظهيرة خرجت لأقوم بدورة تفتيشية.

الأربعون أكراً التي كنت أشرف عليها كانت مقسمة إلى أربعة حقول تحيط كلاً منها قنوات صغيرة. وكانت ثمة قناة ري مركزية تتصل بالحقول الأربعة تتفرّع منها مجاري المياه الصغيرة. وفي آخر الحقول كانت قناة الري الرئيسة. وكانت هذه الأخيرة تملأ طوال أيام السنة بالمياه الجارية وتتغذى من المياه المتدفقة من الجبال. في الشتاء كانت تتجمد تحت طبقة من الجليد وفي الربيع تبقى باردة.

بين القناة الرئيسة والحقول كان ينتصب خط طويل مستقيم من القصب. وكانت هذه القصبات التي تتكاثر في الربيع بمثابة تركة بغيضة خلّفها المستنقع القديم وهي الآن باتت تشكل حائطاً سميكاً أخضر ينتصب كالرماح ويتعدى طوله قامة الرجال.

بينما كنت أقوم بجولتي في الجانب البعيد من الحقل، تناهى

إلى مسمعي في الجانب الآخر من الحائط أصوات نساء في هرج ومرج. كان اللواء الصغير يقتلع الأعشاب على مسافة قريبة مني ويشرف على السجينات «سجين حر» في الخمسين من عمره. كان القائد وانغ على دراية تامة بكيفية تنظيم الأمور. كان هذا الرجل الخمسيني يقضي آخر سنة له من عقوبة ثماني سنوات من العمل الشاق وبالتالي كان مستبعداً أن يخاطر بالقيام بأدنى حركة مستهترة عابثة.

وبينما أنا واقف هناك، سمعت إحدى النساء تشرع في الغناء.

كان صوتها الأجش مزعجاً حاداً يكاد يخدش الآذان، كما لو أن غيمة من الضباب الرمادي تتدحرج فوق حائط القصب. فجأة توقف الغناء بينما راحت الأصوات الأخرى تبتعد شيئاً فشيئاً. وفي الصمت المستجد، سمعت صوتاً جديداً، صوتاً رقيقاً صافياً يصل إليَّ من بين حائط القصب المنتصب أمامي: صوت رشرشة مياه كما لو أن طائراً يرفرف بجناحيه على سطح المياه.

كانت بطة برية بمنقارها الأفطس وذنبها الملون: هكذا كنا نشتهيها نحن المشرفين لنعد أنفسنا بوجبة لذيذة. كانت حصص الطعام في المخيم متوافرة وكافية بيد أن اللحم كان نادراً، ما جعل اصطياد السمك والبط بمثابة عمل جانبي نقوم به كلما سنحت لنا بذلك الفرصة. في الخارج كان يتم اصطياد البط باقتناصه أو بنصب الأشراك. أما في المخيمات فقد اكتسبنا خبرة القبض على البطات حية بواسطة اليدين الاثنتين ليس إلا: بدخوله إلى المخيمات كان المرء ينمي مهارات لم يكن ليلحظ يوماً أنه يمتلكها.

كانت تلك الطيور الحمقاء تبني أعشاشها بين القصبات الطويلة الكثيفة. ولكونها عاجزة عن التحليق والهبوط مثل الطائرات

المروحية كانت بطبيعة الحال تتجمع قافلات صغيرة لتتنقّل من وإلى بيوتها. كانت تهبط في الحقل أولاً ومن ثم تنضم إلى القافلات لتسير معها إلى أعشاشها، وللخروج منها كانت تعتمد الأسلوب عينه وتسير في الطريق عينه. وكنا غالباً ما نشاهدها إلى جانب القناة وهي ترفع رؤوسها لتنظر إلى السماء. كانت تبدو مهيبة وقورة كما «السيد الصغير» حين يخرج من منزله ليلقي نظرة على أحوال الطقس. كنا نترقب خروج هذه القافلات وكان خط العشب المتعرج بفعل خطواتها يقودنا إلى أعشاشها بلا جهد يذكر. كان يسمح لنا نحن المشرفين بإقتناء المشاعل الكهربائية. وكنا نستخدمها في الليل لنتتبع آثار ما قد لحظناه خلال النهار. وكنا على يقين بأننا سنعثر في نهاية المطاف على العش وفيه تكون عادة بطتان ضخمتان ومعهما في الغالب بيض أو فراخ. كانت البطات تبدو مصعوقة أمام نور المشعل ـ كانت تمد أعناقها في نداء أبكم وتروح تحدق في الضوء بنظرات بلهاء من دون أن تأتي بأدنى حركة.

كانت عيونها المشعة السوداء كما اليشب الأسود تكشف عن براءة حمقاء. ما هذا الضوء؟ هل أشرقت الشمس بهذه السرعة؟ كنا ننتهز فرصة انبهارها تلك ونمد يدينا لنقبض على أعناقها. في بعض الأمسيات كنا نصطاد منها ما يزيد عن العشرة.

بكل ما أمكنني من حذر وهدوء، تقدمت إلى مصدر رشرشة المياه. كنت عاري القدمين ورحت أستخدم رفشي لأبعد أجمات القصب بأكبر حذر ممكن.

ولحسن حظي كان الهواء الذي هبّ عند الظهر لا يزال يصفّر. كانت القصبات تصدر حفيفاً هائلاً كما لو كانت غابة كثيفة

ملتفة. كان الهواء يشق الضوء على المياه ويحوله إلى مئات الانعكاسات. كانت قدماي قد أصبحتا تحت المياه، والمنحدر العالي على وشك أن يتوارى خلفي.

صار صوت الرشرشة أكثر وضوحاً. وبعده تناهى إلى مسمعي صوت تدفق المياه وتساقط قطراتها، كما لو كانت القطيرات والأعشاب البرية تتهامس في ما بينها. لم يكن ذلك الصوت صوت بطة برية.

تملكني فضول شديد. أزحت سيقان القصب ونظرت إلى الجانب الآخر من القناة. تجمدت في مكاني مصعوقاً. ما رأيت كان إنساناً! كان امرأة! بكامل عريها!

5

كانت تستحم. لم تكن لتجرؤ على التوغل إلى وسط المياه فوقفت على أجمة من الأعشاب إلى جانب الضفة البعيدة. كانت تغرف المياه بكفيها وتسكبها على جسدها وترشرش عنقها، كتفيها، صدرها، ردفيها ومعدتها.

كان جسدها رشيقاً وصلباً. من بين الحائطين الأخضرين، تسللت أشعة الشمس لتضيء جسدها فتتلألأ بشرتها البليلة كما الحرير المنفلش. تلك البشرة كان في وسع الناظر إليها لمسها. خصوصاً نهديها اللامعين ببريق رطب وهما يتحركان بتحرك جسدها. كأنّ ظلين صغيرين يتقوسان تحت هذين النهدين.

كان جسدها يعلو ويهبط في المياه كمثل دلفين يلهو. يتقوس في الهواء ومن ثم ينفلش في حركات رائعة الجمال. كانت بشرتها بيضاء بلون العاج تتلألأ بمسحة جمال طبيعي. كانت تفرك بقوة كل بقعة في جسدها تستقبل سقوط المياه إلى أن أضحى ذلك الجسد ينضح بالحياة.

كان وجهها يتألق باللذة عند كل هزة تحدثها برودة المياه،

ووجهها مفعماً بالإغراء والحيوية والسعادة. كان شعرها القصير المبلول المرفوع إلى الوراء يضفي بعض الملامح الصبيانية على تقاسيم وجهها. كان حاجباها الدقيقان يضفيان على الملامح الصبيانية حسناً كبيراً وهما يمتدان فوق عينين غامضتين. كانا يضجان بالحياة ويتحركان صعوداً وهبوطاً بحسب ضربات المياه الباردة.

كانت وكأنما قد نسيت كل شيء - نسيت أن هذا مخيم إصلاح بواسطة العمل وأن أحدهم قد يهرع «لإنقاذها». لقد نسيت ماضيها وحاضرها، نسيت كومة الثياب الملقاة إلى جانبها، الشارة السوداء التي تسم موقعها في الحياة.

كانت تستحم بكليتها.

كانت تستحم كما لو كانت ترغب في غسل أعماق روحها وتنظيفها. لقد نسيت نفسها وأنا أيضاً نسيت نفسي.

في البداية، لم يكن بوسعي إلا أن أنظر إليها، وفي الواقع ما انفكت عيناي تعودان باستمرار للتحديق إلى الأماكن الأنثوية الأكثر حميمية. ومن ثم، ومن هذه الأماكن بالذات وأيضاً من المشهد الإجمالي راح ينبعث شعور ما، هالة تحمل وراءها طاقة هائلة. كان ثمة سحر يتفلت من كل مكامن البغضاء. ثمة ما يشبه الأسطورة. كان النموذج البدائي كأنما يسمو فوق العالم نفسه. بسببها أصبح للعالم لون، بسببها عرفت الآن معنى النعمة.

اجتاحتني وصارت تنمو في داخلي رغبة جامحة في التقدم منها والكلام إليها بيد أني خشيت أن تصاب بالهلع. وخشية أن أحطم هذه الرؤيا، هذه الصورة الحلم، وقفت أراقب بصمت وهدوء. حين أنهت حمامها. شرعت تنشّف جسدها بتأنٍ وعناية بواسطة قطعة قماش قديمة.

استمرت النسيمات تهب بقوة وبانت في السماء كتل من الغيوم. بدأت تشعر بالبرد فاستدارت وانحنت لتلم ثوبها الداخلي الذي كانت ألقته فوق ثياب السجن. استدارت مرة جديدة ورفعت رأسها فرأتني. لم تطلق صوتاً ولم تسارع إلى كسو جسدها. راحت تحدق بي بشيء من التردد. كان في عينيها غضبٌ وتحدٍّ وأيضاً شكوك.

كان عليها أن تقرر ما يتوجب عليها فعله.

ابتسمت بأعجوبة ومن ثم نصبت رأسها لتنصت. لم يكن من صوت سوى صوت الرياح والقصب تتهامس في ما بينها كما العشاق. لم تكن على عجلة لترتدي ثيابها وأوقعت من يدها سروالها الداخلي. وكما لو كانت تخشى على نفسها الإصابة بالبرد، صالبت يديها على جسدها، ووقفت قبالتي. كانت أشعة الشمس تسكب في الهواء لوناً أصفر ناعماً. في هذا الضوء الأصفر الناعم كان جسدها يتلألأ. لم تقم بأدنى حركة إغرائية ولم تنطق بكلمة استفزازية واحدة.

اختفى من على وجهها أدنى ظل لابتسامة، راحت تستخدم عينيها والرعشات الصغيرة التي تتحرك على بشرتها عند كل جزء من جسدها؛ ولكي تناديني تموضعت كمن لا يضمر أي نية للدفاع عن نفسه، اجتاحت جسدي طاقة غريبة تدفعني دفعاً لأقوم بردة فعل ما، تحثني على الوثوب إلى الأمام أو على الأقل على الهروب. من الخارج كان يثقل عليَّ ضغط مغاير يحظّر علي القيام بأدنى حركة. حاولت تكراراً أن أتراجع وأنا أشعر بالرعب والأمل والجبن. شعرت بكارثة على وشك الحدوث وما لبث هذا الشعور أن اصطدم بآخر عارم بالفرح ورحت أرتعش بلا إرادة مني. أكان

ذلك شركاً منصوباً أمامي؟ أكانت تلك حقيقة أم رؤيا؟ هل كان من الصواب أن أتقدم منها أم أن ذلك كان الهاوية إلى الانحلال؟

وقف معي ثعلب مدثّر بثياب سوداء. عنقه مغطى بالفراء ولسانه يتدلى من بين فكيه. كان لعابه يسيل فيما هو رابض بين القصب يحدق إلى طريدة مشبوهة... خُيّل إلي هذا وكأنما أظلم كل شيء من حولي. القصب المستنقع، السماء. وكأننا وقفنا أنا وهي في «أحراج الشاه».

بعدها، اجتاحتني شعور غريزي جامح بوجوب المحافظة على الذات، وقد نجح هذا الشعور في التغلب على كل المشاعر الأخرى. وفي الوقت نفسه لحظت ألماً مخيفاً في عينيها، على بشرتها المترقرقة. رأيت المأساة وقد كستنا نحن الاثنين. إن جوعها وعطشها كانا جوعي وعطشي أنا أيضاً. هي لم تكن سوى مرآة تعكس صورتي. وإلى الرغبة في امتلاكها اجتاحتني رغبة ذكورية موازية في حمايتها. كانت توارت كل حاجاتي الجسدية ليحل محلها ألم نفسي فظيع. من بعيد اخترق الجو صوت صفارة حاد، انهال على جسدي كما السوط فولّيت هارباً.

إثر خروجي مهرولاً من بين القصب لاحظت الجروح الدامية التي خلّفتها الورقات المسننة على وجهي ويديّ وساقيّ. كان باطن قدميّ ينزف دماءً.

أمضيت كل فترة بعد الظهر أطوف بين الحقول بلا هوادة. كنت أسير خافضاً رأسي، حاملاً رفشي على كتفي كما لو أفتّش عن شيء فقدته.

اقترب مني السجين العجوز الذي كان يشرف على الفريق المجاور وطلب مني شعلة لسيجارته: «زانغ، قال لي، يبدو أنك

لست على ما يرام. هل أنت مريض؟» شعرت بصقيع ينتشر في جبيني ويديّ ووجهي. أجبت ببلادة بأني لست على ما يرام. ومتسلحاً بهذا العذر، قصدت القائد وانغ لأسأله إمكانية العودة إلى الكوخ وأخذ قسط من الراحة. أصدر صوتاً مزمجراً اعتبرته إذناً لي بالانصراف. جررت خطواتي إلى المنزل وحين وصلته رميت بثقل جسدي على المصطبة - السرير. هنا في هذه الغرفة الموحشة بأرضيتها الوسخة، وتحديداً على هذا السرير الترابي الذي تفوح منه رائحة تعرّق الرجال الكريهة، كنت أمضيت ساعات وساعات من التفكير والحلم بالنساء. كل الصور الممكنة عن ممارسة الحب قد مرت في ذهني في هذا المكان بالذات.

والآن بعودتي إلى هذا السرير، شعرت بحنق لا يوصف بعد أن أضعت فرصتي. في الوقت نفسه شعرت بالاعتزاز لأني نجحت في خوض تجربة قاسية رغم أني كنت جاهلاً ماهية تلك التجربة. أي حاجز شيطاني خفي منعني من التقدم؟ الرغبة نفسها، الجسدية والنفسية، كانت مصدر عذاب لنا نحن الاثنين. علامة العذاب كانت موشومة على جسدينا. لماذا لم ننتهز لحظة الفرح في غمرة هذا الحرمان الجامح؟ راودني شعور باحتقار كل التربية التي تلقيتها.

كانت الحضارة حبلاً يقيّد الإنسان ويعرقل حركاته بعد أن يجعل منه «مسؤولاً»، فتضحي رغبات الإنسان الطبيعية البسيطة بمنتهى التعقيد وتصبح هذه الرغبات قريبة وبعيدة المنال في آن. كنت أنا نفسي واحداً من عامة المزارعين الذين يقومون بأعمال إصلاح لا يعيرونها أي أهمية. ولكني كنت أستمتع أيضاً بالتربية التي أملك.

كانت تلك التربية لتميزني عن الحيوان، لتمنحني القدرة على

ضبط النفس وأكون إنساناً في اللحظات الحرجة. كانت قوة التربية هي التي منحتني ملء حرية الإرادة والقدرة على الاختيار وإظهار سلوك متفوق لا تقوى على إظهاره سوى الكائنات البشرية.

كانت التربية هي التي جعلتني أدرك أني مسؤول عن تصرفاتي. ومع ذلك لو أني ضاجعتها لما أصبح العالم أسوأ مما هو عليه، كما أن واقع أني ولّيت هارباً لم يجعل العالم أفضل.

كنت سجيناً في مخيم للإصلاح عبر العمل، نملة سوداء، فإلى أي مدى كان يحق لي مواساة نفسي بالصفات الأخلاقية والفضيلة؟ لو اعتبرت نفسي فاضلاً لتوجب علي أن أصفها هي بصفات لا أخلاقية وهذا لم يكن إلا مجرد خبث ورياء. ألم يسبق لهذا المشهد أن مرّ في خيالي مرات لا تحصى؟ كنت على أتم استعداد لأن أكون مسؤولاً عن كامل تصرفاتي. وعلى أية حال لم يسبق لأيٍّ كان أن تحمّل عني مسؤولية أفعالي.

كان يبدو لي أن مسؤولية المجتمع الجماعية لم يتم تنظيمها إلا بغية قمعي وإيذائي.

ومع ذلك، لو أننا مارسنا الحب لكان تغيّر قدري ابتداء من تلك اللحظة بالذات. يقال إن قدر الإنسان سلسلة بلا نهاية من الأسباب والنتائج ـ إنه إذا رفرفت فراشة بجناحيها في الصين تتأثر أحوال الطقس في نيويورك.

كنت لأصبح شخصاً مختلفاً ولكن كيف كان لي أن أعرف أن قدري سيتغيّر إلى الأفضل أو إلى الأسوأ؟ لربما كانت انقطعت الحبال التي تقيدني وتسنى لي العودة إلى حالة بدائية، أتوسل أساليب عصر همجي لألتقي الحياة في هذا العالم المجنون...

أفكار مماثلة راحت تتشابك في رأسي وتصيبه بدوار فكاد

ينشطر من الألم. أخيراً حلّ الإرهاق ليطمس كل شيء آخر، وارتسم أمام عيني بياض فارغ.

الأخلاق والسياسة اختفت تماماً من الوجود، وأيضاً «قوانين» السجناء ومعدات الإصلاح عبر العمل. أنا لم أعد موجوداً. كل ما تبقى كان صورتها، وهي واقفة مصلوبة الذراعين وسط كل هذا البياض: جسدها الرائع، المغوي، الخصب، المتلألىء. كانت هي كل ما تبقى من العالم.

لم أنم تلك الليلة.

حين انتصف الليل، بدأت قطرات المطر تتساقط بشكل متقطع وسرعان ما تحول إلى انهمار غزير راحت الحقول والرافدات تردد صدى صخب تساقطه. كانت أفاريز كوخنا أشبه بشلالات متدفقة تقلق سكون الليل. خيّم الظلام وغطّى كل شيء كما لو أن مخلوقاً عملاقاً كان يخفض جناحيه وهو على أهبة الهبوط على هذه الأرض. كنت مستلقياً بخوف وشعرت بكارثة على وشك الحدوث ورحت أهيىء نفسي للعقاب. بدأت أفكاري المشوشة تختفي تدريجياً حتى توقفت عن التفكير... بها.

توقف سقوط المطر قبل فترة وجيزة من طلوع الفجر وغادرنا كما جاء إلينا، بشكل مفاجىء.

ديك متوحد أخذ يطلق صياحاً كئيباً من الجانب الأقصى من القناة لا يرافقه سوى صوت قطرات المياه المتساقطة من الأفاريز.

بعد أن خمد اضطراب الشهوة، رحت أبحث في نظافة الأخلاق عن اكتفاء لم أعثر عليه في ما هو جسديّ. كانت ستائر «المرأة» ترفع من أمامي الواحدة تلو الأخرى إلى أن حان وقت رفع الستارة الأخيرة التي وراءها سر «المرأة». وحين أدركت أن ما كان

يضفي لمعاناً على لون السر قد أصبح باهتاً عديم النكهة، رحت أواسي نفسي بأن معرفتي بالنساء قد بلغت درجتها القصوى: كان خيالي لا يزال حراً في التطواف في هذه الحال المظلمة، فأنسج لنفسي حكاية رومنسية مؤلمة. وفي الوقت عينه أدركت أني غير صالح لأكثر من الأحلام.

كان بمقدوري مواجهة تجارب الحياة اليومية، ولكن حين يتطلب الأمر مني الذهاب إلى أبعد من ذلك، كنت أغرق في خيالي. كانت تنقصني القدرة على الإقدام.

اكتشفت أيضاً ميزة أن يكون المرء «متحضراً» وهي ميزة تكمن ليس في التحكم بسلوكية الإنسان إنما في القدرة على شرحها. كان بوسعي أن أهنىء نفسي بعدم قيامي بأية حركة. بيد أني لو قمت بردة فعل ما، لكان بوسعي أن أغفر لنفسي وبالسهولة عينها، باعتبار أن ما قمت به من شيم الرجال الأقوياء.

أشرقت السماء وتسلل ضوء الصباح الرمادي عبر زجاج النافذة المتسخ. لا يزال السجناء من حولي يغطون في نومهم. أولئك القادرون على التفكير يعتمدون على التفكير للاستمرار في الحياة، بينما يلجأ العاجزون عن ذلك إلى غرائزهم ومواهبهم الفطرية.

إن التفكير يضعف الإنسان ـ ومن دونه بإمكان المرء أن يبقى قوياً معافى.

ولكن في جميع الأحوال، وفي هذا الوقت بالذات في الصين، فإن التفكير أو عدمه يفضيان إلى النتيجة عينها. كنت على أهبة النهوض من سريري حين غلبني النعاس وغرقت في النوم. وفي اليوم التالي توجه اللواء الرئيسي إلى العمل كعادته.

لم تترك ليلة الشتاء الغزير آثاراً كبيرة على الأرض الترابية في

السهول المرتفعة، باستثناء بعض الجداول التي تناثرت على منحدرات الأقنية. بيد أن مياه حقول الأرز والمستنقعات فاضت من جهتها وانتشرت بقعاً ضخمة تطوف على سطحها زهرات الزبد البيضاء التي كانت العاصفة حملتها معها ورمتها في المياه.

كان الهواء يحمل رطوبة غير عادية والنسمات لا تزال تنبىء بالمطر. غرقت جذوع شجرات الصفصاف والزيتون البري في السواد بينما بدت شجرات الحور البيضاء وكأنها تقولبت في لون فضي متلألىء. اختبأت الضفادع بين الأعشاب فيما انتشرت ضفادع الطين على جوانب الحقول وعلى الطريق، فبدت أشبه بمزارعين بعد الفيضان أو لاجئين لا عون لهم ولا قوة. الطريق من جهتها كانت جافة والممرات صلبة وصالحة للمشي.

سوف يمر اللواء الرئيسي من هنا هذا اليوم كما في كل يوم، في طريقه إلى العمل في الحقول.

ما كاد يطلع النهار حتى كنا نسارع نحن المشرفين على الحقول إلى حمل رفوشنا والتوجه لاستطلاع الأضرار الحاصلة. هل أن قنوات جر المياه انهارت بفعل الأمطار؟ هل أن كل الممرات سليمة؟

كنت مشوش الأفكار كالسكران وبالكاد قادراً على التمييز. كنت أشعر بالمرارة والحموضة في فمي ولم يكن لدي شهية إلى الطعام.

لدى مروري بالمكان الذي دخلت فيه حائط القصب بالأمس، لاحظت أنه لا يزال مشقوقاً إلى قسمين. أشعرتني رؤية هذه الثغرة بلذة عارمة وأيضاً بألم الجراح الناتجة عن التباس يصعب تحمّله. ألقيت نظرة خاطفة على الجوار وهرعت عائداً إلى حيث كان اللواء الرئيس منهمكاً في اقتلاع الأعشاب.

أن تمطر طوال الليل ثم تصحو في النهار، كان يثير غضب السجناء وسخطهم حتى ليشعروا بتمزق في أحشائهم. مرّ بي مزمجراً سجين ذو أنف مستدق الطرف. لو استمر المطر في الهطول لكان بإمكانهم البقاء في السرير ودفن رؤوسهم في النوم طوال النهار. ورغم أن النهار كان معتماً فإن المطر كان توقف. كانت تحصل أشياء غريبة لا تحصى داخل مخيمات العمل بيد أن الأشياء الجميلة كانت نادرة الحدوث. بوصفي سجيناً كان من الأفضل لي ألا أضمر أي توقعات ـ سبق لي أن قمت بذلك وكانت النتيجة جملة عذابات لاقيتها. هنا لم يكن للحب أي وجود. ما كان موجوداً هو التوق الجسدي وقد أيقنت ذلك واختبرته.

مرّ بي اللواء الرئيس. ووارءه على مسافة بعيدة منه أطلت النساء. أدركت الآن ما الذي كنت بانتظاره. شعرت فجأة بإثارة لم أختبرها لسنوات.

ورغم أن الجو كان رمادياً ثقيلاً ورغم أن قطرات المياه على العشب بجانب الطريق كانت بليدة لا حياة فيها، تراءى لي أن العالم قد انفجر مشعاً. سوف أراها قريباً. راحت النساء في الصف الأمامي يحدقن بي وفي نظراتهن الكثير من الفضول. وكن ما إن يتجاوزنني حتى يستدرن ليرمقنني بنظراتهن من جديد. كانت تمشي في آخر الصف حاملة منجلاً لجز الأعشاب. لإزالة الأعشاب التي كانت تنمو بالقرب من الحقول. كان يُعمد إلى جزّها بكل بساطة فما من أرز كان ينمو هناك ليتوجب بالتالي حمايته. وراءها كان يسير «كابتن» يحمل بندقية. جعلت عيني تحدقان في عينيها. كان يتراقص في عينيها وميض مغوٍ وأيضاً إشراقة توحي بشيء من

الحميمية إزائي. رحنا نتبادل التحية بأعيننا «صباح الخير»! «كيف حالك؟» «هل أكلت جيداً هذا الصباح؟» «هل أكلت ما يكفي لممارسة...»

كان وجهها يشرق بالصحة ولم تكن بادية عليه أدنى أمارات الخجل. أما وجهي فعلى العكس، كان أحمر يفعل الذكرى.

كان وجهها يشرق بالصحة ولم تكن بادية عليه أدنى إمارات الخجل. أما وجهي فعلى العكس، كان أحمر بفعل الذكرى.

كانت ترتدي زي السجن الأسود كمثل الأخريات. زي بلا ياقة أو جيوب أشبه بكيس من الطحين كانت أكمامه السميكة الخشنة تتأرجح فوق ذراعين نحيلتين.

حين مرت بالقرب مني وكاد جسدانا يتلامسان رفعت المنجل فجأة وراحت تهزه في وجهي. وبصوت لم يكن غيري قادراً على سماعه، رشقتني بعبارات قاسية «لو كان باستطاعتي، لقطعتك إرباً إرباً». تجاوزتني قبل أن يتسنى لي القيام بأي ردة فعل. لم تستدر لتنظر إلى الوراء كما الأخريات. كان الكابتن يسير وراءها مدمدماً بعبارات غير مفهومة بينما راحت المجموعة تغيب عن نظري شيئاً فشيئاً. كانت ماسورة بندقيته تومض وميضاً نحاسياً أزرق.

انتظرت طويلاً وكل ما حصلت عليه كان جملة واحدة. أن تواصل أعيننا الصمت لم يكن إلا من ابتكار خيالي. بعد تناول الفطور، جلست مشدوهاً، على ضفة القناة. كانت الرياح تمزق الغيوم الرصاصية اللون وبدأت شمس برتقالية اللون تظهر في آخر السماء. كانت تتناهى إلى مسمعنا أصوات الحركة من القرية المجاورة. أصوات تدفع بقوة مواشيها إلى خارج زرائبها. ظهر في البعيد فرس نحيل كستنائي اللون ثم توقف فجأة ورفع رأسه ليشتم

شيئاً في الهواء. بللت مياه القناة أسفل قدمي وكان في خريرها ما يشبه النحيب. شعرت بالأذية والظلم ورحت أنتحب بصمت. شعرت بأني مجروح في أعماقي بأنها هي أيضاً كانت تتألم. رغم ذلك لم يكن بمقدوري تحديد مكان جراحنا. بعد تلك الحادثة لم ألتقِ بها مجدداً بين مجموعات مخيم العمل.

ولفترة يومين راح أكثر من ألف شخص يعملون على انتزاع الأعشاب في الخمسمئة آكر من حقول الأرز. في اليوم الثالث تمّ نقل اللواء الرئيس إلى الشمال.

حين نضج الأرز واصفرّ لونه، كان علينا، نحن المشرفين، على الحقول العودة إلى صفوفنا. في تلك الأثناء كان قد تمّ نقل اللواء الصغير إلى محطة أخرى. سألت لاحقاً عن اسمها. كان اسمها هوانغ كزيانغجيو.

الجزء الثاني

١

كانت ثماني سنوات انقضت عندما التقينا من جديد هذه المرة أيضا، كان نهاراً عاصفاً. بيد أن الرياح الرطبة التي كانت تعصف في مخيم العمل، استحالت اليوم رياحاً ساخنة جافة تهب فوق أرض ممتدة مفروشة بالحصى الملتهبة. بضع نبتات نادرة كانت تنجو وتعيش في مهب هذه الرياح، وعلى هذه الأرض الصخرية القاحلة. ذلك الاخضرار الممتد حلّ محله قحط مزرعة حكومية في إحدى المناطق الشمالية الغربية. تحوّل المشهد من حقول للأرز إلى حظيرة للخراف، وكانت رائحة روث الخراف تملأ هواء الربيع. وقت طويل مرّ وتبدلت خشبة المسرح: وحدها أوضاعنا في الحياة كانت بقيت على حالها، على ما يبدو.

كنت أنثر التبن فوق السماد بواسطة مذراة. كان الهواء يلتقط نثر القش الشاردة ويروح يفتلها في أشعة الشمس ويرقّصها كما فعل المخرّبون حين أنزلوا بلاء في حيواتنا وسمموها في هذه الأمكنة.

المزارع الحكومية كانت،ولا تزال، من الناحية الإدارية، مختلفة عن الكوميونات أو القرى، وقد انتشرت في الصين منذ بداية

الخمسينات. ويمكن لهذه المزارع أن تكون إما سجوناً أو مخيمات/ مزارع، يقوم فيها المدانون بأشغال زراعية شاقة، وإما أن تكون مزارع عادية. في الصين الغربية تمّ إنشاؤها على أيدي بعض من الناس الذين أرسلوا من الصين الشرقية لكي يستثمروا أراضي زراعية جديدة في الغرب إضافة إلى مواطنين محليين مصنفين «كمجرمين» ويتم إرسالهم من المناطق المجاورة. وكانت بعض المزارع الحكومية في المناطق الجبلية تابعة لعدد من «الوحدات» في الصين، على سبيل المثال، كانت للأكاديمية الصينية للعلوم مزرعة حكومية تابعة لها في مقاطعة هوبي ترسل إليها علماءها للقيام بأعمال تطبيقية. وكانت للجيش أيضاً مزارع حكومية تابعة له في كل أنحاء الصين. المزارع الحكومية الأكثر شهرة كانت تلك الموجودة في مقاطعات هيلونجيانغ، كينغاي وغانسو. وتضم المزرعة الحكومية عدداً من «الفرق» يتم نشرها على مساحة واسعة من الأرض بغية استثمارها زراعياً. يمكن مراجعة خريطة هذه المزرعة الحكومية الخاصة في الصفحة(١٢).

في البعيد انتشر الضباب فوق قمم الجبال فمحا عنها تجاعيدها وأخفى صلابتها جاعلاً لها إطاراً كما الصورة. درب ضيق كان يتسلل كالأفعى من سفح الجبال وصولاً إلى حظيرة الخراف قبل أن ينفذ إلى القرية تحتنا. وقبل القرية بقليل كان يتصل بدرب آخر يؤدي إلى مركز المزرعة الحكومية الرئيس.

جاءت سالكة هذا الدرب. كنت رجعت مع القطيع من الجبال قبل يومين واكتشفت أن الحظيرة تكاد تنهار بسبب غيابنا عنها لمدة طويلة. إن حظيرة خراف بلا خرافها كمثل منزل بلا سكانه سرعان ما تبدأ بالانهيار. كانت كل السواري منحرفة والزوايا قد كستها

خيوط العنكبوت. سرق أحدهم المزاود وهذا ليس بالأمر المستغرب. فالمزاود المصنوعة عادة من الخشب، حين تنتقل ليلاً إلى المنازل تصبح صالحة لاستعمالات عديدة كاستخدامها بمثابة خزائن على سبيل المثال. ففي القرية الزراعية ما من شيء واحد بلا فائدة، وكل ما يمكن استخدامه في الحياة اليومية هو عرضة لاختفاء مفاجىء حين لا يكون صاحبه متيقظاً لأي طارىء. وبقدوم الشتاء كانت تسرق حتى الحجارة المسطحة لتُغطى بها جرار الخضار المخللة. لقد اختفى المزود واختفت كذلك عارضتان خشبيتان. وما يثير العجب أن زاوية من الحظيرة قد انهارت بكاملها. فتقدمت بطلب رسمي أسأل فيه أمين سر مفرزتنا أن يرسل أحدهم ليساعدني في إصلاحها:

«إن الخراف لا تجرؤ على التقدم خطوة واحدة إلى هذا الجحر. لا تضع اللوم عليّ في حال مات أحدها مسحوقاً تحت هذا الحطام». كانت الخراف أكثر أهمية من الناس. فلو كان بيتك على وشك الانهيار وطلبت مساعدة لإصلاحه فإن أحداً لن يعيرك اهتمامه. أما في ما يتعلق بالخراف فتلك كانت مسألة مختلفة.

ورغم أن تلك الفترة كانت من أهم فترات العمل وأشقاها في المزرعة، فقد وعدني أمين سر المفرزة بأن يرسل إلي امرأة لتساعدني. «في الواقع أنها انتقلت منذ فترة وجيزة إلى فرقتنا، كانت في كوميون الرمال البيضاء ولم تشأ أن تبقى هناك فتدبرت لها أمر انتقالها إلى هنا». ارتسمت على وجه أمين السر ابتسامة عريضة وأضاف: «سبق لها هي أيضاً أن قامت بالأعمال الشاقة. في الواقع كانت في المخيم نفسه الذي كنت فيه أنت». قفز قلبي من مكانه. «ما اسمها؟»

«هوانغ كزيانجيو».

كان ثمة أكثر من مئة امرأة يعملن في المخيم حين كنت أنا فيه، وأكثر من ألف أُدخلن إليه في وقت أو في آخر. رغم ذلك فقد خطرت هي ببالي على الفور. لطالما شعرت أني أمتلك نعمة التنبؤ بالأمور. ونادراً ما تنبأت بما لم يتحقق لاحقاً. بيد أن موهبتي تلك كانت محصورة بالهواجس السوداء وكل ما تحقق كان تلك الهواجس بالذات.

فلتكن هذه المرة استثناء. فلتكن معجزة.

رحت أراقبها وهي تتسلق على مهل المنحدر المؤدي إلى الحظائر. كانت تحمل على كتفها قضيبين ورفشاً. كان الهواء يتلاعب بالمنديل الأخضر على رأسها وبثيابها، فالتصق زيها الأخضر العسكري بجسدها. كان ذلك الزي القريب جداً من ثياب الجيش، على الموضة آنذاك. أنزلت القضيبين والرفش على الأرض واتكأت إلى السياج. «هاي، هل هذا هو المكان حيث يجب أن أعمل؟» تردد صوت من البعيد في أذني: «لو كان بإمكاني لقطعتك إرباً». فجأة صار الصوت قريباً. ابتسمت لنفسي بينما أتقدم باتجاهها لأحييها.

«أجل هذا هو، ولكن ما الذي تحسبين أنك قادرة على إنجازه بهذا؟» رفست القضيبين المرميين أمامها وقلت لها: «كيف لعيدان الثقاب هذه أن تصلح حظيرة؟» «اللعنة! إن القضبان الرفيعة يسهل حملها».

غضنت فمها ونظرت إليّ شزراً. وقفت أمامها قلقاً، بانتظار شيء ما. بعد هنيهة، أخذت نفساً عميقاً وقالت: «أهذا أنت ؟»

«هذا أنا». سررت لأنها استطاعت التعرف إلي.

«كيف حدث أنك هنا أنت أيضاً؟ ولماذا لم ألتقِ بك منذ قدومي إلى هنا لبضعة أيام خلت؟» تسلقت السياج وهمّت بالدخول إلى الحظيرة. وضعت يدي حول خصرها لأساعدها على النزول.

في غمرة الجفاف المنتشر في المكان، كان أبطاها البقعتين الرطبتين الوحيدتين.

«كيف عساني ألا أكون هنا؟ أين تذهب الخراف الموسومة أمثالنا إلا إلى مزرعة حكومية؟ من ذا الذي سيأوينا غيرها؟» كنت أحاول السيطرة على ما يشبه تفجراً من البهجة والإثارة ولكني لم أتمكن من لجم نفسي من الاسترسال في الكلام. «لقد بدأت المخيمات تطبيق سياسة العودة من حيث أتينا. أليس كذلك؟ وهذا هو المكان الذي تركته حين ذهبت إلى ذلك المخيم، ولذا عدت إلى هنا. كنت في الجبال أسوق القطيع طوال فصل الشتاء. لقد عدت أول من أمس. وأنت كيف وصلت إلى هنا؟»

«إذاً أنت تجيد الاعتناء بالخراف أليس كذلك؟ هذا ليس بالأمر السهل». توقفت عن الدوران حول الحظيرة ووقفت تنفض الغبار عن ثيابها ثم أخذت تنتزع، الواحدة بعد الأخرى، نثرات القش العالقة عليها. كان في تلك الحركة الكثير من الأنثوية ما جعلني أقف بلا حراك أحدق بها بإعجاب. حاولت أن أجيب بطريقة فظة.

وما الذي لا أجيد فعله؟ أُدخلت السجن العام ١٩٥٩ وقد مضى على احتجازي أكثر من ثمانية عشر عاماً. لو أني دخلت الجامعة لكنت الآن حصلت على أربع شهادات، الأمر الوحيد الذي لا أجيده هنا في المزرعة هو قيادة التراكتور وذلك لأنهم لا يسمحون لي بذلك ولو فعلوا، لأجدت هذا أيضاً وبسرعة كبيرة.

راحت تقيسني بنظراتها ثم قالت وهي تضحك: «غريب كيف عدنا والتقينا هنا»

«غريب؟ لا أجد غرابة في ذلك. إن أقدارنا جميعاً تتشابك في هذا المكان، وعاجلاً أم آجلاً لا بد أن نلتقي. إن العالم مكان واسع جداً ولكنه صغير جداً لمن هم في المخيمات. خلال السنوات الأخيرة، قابلت عدداً كبيراً من الناس وهم أيضاً كانوا يقضون عقوبة في مخيمات الإصلاح عبر العمل. على سبيل المثال، من بين الرجال الخمسة الذين كانوا يرعون الخراف معي، أربعة منهم تمّ إرسالهم من المخيمات. والوحيد الذي لم يأتِ من المخيمات كان شخصاً عديم القيمة وكان يخدم في الجيش. وواحد من الأربعة أولئك، كان أمضى فترة من الوقت في السجن الذي كنت فيه. أو تجدين هذا غريباً؟ هيا احملي رفشك. حان وقت العمل».

لم يكن بادياً أن الشهور والسنوات قد تركت أي أثر عليها. لعلني لم أرها بوضوح من قبل. ها هي تجاوزت الثلاثين من عمرها وبدت أسمن بقليل من المرأة التي أذكرها؛ آنذاك لم يكن بوسعها إلا أن تكون كالأخريات بمظهرها الشاحب وسحنتها الكئيبة. تجاعيد صغيرة ظهرت اليوم حول عينيها وإلى زاويتي فمها، لكن تعابير وجهها باتت أكثر جلاء من ذي قبل، وهذا ما جعلها تبدو أصغر سناً.

«لقد انقضت ثماني سنوات منذ لقائنا الأول» قالت وهي تساعدني على إعداد السواري التي كنا سنستخدمها عواميد للحظيرة.

«ماذا فعلت طوال هذه السنوات؟ هل أمضيت الوقت كله في هده المزرعة؟»

«لا إطلاقاً لا.» أجبت وأنا أسوي الأرض برفشي.

«في البدء، عملت لمدة سنة كاملة في «إملاء أوامر السلطة على الشعب» ومن بعدها أمضيت سنتين في السجن. أدخلت السجن بعد فترة وجيزة من إطلاق سراحي من المخيم، وذلك بأمر من الثورة الثقافية العظيمة، ثم في العام ١٩٧٠ أرسلت إلى السجن مجدداً. وأنت؟ كيف أمضيت هذه السنوات الثماني؟»

«أنا، لا تسأل» ضحكت لاقتباسها عبارة من مسرحية ثورية ثم راحت تدوس بقوة بقعة الأرض التي سويتها برفشي. «ثماني سنوات: لقد تزوجت مرتين وطلقت مرتين. هذا كل شيء. ولحسن الحظ لم أرزق أولاداً». تابعت عملي من دون أن تأخذني الدهشة ولو لوهلة. لقد شاهدت وسمعت الكثير. وفي نهاية المطاف لم يبقَ سوى القليل النادر مما لم يخطر على بالي. لا بد أنها عانت الكثير لكي تتمكن من الاستمرار في العيش. فالقدر السعيد كان ضرباً من المعجزات بينما القدر التعيس كان هو القاعدة. في المقابل، هي أيضاً لم تشعر بالدهشة عند سماعها تجربتي الخاصة. وسط هذه الأحاسيس المتبادلة، شعر كل منا بتواطؤ مع الآخر. وشعرت بشيء من الانشراح. حين أدركت انتفاء أية نية لديها في مؤاساتي - وقد علمتني السنون كيف أمقت شفقة الآخرين وتكلفهم.

«لقد أمضيت عقوبتي في السجن خلال السنوات الماضية، حسناً، لا تضحك فأنا تزوجت مرتين والأمر سيان. بل كنت أشعر أحياناً أن السجن أهون من الزواج. في المرة الأولى، لم أخبره أني كنت في المخيمات وعشت في رعب حقيقي من أن يكتشف حقيقة الأمر في يوم من الأيام. وحين عرف بالأمر طلب الطلاق.

أما في المرة الثانية، وكان ذلك في كوميون الرمال البيضاء، فأخبرته عن ماضيّ منذ البداية، ولم ينفك عن تذكيري بالأمر وتحميلي وزره. في النهاية لم أعد أتحمل وطلبت الطلاق.

في المرة الأولى لم يكن يريدني، في المرة الثانية لم أكن أريده. واحد، واحد، لقد تعادلنا! هكذا هي الحياة. لن أتزوج مرة أخرى».

«هذا بمنتهى السهولة. إذا كنت لا ترغبين في الزواج فبإمكانك ألا تتزوجي. أما أنا، فالذهاب إلى السجن ليس بالأمر الذي أقرره لنفسي، قلت لها ذلك محاولاً مشاكستها: «إن الزواج يعود قراره لك وحدك. أما السجن فلا يعود قراره لي. لقد كان وضعك أفضل من وضعي بكثير».

كنا نتجاذب أطراف الحديث وكأنما مضى على صداقتنا وقت طويل. ثمة نماذج عديدة من العلاقات، في بعضها يشعر الطرفان بقرابة روحية تجمعهما منذ البداية أما في بعضها الآخر فيلزم بعض الوقت قبل أن تنطلق العجلات وتجري بسرعة. وفي بعضها الآخر، لا تنطلق العجلات إطلاقاً. لقد تجاهل كل منا مشقات الآخر وعناءه لأن كلاً منا شاهد الكثير في حياته. وفي الوقت نفسه كان كلٌّ منا يفهم الآخر ويدرك أحاسيسه لأن جوهر تلك الأحاسيس كان واحداً، رغم تمايز عذاباتنا واختلافها.

كان نثر القش يتطاير في الهواء ثم يحطّ في أرجاء الحظيرة فتلتمع بومض سريع لا يلبث أن يخبو. كانت الأغصان تصدر حفيفاً في الهواء وكان دلو للمياه يتأرجح إلى جانب البئر. سحبت بعض المياه لأسوي من التراب وحلاً وشرعنا معاً نبني الحظيرة على مهل.

في الواقع كان بوسعي إصلاح الحظيرة بمفردي وخلال وقت

قصير، بيد أن سنوات من الخبرة علمتني أنه على المرء إحداث بعض الضجيج من حوله قبل أن يوافق على القيام بعمل ما. وفي حال أرسلوا أحدهم ليقدم لك يد العون فإن ذلك يوفر عليك بعض التعب، إذ ما من تناقض بين أن توفر على نفسك بعض العمل وتلك النشوة التي قد تخالجك حين تقوم بالأشغال الشاقة. إن العمل يخص أحداً غيرك بينما الجهد الذي تبذله يخصك أنت وحدك. وحدها الأيادي المأجورة تدرك الفرق بين الحالتين. في تلك اللحظة وبينما نحن نقوم معاً بعمل شخص واحد، كنا نشعر بتفاهم ضمني هائل ونقوم بالعمل بسهولة أكبر.

بينما كنا نعمل معاً، أدركت فجأة تلك اللذة الكبيرة التي يشعر بها المزارع في حياته: «اللذة في عمل زوج وزوجته يداً بيد، كما في قصائد الصين القديمة حيث الصورة الرائعة لرجل يحرث وزوجته تحوك».

بينما كنا نعمل، رحنا نتحادث عن أناس عرفناهم، أناس التقينا بهم وقمنا معهم بالأشغال الشاقة. معارف وعلاقات غابت عنا منذ وقت طويل وتاهت في حياة أشبه بالوهم. في داخل المخيمات كانت تتقارب حياتنا وتتشابك مع حياة الآخرين. منهم من أعيد إدخاله إلى المخيمات، ومنهم من أصبح في الخارج أو طلقهن أزواجهن أو طلقتهم زوجاتهم. انتحر البعض وقتل البعض الآخر... حين رحنا نسترجع كل ما حصل للآخرين أدركنا أننا كنا نحن الاثنين من ذوي الحظوة: بدا لنا أن القدر ابتسم خصيصاً لنا، بيد أننا شعرنا في أعماقنا بالشفقة على نفسينا، فرحنا نواسي بعضنا البعض بينما نحن منكبين على العمل.

لماذا لم تبقي في كوميون الرمال البيضاء؟ هل أن الحياة هناك

سيئة إلى هذا الحد حتى رغبت في القدوم إلى هنا؟»

«كل المزارع الحكومية متشابهة. إن الحياة أو الجحيم، هو ما تفعله أنت بيدك». رفعت خصلة شعرها التي تفلتت من منديل النايلون على رأسها ورفعت عينيها صوبها. لو كان ثمة مرآة في الجوار لكانت توجهت فوراً إليها. ارتسمت على وجهها في تلك اللحظة إمارات عابثة لعوب، ولاحظت أن شعرها كان أسود لماعاً. «لما أصبحتُ امرأة مطلقة، ما الفائدة من بقائي في ذلك المكان؟ من الأفضل لي أن ابتعد عنه قدر الإمكان. إن صداقة كبيرة تجمع بين أمين سر مفرزتنا وأمين سر مفرزتكم والأول غالباً ما يزور الثاني في الكوميون وهو دبّر لي أمر انتقالي».

توقفت قليلاً عن الكلام ثم قالت: «إنه إنسان فاسد».

«آه؟ كيف لك أن تعرفي ذلك؟ يبدو لي لطيفاً». «ها»! أطلقت ضحكة باردة وأردفت: «الرجال. لقد عرفت منهم بما فيه الكفاية. نظرة واحدة من أعينهم لهي كافية لكي أعرف ما تخبئه أعماقهم».

أطرقت مفكراً لبعض الوقت. لم ألحظ مرة ما هو غير عادي في عيني أمين السر هذا. أو لعلي لم أحدق فيهما جيداً. فكرت فوراً بنظرة عيني أنا. هل كانت لترى فيهما شيئاً غريباً كذلك؟ تذكرت ما قد رأيته قبل ثماني سنوات وكان المشهد جلياً أمامي كما لو أنه حصل معي البارحة. وكان من المستحيل أن تتذكر كيف كانت نظرة عيني آنذاك. على أي حال فكرت بوجوب الحيطة والحذر أمام امرأة على هذه الثقة بقدرتها على اختراق ما تخبئه نظرات الرجل. أشحت بنظري بأسرع ما يمكن إلى مكان آخر. التقطت القضيبين اللذين جاءت بهما ورحت أتأملهما مفكراً في وسيلة لاستخدامهما.

في تلك اللحظة، ظهر أمين سر مفرزتنا من بعيد وهو يتسلق المنحدر. لحسن الحظ كنا توقفنا عن الكلام. كانت هي تقف بلا مبالاة في مكان بعيد عني وأنا كنت أتظاهر بالعمل.

«أحسنتما، أحسنتما. لقد أنجزتما قسماً كبيراً من العمل!» كان مزاج أمين السر يبدو مرحاً على نحو غير مألوف: لم نكن، في الواقع أنجزنا الكثير.

راح يرمقني بنظراته بينما كان يقترب مني وانتهزت الفرصة لأنظر إلى عينيه. لم ألحظ فيهما ما هو غير عادي. كان الرجل فائق الذكاء. حين لم يكن أحد غيرنا في الجوار، كان يتصرف معي بطريقة طبيعية جداً.

كان فريقنا يُعرف أساساً باسم «بوابة الجحيم». ومن بين كل الفرق في المزرعة الحكومية كان الوحيد الموضوع باستمرار تحت مراقبة شديدة صارمة.

وعند اقتراب نهاية الثورة الثقافية العظيمة، أُحيل إلى لواء مسلح(*) وأوكلت إليه مسؤولية مراقبة عملية تشييد السجن بالقرب من مقر المبنى الزراعي. بعد حادثة مقتل «لين بياو»(**) كان أمين السر هذا هو الذي أطلق سراح السجناء من ذلك السجن.

بيد أن إطلاق سراحهم كان أشبه بتذويب قبضة ملح في غلاية

(*) هذا اللواء يتسلح أفراده بالبنادق أثناء عملهم في الحقول وكان هذا شائعاً في المناطق الحدودية في الصين.

(**) ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٧١: زعم أنه في هذا التاريخ توفي لين بياو أثناء تحطّم طائرته فوق مونغوليا بينما كان متوجهاً من الصين إلى الاتحاد السوفياتي. وبحسب بعض المصادر الصينية فإن لين بياو كان يدبر آنذاك مؤامرة للاستيلاء على السلطة لكن مؤامرته كشفت وهو كان يسافر على متن طائرة صغيرة بصحبة سبعة رجال وامرأة حين أسقطت الطائرة خارج الحدود الصينية.

من الماء. بدأت مرارتهم تتسلل إلى الآخرين وراح جميع السكان يستشعرون بعذاباتهم. وكان يشيع عن لسان أمين السر هذا أنه كان يوجه تحذيرات متكررة إلى الناس ويردد لكل الذين يستمتعون بضرب الآخرين: «لا تحشروا الكلاب في الزوايا». ورغم أنه كان يشبّهنا بالكلاب في تلك الأيام التي كنا نعيش فيها كالكلاب الشاردة، لم تكن كلماته تلك خالية من بعض اللطف والطيبة.

منذ قدومه إلى هنا، راحت إدارة «بوابة الجحيم» تبدي بعض اللين في معاملتنا، حتى أنها صارت تسمح لنا بالخروج من المنزل أيام العطلة من دون أن نطلب الإذن بذلك.

«بوابة الجحيم» لم تعد اليوم على حالها. نقّل أمين السر عينيه الضاحكتين باتجاه كزيانجيو. تقدّم نحوها وحمل رفشها وراح يقلبه بين يديه وسألها: «أهذا كل ما لديك؟ حتى إنه ليس مسنوناً».

ركّز حرف الرفش على صخرة كبيرة كانت بالأمس دعامة للمزود، وأمسك مقبض الرفش وراح يشحذه. كانت أكمامه الواسعة تتأرجح كالأمواج مع كل حركة يأتيها وكان جسده المنحني يوحي بكثير من القوة والرجولة. بعد أن أنهى عمله، انتصب وراح يختبر الحرف المسنون بإبهامه.

«أوترين كيف أصبح؟» قال وهو يسلمها الرفش. «هكذا أفضل». جرفت «كزيانجيو» بعض السماد من بقعة أشار إليها ووافقت ضاحكة. بسرعة قصوى، جعلها أمين السر تغير رأيها به. كانت لديه أساليبه الخاصة، بينما كل ما فعلته أنا كان الكلام والثرثرة الفارغة.

أدرت ظهري لهما وشرعت أربط ألواح الخشب بواسطة سلك طويل كنت أحضرته لهذه الغاية. أخذ أمين السر مكاني وراح

يساعدها في تثبيت السواري. كانت الرياح تحمل إليّ حديثهما.

«حضرة أمين السر «كاو»، أين كنت قبل أن تأتي إلى هنا؟»

«كنت في السهول، سهول «كزلينغول» أو تعرفينها. كنت في كتيبة الفرسان هناك».

«أجل إنه لمكان رائع».

«هل سبق إن زرته؟»

«لا. ولكن شاهدته في الأفلام. تلك الأميال من السهول الممتدة لهي حقاً رائعة».

«هذا صحيح. إن السهول هي بمثابة ثروة حقيقية وخصوصاً في الصيف. ولكن أن يكون المرء على هذه المسافة البعيدة من العالم، ما من منزل واحد في الجوار... هذا من دون أن نذكر النساء... نحن الجنود كنا في ربيع عمرنا وكنا، نشعر أحياناً بوحدة قاتلة...»

«لماذا لم تصطحب زوجتك إذاً؟»

«لم يكن لدي زوجة آنذاك. إضافة إلى أنه لم يكن مسموحاً لنا، نحن قادة الفصائل الصغيرة، أن نصطحب زوجاتنا. لكي يسمح لنا باصطحاب عائلاتنا علينا أن نكون قادة برتبة ما».

«إن زوجتك جميلة للغاية. أوليست هي التي تعلّم في المدرسة؟»

«سواء كانت جميلة أم لا، إنها هي. يقال إنه بعد ثلاث سنوات من الخدمة العسكرية، حتى الخنزيرة تصبح شبيهة بالمرأة! أنا أمضيت ثماني سنوات في الجيش وتزوجت ما إن أنهيت خدمتي. من كان ليأبه إذا كانت جميلة أم لا».

كان ثمة أكثر من نبرة أسف في عباراته. لم يكن من الصعب أن يتكهن المرء أنه لو قدر له اليوم لكان اختياره مختلفاً. كانت قسمات وجه زوجته عبارة عن فم عريض مليء بالأسنان الصفراء، وخدين أحمرين يميلان إلى الأرجواني وبشرة خشنة كما الجلد. ويقول سكان القرية إن مياه قريتها هي السبب الكامن وراء بشاعة وجهها، بيد أن «هوانغ كزيانجيو» تكلفت كثيراً لتحمل كلماتها بعض الإطراء. تلك المرأة كانت زوجة أمين سر المفرزة وعلى الرغم من أنها لم تنه المرحلة الابتدائية من دراستها، ولم يكن من المؤكد أنها تجيد حتى كتابة اسمها، فهي كانت معلمة في مدرسة القرية. أثناء عملهما معاً، كان كلٌّ منهما يجد بسهولة ما يحكيه للآخر. نادراً ما كان أمين السر «كاو» يبوح للآخرين بمكنونات قلبه ولكنه اليوم كان يبدي رغبة غير مألوفة بالبوح. أخبرها أن هذه القرية يستحيل مقارنتها مع مسقط رأسه، لما أنها كثيرة الرمال والرياح وتفتقد طرق مواصلات لائقة. لكن كان بمقدروه هنا أن يعمل بصفة «كادر» في مشروع حكومي وهذا أفضل له من العمل بصفة «كادر» في كوميون قريته. إضافة إلى أن زوجته لم تنسجم مع أهله وأنسبائه فقرر الانتقال. ولكن إذا ما سنحت له فرصة العودة للعمل ضمن «وحدة وطنية» في قريته فلن يتردد لحظة واحدة. بدت على وجه «كزيانغجيو» بعض إمارات الأسف حين أعرب أمين السر عن رغبته بالرحيل. «إن المزرعة الحكومية بحاجة إلى قائد بارع». سمعتها تقول له: «إن سرعة القطار تتوقف على جودة محركه». وأضافت وهي تطلق تنهيدة: «أن تعمل بصفة «كادر» هو بالتأكيد أفضل لك إذ يصبح بوسعك أن تطلب نقلك إلى حيث تريد: «إلى مزرعة أو إلى مصنع وإذا لم يعجبك أي من الإثنين فبإمكانك الانتقال إلى الحكومة. أما نحن العاملين في المزارع فإن نقلنا لا

يكون إلا لمزرعة حكومية أخرى».

نصحها أمين السر «كاو» أن تحاول العودة إلى قريتها خصوصاً وأن كل ما كانت بحاجة إليه هو وحدة توافق على ضمها إلى صفوفها هناك، وأكد لها أنه سيبذل كل جهده ليتدبر لها الوثائق اللازمة لذلك. من طرف عيني، شاهدته يقوم بإيماءة من يده تقلّد توقيع إمضاء سريع لترحل هي بعيداً بأسرع ما يمكن.

«شكراً جزيراً» قالت له. ولكني واجهت متاعب جمة كما تعرف ولا أرغب في الواقع في العودة إلى دياري خصوصاً وأن سمعتي هناك ليست بالسمعة الطيبة».

«آه، إن هذا ليس بذي شأن». أجابها وأردف قائلاً: «هذا ما نسميه «تناقضات داخلية خاصة ليس إلا. من المؤسف أن ذلك حصل لك قبل الثورة الثقافية الكبرى. لو حصل لك ذلك أثناءها لما كان حكم عليك بثلاث سنوات من الأشغال الشاقة. ليتك رأيت الملصقات المنشورة بالأحرف العريضة آنذاك وهي تشير إلى كوادر عالية المقام فعلت الشيء نفسه!»

لم أكن أعلم بالتحديد نوع الجريمة التي ارتكبتها. أما أمين السر فكان من البديهي أن يكون على علم بالأمر إذ أنه لم يكن على اطلاع واسع بالشؤون السياسية وحسب، بل كان قادراً على الوصول إلى كل الملفات والاطلاع عليها. حسب ما ردّد، كان من الواضح أنها كانت متهمة بما يسمى «العلاقات المشبوهة بين النساء والرجال». تلك الجريمة لم تكن لتميز بين النبلاء والوضعاء وكان لأي كان أن يرتكبها حتى ولو لم يكن رأسمالياً وهذا أيضاً لم تكن مؤهلة له على الإطلاق.

تابعا أحاديثهما بينما أخذ استيائي ينمو شيئاً فشيئاً في داخلي. كانت الشمس بدأت تميل إلى الجهة الغربية. تجمعت غيوم فوق قمم الجبال العارية. خفّت الرياح وراحت تطوف بكسل بين الأعشاب اليابسة. على خط الأفق الأصفر إلى الجهة الجنوبية، كان بوسعي أن أميز سحابة صغيرة من الغبار الأبيض. كان «دامبو» يسوق القطيع عائداً وكان انطلق إلى العمل بعد موعد انطلاقة الفصيلة الرئيسة وعاد قبلها، بيد أن عودته لم تكن تعني أن العمل انتهى. فالخراف يجب أن تروى وتطعم وكان ثمة أعمال كثيرة تنتظره، شأنه شأن أي راعٍ آخر.

دفعت باب الحظيرة بقوة قائلاً لهما: «يجدر بنا الإسراع في العمل، سوف تعود الخراف عما قريب».

استدار أمين السر لينظر إليّ وقال وهو يعيد إليها رفشها: «إذاً انتهى عمل هذا النهار».

حين اقترب مني، قدم لي سيجارة: «هاك دخّن سيجارة. بحسب ما ورد في «الملحق اليومي». فإن كل سيجارة تستهلكها تخسر معها خمس دقائق من حياتك. أنا لا أصدق ذلك. كيف لك أن تعرف، على أية حال، أي الدقائق الخمس تلك التي خسرتها؟»

«إذا كنت تدخن، فأنت تدخن» قلت له: «على أية حال، إذا نقصت حياتي أو زادت خمس دقائق فالأمر سيان بالنسبة إلي».

أخذت السيجارة وأشعلتها ثم أشعلت له سيجارته. أخذ منها نفساً عميقاً وقال: «الأمر سيان بالنسبة للجميع. في الوقت الحالي، من ذا الذي يخاف من الموت؟»

كان ذلك صحيحاً. لم يكن الصينيون يخشون الموت.

خصوصاً في الوقت الحالي حيث لم يكن للحياة أي جدوى. ولكن عند الكلام مع أمين السر، على المرء اتخاذ الحيطة والحذر والبقاء ضمن الحدود.

غيّرت الموضوع: «لقد عدت لتوي بعد أن أمضيت شتاء كاملاً أرعى القطيع في الجبال. هل تريدني أن أبقى هنا وألازم الخراف أو أن أعود لأعيش مع الفرقة؟»

«الأمر يعود إليك» أجابني بنبل: «أن تستمر في رعاية القطعان أم لا، الأمر أيضاً عائد إليك. لقد أمضيت شتاءً بكامله مسجوناً في الجبال وإذا ما كنت راغباً في شيء من الراحة، عد إلى الفرقة. أما إذا كنت راغباً في البقاء لوحدك مع الخراف فما عليك إلا أن تفعل. آه، ثم هناك أمر آخر، بما أنك قد عدت لتوك من عمل طويل شاق فبإمكانك أن تأخذ عطلة لثلاثة أيام. ما رأيك بهذا؟»

«حسناً في هذه الحالة، سوف أعود للعمل مع الفرقة». إن أسهل أنماط الحياة في المزرعة الحكومية هو بدون شك نظام عيش الفرقة: فأنت تعمل فيها لساعات معينة وتأخذ عطلة ومهما تكاسلت في عملك فإن راتبك لا ينقص فلساً واحداً. وعلى عكس العمل في المخيمات فإن العمل المنفرد لم يكن ليميز الواحد عن الآخر ويقدم له شيئاً من الحرية، بل إن ذلك كان يعني أنك سوف تكون مقيداً إلى وظيفتك وما من وسيلة تتيح لك التفلت من هذه القيود. من جهة أخرى كان في رعي الخراف مخاطرة كبيرة بالنسبة لأمثالنا. فإذا كانت نسبة ولادات النعاج مرتفعة فنحن لا نحظى بأي مكافأة أما إذا ارتفعت نسبة الوفيات فإن اللوم يقع علينا بالتأكيد. راح أمين السر ينفض الغبار عن يديه وثيابه وابتعد عنا سالكاً الدرب المتعرج باتجاه التلة. تقدمت مني وهي تحمل رفشها: «غريب» قلت لها «إنه

يبدو اليوم في منتهى الإنسانية. منحني عطلة لثلاثة أيام، ولاحظت أنكما استرسلتما في الأحاديث». «إن هؤلاء الناس أبالسة بحق» قالت لي ثم أردفت: «لم يعد الشخص الذي عرفته من قبل».

«كيف ذلك؟» بشيء من الذعر أدركت أني طوال الشتاء الذي أمضيته في الجبال، لم أقرأ جريدة واحدة ولم أسمع كلمة واحدة من مكبرات الصوت. هل أن العالم شهد بعض التغييرات أثناء غيابي؟ لم يكن بوسعي التحقق من ذلك. لقد شعرت بأن شيئاً تغير ليس إلا.

راحت تنظر إلى غيمة الغبار الأبيض تكبر شيئاً فشيئاً في الأفق. «إذا لم تكن مشغولاً هذه الليلة مرّ بي في منزلي فنمضي جلسة هادئة. منزلنا هادىء جداً أعيش فيه مع امرأة عجوز. نحن الاثنتين فقط...»

2

عاد «دامبو» بالخراف. عدّها وقدّم لها الماء ثم فرّقها في الحظائر. في فترة وجيزة تحولت الحظيرة الباردة المهجورة إلى حظيرة تضج بالحياة: خراف تدفع خرافاً، وخراف تنطح خرافاً ونعاج تبحث عن أمهاتها. وحدها الخراف الطاعنة في السن كانت تربض ساكنة وتروح تراقب أبناء جنسها بنظرات باردة مذعنة.

مضبوط: ٢٧٥ خروفاً لا ينقص منها واحد وبالطبع لا يزيد. بالرغم من كل الحيوية التي تضج من حولي، فإنها لم تكن سوى خراف حيوية ليس إلا. لأشهر عديدة، كنت أشعر بشوق كبير لرؤية الناس.

حين أصبحت الخراف في الحظائر لم تعد من مسؤولية «دامبو» فهو لا يجيد إلا رعيها. كان يعجز حتى عن إحصائها. كان «دامبو» يقوم بمهمة كلب الراعي. هو الآن يتكىء إلى الحائط غارقاً في صمت عميق. خفض رأسه وراح يحدق إلى قطعتي الكاوّتشوك اللتين كان ينتعلهما حذاء للتنقل في الجبال. صرخت به بينما أنا أصرخ للخراف أيضاً:

«هاي، عد إلى منزلك!»

«أعود إلى منزلي؟»

«قلت لك عد إلى منزلك وتناول عشاءك!»

«تناول عشاءك!»

كان «دامبو» يردد كل كلمة تقال أمامه. ما همي وشأني فالواحد منا لديه ما يكفي من متاعبه الخاصة.

بعد فترة قصيرة، وصلت والدة «دامبو». كانت امرأة مونغولية ذات قدمين ضخمتين ووجه مسطح لذعته الشمس فحولت لونه إلى اصفرار غامق.

بينما جميع الناس كانوا في تلك الفترة يرتدون اللون الأخضر الخاص بالبزات العسكرية، وحدها تلك المرأة كانت لا تزال ترتدي أزياء عتيقة الطراز. شرعت من بعيد تمطره بوابل من الشتائم، حتى قبل أن تقترب من حظيرة الخراف.

«قل لي لماذا لا تموت. لماذا لا تموت وترحل عني بكل بساطة. أنت مجرد مخلوق تافه عديم الفائدة. أنت حتى لا تعرف طريق العودة إلى البيت إذا لم آتِ وأصطحبك. يجدر بك أن تموت فتوفر علي الكثير من العناء...»

«لا تؤنبيه أيتها الأخت» قلت لها «إنه يقدم لك ثلاثين دولاراً في الشهر أليس كذلك؟ بغضّ النظر عن عدم تمكنه من العثور على طريق العودة إلى البيت فإنه يجيد رعي القطيع أفضل من كلب...»

«هذا صحيح، وأنا عاشقة للثلاثة والثلاثين دولاراً تلك!» تهادت ذات القدمين الضخمتين في مشيتها وهي تلج حظيرة

الخراف واستطردت قائلة: «بيد أن هذا الأبله لا يجيد أكثر من ذلك. كان المال بين يديه وأضاعه. من طلب منه أن يعيد تلك الحقيبة؟ صحيح أن المسألة قد انتهت ولكنه أخطأ حين قرر عدم الاحتفاظ بها. وكانت النتيجة أن اعتلّت صحته. لا يمكنني طرد ذلك من تفكيري. لاو زانغ(*)، لا يسعني إيجاد تفسير لذلك. على أية حال لست أدري من أي طينة قد جبل الناس؟ قل لي، أنت من يمتلك ثقافة واسعة، هل بوسعك أن تفهم الرجل؟» شددت على كلمة «رجل» مشيرة إلى أنها لم تكن تعني زوجها هي بل كانت تسألني عن طبيعة الإنسان وخصائصه وأهميته. في وقت كانت فيه «طبقة» الإنسان تعتبر الأمر الوحيد الأهم، كانت تلك المرأة في الصحراء المنعزلة تحاول التعمق أكثر وأكثر في تفكيرها. في حين كان النقاد وصانعو السياسة يصرخون «طبقة»، كانت هي تحاول في الواقع أن تخترق طبيعة الإنسان. بعد أن استخدمت سوط زوجها لتحث ابنها على الحراك، تمكنت هذه الفيلسوفة البائسة من إقناع «دامبو» بالانطلاق. سارت هي في المقدمة تقوده في الطريق وسار هو وراءها غارقاً في صمته وسلكا الدرب الضيق المؤدي إلى منزلهما.

كانت الخراف تثغو، في البعيد بدأ الدخان يتصاعد من سطوح المنازل. كانت معظم العائلات تستخدم للتدفئة نوعاً من الخشب يولد دخاناً كثيفاً أسود تنتشر غيومه فوق البلدة كما الجن الطالعة من مداخنها.

في الواقع لم يكن «دامبو» أبكم بل كان قادراً حتى على القراءة

(*) إذا سبقت إسم العلم كلمة «لاو» فذلك يعني أن قائلها يكن احتراماً وتقديراً كبيرين لمن يتوجه إليه. وغالباً ما تستخدم في الكلام مع كبار السن.

وإن بشيء من الصعوبة. كانت عائلته أو طبقته من المزارعين الفقراء ووضعها هذا كان يعود إلى خمسة أجيال، لم يتلطخ سجلها من هذه الناحية ببصمة واحدة غير نظيفة. كان «دامبو» عاد إلى مسقط رأسه بعد أن أنهى خدمته العسكرية. وعلى عكس أمين سر المزرعة، لم يكن يملك الثقافة الكافية، وأعلى مرتبة كان يعقل أن يصل إليها هي تولي قيادة فرقة صغيرة. فأوليت إليه قيادة إحدى الفرق التي رفض قيادتها كل الآخرين: وهكذا أصبح بارعاً في رعي الخراف.

لطالما كان «دامبو» رجلاً سعيداً، لا يكنّ ضغينة لأي كان. حمل السلاح في الجيش لمدة خمس سنوات لكنه لم يفقد أبداً طيبة الفلاحين وفضيلتهم. بيد أن ذلك لم يقف حائلاً أمامه للقتال في الأوقات الحرجة بكل ما أوتي من قوة، فيروح يلكم ويرفس ويعض مقاتليه بشجاعة نادرة. كان ولاؤه لرؤسائه ولاء كاملاً، وحقده على «أعداء الشعب» لم يكن سوى نتيجة إيمانه المطلق بالثورة، فلو قال له القادة مثلاً إن «أشباح البقر وأبالسة الأفاعي»(*) تتجسد في رجال هم الشر بحد ذاته فإنه لم يكن يناقش البتة. بسبب طبيعته المرحة، كان الناس يحبونه وبسبب تفانيه، كان القادة يعطفون عليه. وفي كل عام كان يلقى المديح والإطراء بسبب دراساته المتعمقة في أعمال ماو.

قبل ثلاث سنوات، كانت الخراف ترعى كالعادة في الجبال في فصل الخريف. اصطحب «دامبو» معه أربعة رعاة جمعهم من فرق مختلفة. توجه الجميع إلى حظيرة خراف شيدت من الحجر على جبل في وسط منغوليا تقريباً. إنه المكان نفسه الذي عدت منه

(*) هذه العبارة كانت تعني، وبالمعنى الحرفي «أعداء الشعب» من مختلف الأنماط أو «قوى الشر».

لتوي. الأرض هناك كانت مفروشة بالحجارة العريضة المسطحة وكان ثمة دربٌ نافذ من التلال مفروشٌ أيضاً بتلك الحجارة الرمادية المخضرة. كان العشب ينمو بينها ولا بد أنه كان نوعاً صلباً من الأعشاب حتى يتمكن من البقاء على قيد الحياة وسط الحجارة.

وبحسب المعتقدات المحلية فإن الخراف حين ترعى من هذه الأعشاب كانت تطرد منها الأرواح الشريرة وتنجو من أمراض كثيرة، لذلك فإنها تساق في كل عام إلى هذا المكان لترعى.

ذات يوم، كان الرجل الذي لم نكن بعد ندعوه «دامبو» يسوق أكثر من مئتي خروف إلى ذلك المكان حين عثر فجأة على لقية لا تخطر على بال أحد. كان كيساً منتفخاً من القماش المطرز ملقى على صخرة.

فتحه «دامبو» ونظر إلى محتواه فإذا بلفافات مالية تظهر أمامه الواحدة تلو الأخرى. في هذه الأرض القاحلة الشبيهة بسطح القمر، لم يكن سوى تفسير واحد لهذه اللقية وهو أن الكيس قد سقط من السماء. جلس «دامبو» وحيداً على صخرة وبقي على هذه الحال طوال النهار. لم يحاول عدّ الأموال بل أطرق مفكراً ماذا عساه يفعل بكنزه. لدى عودته إلى الحظيرة ليلاً خبأ الكيس وطمره في السماد من غير أن يخبر أحداً، ومنذ تلك اللحظة مرض «دامبو».

كان يكلم نفسه باستمرار فتروح شفتاه ترتعشان من دون أن تصدرا صوتاً. كان كمن يسترجع في ذاكرته مجموعة من الصور الفضائية. ومنذ ذلك الحين لم يعد قادراً على تحمل مسؤولية القطعان فعُين قائد فرقة بصورة شكلية وحلّ رجل آخر مكانه. بعد تلك الحادثة بوقت قصير وصلت إلى المزرعة مجموعة من رجال

مكتب الأمن العام الإقليمي. يبدو أن المال قد أضاعه المنغوليون. كان هؤلاء اصطحبوا إلى النهر الأصفر قطيعاً من الأحصنة باعوه هناك وجنوا منه حوالي عشرة آلاف دولار. لم يكن ثمة من مصرف في السهل المرتفع ليدعوا المال فيه، فربطوا كيس الدولارات بأحد سروج أحصنتهم وانطلقوا في طريق عودتهم إلى ديارهم. ويبدو أنهم أكثروا، في طريقهم من احتساء الخمرة فتفلت الكيس من السرج على غفلة منهم وسقط على الصخرة.

تتبع رجال الأمن العام آثار الطريق الذي سلكه المنغوليون إلى نتيجة مفادها أن المشبوهين في هذه القضية لا يمكن إلا أن يكونوا أولئك الذين يعيشون في حظائر الخراف في هذه السهول النائية.

وفي نهاية المطاف اهتدوا إلى حظيرة «دامبو».

تلك الحظيرة المنعزلة لم تستقبل يوماً هذا العدد الكبير من الرجال. واستدعي الرعاة إلى سيارة عسكرية حيث راح رجال في بزات موحدة يستجوبونهم الواحد تلو الآخر.

كان «دامبو» قائد فريق، وكان مزارعاً فقيراً وطيباً وكان أيضاً يعاني من مرضه الغريب ولم يكن أحد ليشك في أمره. بيد أنه ما إن رأى أولئك الرجال المدججين بأسلحتهم حتى تغيرت سحنته وبدأ جسده يرتعش. ومن دون أن يسألوه، أخبرهم كل شيء. نبشوا الكيس المنغولي المطرز من وسط كومة روث الخراف وحين عدوا المال وجدوه ينقص فلساً واحداً.

وبين ليلة وضحاها أصبح «دامبو» شهيراً وإضافة إلى كونه منشطاً مثالياً في دراسة أعمال «ماو» أصبح جندياً نموذجياً في «النظام الزراعي والإصلاحي» الأقليمي و«عضواً حزبياً استثنائيا» ومثالاً صالحاً طلب إلى كل الناس الاقتداء به.

حين كان أحد جنود البروباغندا يساعده ليدوّن كل ما حصل معه في تقرير، راح «دامبو» يضحك بينه وبين نفسه ويردد مرتعشاً: «كان المال كثيراً، أكثر من اللازم! لو أن الكيس كان يحتوي على بضع مئات الدولارات لكنت احتفظت به لنفسي» وبالطبع لم يُدوَّن ذلك في التقرير الرسمي واكتفى جندي البروباغندا بتدوين عبارات جاهزة، استعادها من مقالات الصحف بغية إنهاء تقريره. لم يعد المال بحوزة «دامبو» ولم يعد هو يعاني من المرض. بعد فترة وجيزة استدعي «دامبو» ليلقي خطاباً في بكين.

حضر «مؤتمر الشعب الجديد» الذي عقده «النظام الزراعي الوطني» والتقى أيضاً كبار المسؤولين في اللجنة المركزية. ولكن إثر عودته من بكين راح يطوف بين الناس ليخبرهم كم كان مغفلاً.

قبل ذهابه لم يكن يعرف بالضبط ماهية المال، والغاية من استعماله. لكن بعد زيارته إلى بكين ومشاهدته لكل تلك البضاعة المعروضة في متجر «وانفوجينغ»، أدرك أن المرء بحاجة إلى المال لكي يحظى بحياة لائقة. وصل كلامه هذا إلى أسماع القادة الذين سارعوا إلى استدعائه وراحوا يتلون عليه دروساً ونبهوه إلى أنه إذا ما استمر على ثرثرته تلك، فإنهم سوف يضطرون إلى تصنيفه «كعدو للشعب».

عاد «دامبو» من مركز قيادة المزرعة الحكومية والصدمة بادية عليه. عاد رجلاً آخر. ومنذ ذلك اليوم وهو غارق في الصمت.

في بادىء الأمر، أطلق عليه الناس لقب «المغفل». ولسوء الحظ، في ذلك الوقت الاستثنائي، كانت صفة «المغفل» تأخذ منحى لا يخلو من الإطراء. على سبيل المثال كان ثمة رجل يأتي يومياً

لتنظيف مراحيض المركز الرئيس وكان يلقى التشجيع والإطراء بوصفه «مغفلاً».

هذا الرجل كان مهندساً سابقاً في مجال الهندسة الهيدروليكية وهو عانى الأمرين قبل أن يتخلص من لقب «المثقف». واليوم، وبعد جهد كبير، حصل على لقب «المغفل» المجيد وسُمح له بالانتساب إلى الحزب.

بيد أن الناس ارتأوا أن إطلاق لقب «المغفل» على الراعي لم يكن مناسباً وبفعل طبيعة مرضه الغريبة، أطلقنا عليه لاحقاً اسم «دامبو».

كان «دامبو» عنيداً في صمته ولكن من ذا الذي يعرف ما كان يدور في رأسه؟ حين كان الناس ينظرون إليه كانوا يشعرون بظل قاتم يعبر في رأسهم. إن معظم المآسي الشخصية كان سببها السياسة، و«الحركات الشعبية» التي كانت تجتاح حياة الناس. أما مأساة «دامبو» فكان هو نفسه المسبب الوحيد لها. حين كنا نفكر بحالته، كان لا بد لنا أن نعترف بأن رغباتنا الأقوى لا تزال تختبىء في أعماق قلوبنا.

تحت طبقات الشعارات السياسية، في عقل كل إنسان عادي وفي قلبه أيضاً، في دواخل إنسان يقود حياة مثالية، كان ثمة شعور خفي عار ورغبة في عيش حياة لائقة ليس إلا. وكانت تلك الرغبة صادقة وفجّة وأنانية إلى حد أنها قد تثير في المرء الرعب. كان شعوراً يرفض الانصياع للسياسة. لو كان ذلك الشعور حياً في دامبو، لكم هو إذاً حيّ فينا؟ أياً تكن الحركات السياسية التي كانت تجتاحنا كان مستحيلاً أن نطرد منا هذا الشعور.

على العكس، كان أحياناً يزحف إلينا بملء إرادته وفي أقل من

لحظة يذوّب كل التأثير الذي تركته «السياسة» على المرء.

حين كنا ننظر إلى «دامبو»، كنا ندرك أنه في قلوبنا أيضاً، إلى جانب الروح المحاربة في «الثورة التي لا تتوقف»، كانت تحيا روح أخرى، روح لا تملك اسماً ولا يمكن أن نحدد اسماً لها. هذه الروح خرجت لدى «دامبو»، إلى الضوء، في حين بقيت مختبئة فينا نحن جميعاً.

هذه الأفكار الغادرة المغوية، كانت كمثل جريان المياه تحت طبقات الجليد وكانت، شيئاً فشيئاً، تقرض العالم المجلد فوقها.

يكون لهذا علاقة بما عنته الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين؟

أحنى «دامبو» رأسه وسار وراء المرأة ذات السوط باتجاه التلة وتوارى الاثنان تدريجياً في ضباب الليل الأزرق. دخان الجن غطى كل القرية. هدأت الخراف. جثم خروف منهك هرم في زاوية خلفية وراح يتنفس بصعوبة وينظر من حوله كما لو أنه فهم سخرية السماء وأسى الإنسان.

أنهيت عملي وجلست على الصخرة التي استخدمها أمين السر «كاو» ليشحذ الرفش. بينما كنت أشعل سيجارة ساورني شعور مألوف بالقلق. هذا الشعور كان ينتابني بانتظام تماماً كما دوران الساعة. حين كانت الشمس تغيب والمساء يقترب، حين كانت الخراف صامتة والغيوم الناعمة تجري في السماء، حين كان الهواء يهب على التلال الرملية والسهول الساكنة وكل ما هو ساكن، كان ينتابني ذلك الشعور بالوحدة والعزلة.

في كل ليلة ونهار من حياتي، لم يكن لدي كما «دامبو»، سوى الخراف لترافقني في وحدتي. كنت أعيش في بيئة غير إنسانية وكأنما شبيهة بدوامة من الوحل لفظتها ثورات البشر

المهتاجة. في كل المساحة الممتدة فوقي والطبيعة القاحلة الثابتة من حولي، لم أكن لأعثر على إشارة واحدة تثبت لي شيئاً واحداً مما قرأته في الكتب. لقد فقد عالمنا كل صلة بالمجتمع البشري.

هذه الحالة الثابتة، المعلقة في الوقت كانت تثير لدي أحياناً رغبة جامحة لأن أتحرك، لأن أقوم بعمل ما. وفي أوقات أخرى كانت تغمرني باليأس والكآبة وأكثر من ذلك كانت تثير فيّ رعباً حقيقياً. الوقت ورأسي كانت تتآكلهما الرياح بصمت.

وفي نهاية المطاف كنت أستحيل عديم الفائدة وأتحوّل تدريجياً لأصبح شبيهاً بدامبو.

أوكان بوسع أحدنا أن يقول إن رأس «دامبو» كان فارغاً؟ «دامبو» كان صامتاً وحسب. إن العالم قالب من الحديد، بلا شعور ولا ضمير. وإذا ما أردت أن تؤثر عليه عليك بدفعه وقولبته وعليك أن تصرخ على الأقل، حتى ولو كانت الصرخة مخنوقة تحت غطاء القمع.

اليوم وبينما أنا أنظر إلى الشمس وهي تغيب خلف الجبال الداكنة الخضرة، جالساً على سارية في حظيرة الخراف وسط الوحدة والعزلة، راودني شعور آخر. تسلل إلى أفكاري وراح يدغدغها. اليوم، لقد رأيتك أخيراً! ألم تكن إرادة السماء؟ طوال هذه السنوات نسيت كل النساء اللواتي عرفتهن. «هان يوبينينغ»، «ما ينغوا» ـ عرفت أني لن أراهن ثانية ولم أضيع الوقت في التفكير بهن.

ولكني تذكرتها هي. وفي كل مرة كانت تراودني الشكوك وأتساءل هل أن ما حصل قد حصل حقاً؟

هل أني حظيت حقاً بلحظة سحرية في حياتي؟ كان قلبي قد

جفا وقسا من قلة الاستعمال ومع ذلك تركت فيّ رؤيته تلك أثراً لا يمحى. ولغاية اليوم، كنت أشعر بالإثارة تجتاح مشاعري كلما فكرت بتلك الصورة، بخطوط ذلك الجسد العاري الرائع.

أثارتني تلك الصورة مرات لا تحصى وأشعلت في داخلي توقاً كبيراً فأدركت أنه بالرغم من القشرة الخارجية التي تحيط بي على شكل سجن أسود أو أزرق أو امتداد خضار كنت لا أزال إنساناً في داخلي. بالرغم من أننا كنا نعيش في مجتمع يجهد لخنق الفردية، احتفظت على الأقل بقدرتي على التمييز بين الجنسين. حركاتها الجبارة تلك ونداؤها الصامت الشجاع، تركت في أثراً كما الاغتصاب. لم تكن لديّ الشجاعة لأواجهه بيد أنه لازمني وبقي في داخلي: وبالرغم من أنني كنت أصبحت في التاسعة والثلاثين ومازلت بتولاً، فإن عذريتي فقدتها في تلك اللحظة بالذات.

كل عناقات الماضي الدافئة بعثرتها في لحظة ذكرى جسدها المرتعش. بدأت أشعة الشمس الحمراء تتسلل من وراء غيوم الصباح الخوخية اللون. بعد ما حصل لي أدركت أني كلما سأفكر في امرأة لن أفكر إلا بها. لقد ضاعت براءتي في جسدها ولم أكن لأصدق إنها دخلت حياتي منذ تلك اللحظة. عرفت أني سوف أراها ثانية من دون أن يكون لذلك أي تفسير منطقي. والآن ها هي أمامي. كل الأمور التي تحصل مرتين في الحياة لا بد وأنها تحمل دلالة ما: لا بد أنه القدر.

بيد أني أدركت أن رغبة فجة لطالما استحوذت على كياني لأني لم اعتد إشعال عواطفي وتأجيجها. عندما تتبدل حياة المرء، تتبدل معها طريقته في الحب، هدفه من الحب، وتصوره للحب.

تماماً مثل «دامبو»، كنت مأخوذاً في متاهة لاخلاص منها. من جهة كان يناديني صوت المنطق الذي تتحكم به قوة الثقافة، ومن جهة أخرى كان يلحّ عليّ شعور بدائي يفتقد المنطق ويتوق إلى اختراق حياة أخرى، وجسد حي آخر. لم يكن مهماً من تكون طالما أنها كانت تستثير الذكر في داخلي.

تتشتت غيوم المساء الرقيقة...

بينما كنت أمج دخان سيجارتي الأخير، تعالى صوت المكبر في الأسفل. كانت تلك الآلة الحديدية الرمادية اللون، الفاغرة فمها الأسود، الصلة الوحيدة بيننا نحن المزارعين وبين العالم الخارجي.

كان المكبّر يردد النغمة عينها يومياً ويؤكد في كل مرة أن العالم توقف في مساره.

الوقت كان وحده يتسارع وبالتالي فإن وظيفة المكبّر الرئيسة كانت الإعلان عن الوقت: حان الوقت للتوجه إلى المائدة وتناول العشاء.

وقفت ولففت فراشي وحملته على كتفي. لم أنتظر وصول الرجل الذي سوف يحل مكاني. تأكدت من إغلاق باب الحظيرة. ما همّني ـ حين أنتهي من تناول عشائي، سوف أذهب للبحث عنها.

3

كنت أنهي طعامي جاثماً على باب المائدة. وحين فرغت من صحن الأرز تأبطت الوعاء الفارغ ووضعت، باليد الأخرى، فراشي على كتفي وتوجهت إلى المهجع حيث اعتدت الإقامة. ولجت باب المهجع وفلشت فراشي على سرير فارغ.

«ماذا حصل لهذين الاثنين؟» سألت «زو رويشينغ» بينما أجول بنظري إلى الأسرّة الخالية. كان «زو» جالساً القرفصاء على سرير مجاور: «لقد تزوجا ورحلا ـ نحن الأعزبان الوحيدان المتبقيان هنا». ارتسمت على وجهه ابتسامة متزلفة ومذعنة بينما راح وجهه الرقيق ينظر إليّ من وراء آلة الإيد ـ هو(*) التي كان يعزف عليها. وحده فم صغير دقيق كهذا كان قادراً على رسم ابتسامة مماثلة.

أعدت له الإطراء قائلاً: «على الأقل ليست لدي والدة عجوز مثلك. حالتك أسوأ بكثير من حالتي. لديك من تعود إليه وتستطيع ذلك».

(*) آلة عزف صينية بوترين يعزف عليها بواسطة قوس خاص.

من دون أن يجيب، عاد يحمل آلته التي كان وضعها جانباً وراح يعزف لحناً بعنوان «نهر ليوانغ». كان يجيد عزف تلك النغمات الحزينة المفعمة بالمشاعر والأحاسيس. بيد أن «زو» لم يكن يعزف إلا لحن «نهر ليوانغ». كان «زو رويشينغ» ما يطلق عليه في السجن لقب: «لوازم فائضة». كان يعمل في البلدة كمسؤول عن فريق المؤن في «قسم الإنشاء الزراعي» إلى أن حل العام الذي احتاجوا خلاله إلى عدد كبير من «أبالسة الأبقار والأفاعي» ليملأوا بها السجون. في ذلك العام، جلبوا أناساً من كافة المناطق وكنت أنا أيضاً سجيناً معه.

بعد ذلك، حين أفرغت السجون، عاد جميع «أبالسة البقر وشياطين الأفاعي» إلى ديارهم، بعضهم إلى وحداتهم وبعضهم الآخر إلى مراكز رسمية. وحده «زو» لم يطلق سراحه. كان وضعه لا يزال ملتبساً وقد مضت عليه سنوات عديدة وهو يعيش معنا نحن العازبين في المهجع.

كان صوت آلته يتردد في أرجاء غرفتنا، بين جدرانها الترابية الأربعة. فلشت فراشي وتمددت عليه ورحت أراقب فمه المسنن ولحيته الخفيفة المسننة هي أيضاً. هبط الليل تدريجياً وراح وجهه يتوارى في العتمة إلى أن استحال مجرد ظل أسود. ولم يتبق سوى ألحان «نهر ليوانغ» وهي تتساقط من أصابعه وتحاول الهروب من خلال شقوق الغرفة المنعزلة. كانت الغرفة موحشة، كانت الموسيقى موحشة، حتى الهواء كان موحشاً هو الآخر. فجأة تعرفت إلى ما كان يعزفه: كلمات تشيد بقائدنا العظيم وقد وضعت خصيصاً للموسيقى لكنها كانت في الأصل أغنية شعبية مغولية. كانت نغماتها الحزينة لا توحي إلا بالألم والكآبة.

جلست على السرير وسألته بلهجة اعتذارية: «هل تفكر بديارك؟»

في العتمة لم أكن أرى سوى عينيه المحدقتين في الحائط أمامه أو في الموسيقى أو لربما في شيء آخر أو إنسان آخر. بعد قليل، وضع آلته جانباً بكثير من التأني وقال: «من ذا الذي يفكر بدياره؟ أنا بكل بساطة تعبت من العيش».

لم يكن لأحد الجرأة على البوح بشيء من مشاعره إلا في إطار أغنية ثورية كهذه، مثلما يستعمل «سجين حر» سيارة عامة لينقل به مقتنياته إلى الداخل.

لو أنه قد تجرأ على إطلاق كل مكنونات قلبه أمامي لكانت نشأت بيننا في تلك اللحظة بداية علاقة صداقة متينة.

كان يمتلك ثقافة لا بأس بها وقد تخرج في الأكاديمية العسكرية K.M.T وأظهر تمكناً فريداً من الدراسات الكلاسيكية. لم أسمعه مرة يتكلم عما يجول في خاطره وفي الواقع نادراً ما سمعه أحدهم يتكلم على الإطلاق.

في إحدى المرات، ارتكبت خطأ أمامه حين أطلقت على مهجعنا المشترك لقب «لجنة العازبين» ما أثار في «زو» رعباً يفوق الخيال. أخذني على حدة وراح يهمس في أذني قائلاً: «ماذا تعني يا «زانغ» بلجنة العازبين». أوتدري لو وصل هذا إلى مسامع القادة لسوف ندفع الثمن غالياً. إن أكثر ما يثير استفزازهم هو التنظيمات الجديدة أياً كان نوعها. بيد أن شعوره بالبارانويا ذلك لم يضعفه البتة.

وأياً كان نوع ذهانه فإن ذلك لم يمنعه من كتابة «استئنافه»(*)

(*) رسالة «استئناف» توجه إلى القادة لطلب إعادة التأهيل وإعادة النظر في قضية تمّ تدبرها بشكل سيىء.

وكان غالباً ما يجلس إلى جانب الحائط ويروح يخط بيد رشيقة حروف رسالة رسمية.

رسالة «استئناف» توجه إلى القادة لطلب إعادة التأهيل وإعادة النظر في قضية تمّ تدبرها بشكل سيىء.

«ماذا عنها؟ ألم تلق أي رد؟» تلك الموسيقى الحزينة كانت أثارت فيّ شعوراً بالتعاطف معه: «لقد عدت من فصل شتاء كامل أمضيته في الجبال وتوقعت أن أجدك قد غادرت إلى ديارك منذ زمن بعيد. لا يبدو أن كل تلك الرسائل أجدت نفعاً».

«هذا ليس صحيحاً» أجابني بلهجة جدية صارمة!» لكانت أجدت نفعاً بلا شك لو أن المسؤولين في القمة قد رأوها. لكن هناك من في الوسط يعمدون إلى سد الطريق في وجهها. يجب أن تفهم بأني رجل قام بمآثر تستحق الاحترام».

«هل قمت حقاً بمآثر تستحق الاحترام؟» سألته بفضول كبير «ما هي تلك المآثر؟ أو تعني أنك شاركت في القتال مع جيش التحرير؟»

«لا، لا، أنت لا تفهم». تمدد على ظهره والكآبة تغمره وراح يستعيد ذكريات قديمة». حين انطلقت الشرارة الأولى للثورة الثقافية الكبرى، كنت ضمن مجموعة المركز الرئيس أوضب المعلومات وأتلقى دروساً مع الآخرين. وكنت أعمل على تأمين معظم ما كان يحتاجه الجنود في تلك الثورة...»

فهمت قصته في ما بعد. كان أعيد تأهيل أحد الثوار من جنود أكاديمية الـ K.M.T وكان «زو» قد سرّب عنه «معلومات معينة» وتولى هذا الجندي إحدى المراكز السلطوية وهو الآن يعمل على الحؤول دون تحقيق «استئناف زو».

كانت «للمآثر الجديرة بالاحترام» انعكاسات سلبية عليه. وعلى غفلة منه، خدعته الأحداث المتقلبة. «ولكنك رغم ذلك لا تنفك عن الكتابة. اكتب. اكتب كثيراً ـ لا بد سيأتي يوم يقرأ فيه الذين على القمة ما كتبته. لا بد سيأتي يوم تعود فيه إلى ديارك». قلت له ذلك محاولاً أن أواسيه بينما رحت أقول لنفسي: «ها، ها! ابق منتظراً إلى ما شئت».

قفزت من السرير وخرجت لأتمشى قليلاً. لقد التقيت في حياتي عدداً من الناس الذين كانوا يمتهنون نقل المعلومات والوشاية ـ «رئيس إدارة» هذه الفرقة كان أحدهم وها أنذا ألتقي آخر. بيد أن «زو»، على ما يبدو، تخلى عن هواية نقل المعلومات في الوقت الراهن وكرّس نفسه كلياً لكتابة استئنافه.

في البدء أوقع الآخرين في الشرك وها هو الآن مضطر للدفاع عن نفسه. هذا أيضاً كان نوعاً من «قدرية الإنسان»!

كان الليل المظلم ينشر في الجو رائحة نتنة تنبعث من مجرور مجاور. هل يا ترى سيتبدل حال الطقس؟ ولكن الرائحة النتنة كانت ممزوجة بعطر أزهار الزيتون البرية وكان هذا العطر وكأنما يتغلغل مباشرة إلى الأحشاء. إن الربيع قادم لا محالة.

كانت غرفتها مضاءة بمصباح كهربائي متوهج ينشر نوره بانتظام. دخلت الغرفة وأغمضت عيني نصف إغماضة في الضوء الذي لم أعتد مثيلاً لتوهجه. «ماذا أنتما فاعلتان فوق؟ أو تلعبان «الشطرنج الصيني؟»(*) رفعت رأسها لتحييني وضحكت ضحكة

(*) الشطرنج الصيني: لذة محرّمة.

خافتة: «من يلعب الشطرنج؟ أنا أساعد السيدة العجوز «ما» في كتابة «رسالة الاستئناف» خاصتها».

كانت المرأتان تجلسان الواحدة في مواجهة الأخرى ورأساهما منحنيان فوق طاولة خشبية عليها ورقة بيضاء، ولاحظت أنها كانت تحمل في يدها قلماً. «لاوزانغ، الآن وقد أتيت أرى أنه من الأفضل أن تكتبها بنفسك». قالت السيدة العجوز «ما» وأضافت: «أنت متعلّم».

«أعذريني ولكني لم أكتب في حياتي رسالة استئناف لأياً كان» أجبتها. «إذا كنت ترغبين في الزواج بوسعي أن أكتبها من أجلك وأؤكد لك أن طلبك سوف يلقى آذاناً صاغية».

«أيها العفريت» أجابتني وهي تصرخ: «أنا أتزوج؟ من ذا الذي أتزوجه؟ أو تظن أنني جننت؟».

أجبتها ضاحكاً: «زو رويشينغ»، لقد هربت زوجته مع رجل آخر وأخشى أنه لم يعرف بعد بالأمر. لسوف تشكلان معاً ثنائياً رائعاً ـ إنه يكتب «رسالة استئناف» هو الآخر».

ارتسمت على وجه السيدة العجوز ابتسامة عريضة. «أيها المحتال لم تكن يوماً طبيعياً. يا صديقي الشاب إنه لسانك هذا الذي لطالما تسبب لك بالمتاعب».

«أنت مخطئة بهذا». جلست بلا تكليف على سرير السيدة العجوز. ذلك السرير كان في الجهة المعاكسة للمكان حيث كانت تجلس. «هذا الرجل الذي أمامك لطالما كان طبيعياً ومستقيماً، بيد أن الناس اليوم يعتبرون الأمور الجدية مجرد دعابات ويصدقون الكلام المجنون. على أية حال إن جميع التهم التي استخدموها لإدانتي في المرات الخمس الأخيرة لم تكن بسبب شيء قلته، ولكن

بسبب ما كتبته. أو تسأليني بعد أن أكتب عنك رسالة استئناف؟ أخشى أنني كلما كتبت ازدادت الأمور سوءاً ـ وفي نهاية المطاف قد يعيدونك إلى السجن من جديد».

حين كانت السيدة العجوز في الثامنة من عمرها، باعها أهلها إلى إحدى العائلات في «شاندونغ» لتكون عروساً طفلة. وكان مضى على عملها هناك ثماني سنوات حين جاء التحرير. كان زوجها يكبرها بعشر سنوات، وفي غمرة الفوضى القائمة آنذاك اختفى وتوارى عن الأنظار. لحظها مدير «لجنة المزارع الفقيرة» وأعجب بها بيد أن العروس ذات الستة عشر عاماً رفضت بغباء حسن طالعها. وهذا الرفض أشعل في داخل العاشق رغبة جامحة بالثأر وانتظر لغاية العام ١٩٥٨ حين تقدمت له فرصة ذهبية للانتقام منها أثناء الثورة.

روّج عنها أنها من مالكي الأراضي وألبسها قبعة(*) تشير إلى تهمتها هذه. فاضطرت للهروب إلى هذه المزرعة الحكومية لتعمل في الزراعة في هذه المنطقة الجبلية المعزولة. وأثناء هروبها راح يطاردها أيضاً بالمناشير التي تطلب إلقاء القبض عليها.

أثناء «حركة التربية الاشتراكية» في العام ١٩٦٣ تمّ القبض عليها أخيراً. فصنفتها إدارة المزرعة كـ «مالكة أرض لاجئة» وحكم عليها بعقوبة ثلاث سنوات. وبالرغم من أنها أنهت فترة عقوبتها

(*) ثمة عادة كانت رائجة آنذاك وتقوم على إلباس «المجرمين» قبعة المغفل الورقية وإجبارهم على الاستعراض في الشوارع وهم يغنون جرائمهم، واعتمار القبعة تلك كان يعني تجريد الفرد من كل حقوقه المدنية وبالتالي يتم نبذه من المجتمع. كانت توكل إلى كل معتمر القبعة الورقية أوضع الأعمال ويعطى أدنى الرواتب. عائلته أو عائلتها كان يتم نبذها أيضاً ولم يكن يسمح لأولاد «المجرمين» بالذهاب إلى المدرسة وغالباً ما كان يدفع زوج أو زوجة المعتمر قبعة إلى الطلاق من زوجه.

منذ زمن بعيد وأُطلق سراحها، كانت لا تزال تعتبر «عنصراً مالكاً» والسبب الوحيد الذي كان يدفعها لكتابة رسالة الاستئناف هو رغبتها القوية في انتزاع تلك «القبعة» المزعجة عن رأسها، ورغم أنها كانت أخبرتني في الماضي أن رئيس «لجنة المزارع الفقيرة» قد تولى منصب أمين سر الحزب التابع للكوميون الذي كانت تعيش فيه، وبالتالي فإن إعادة النظر في قضايا بلدتها كان عليها أن تمر بالضرورة عبر الحكومة المحلية: ألم يكن ذلك كمن يرمي رسالة الاستئناف في سلة النفايات؟ على الناس إلا يتخلوا عن الأمل طالما هم على قيد الحياة. لم يكن قلبي ليطاوعني على إطفاء جذوة الأمل في أعماق الناس وما كان لي إلا أن أشاركهم الضحك والمزاح.

«عليك أن تكتب أنت أيضاً رسالة استئناف يا «لاو زانغ». أنظر إلى نفسك لقد شارفت على بلوغ الأربعين من عمرك. لو تمّ إعادة تأهيلك فسوف يصبح بمقدورك أن تعلّم في مدرسة». نظرت إليّ السيدة العجوز وكانت تتكلم بجدية بالغة.

يعتقد الناس دائماً أن ما يحبون هم التهامه من طعام على الآخرين أن يحبوه أيضاً، فيحاولون بكل ما بوسعهم إقناع الآخرين باختبار مآكلهم المفضلة.

سحبت السجائر من جيبي ونظرت إلى وجه السيدة العجوز. أي وجه كان ذلك الوجه! كانت تكبرني بأربع سنوات لا غير ولكن كل يوم قد عاشته كان ترك أثره على وجهها.

ولم يكن عجيباً أن الرجال، حتى السبعينيين منهم، كانوا ينادونها بالسيدة العجوز «ما».

«عودي إلى ديارك!» رحت أفكر في نفسي «عودي إلى مسقط

رأسك بكل بساطة! إن وجهك هذا لهو أفضل رسالة استئناف يمكن للمرء أن يكتبها!»

دعي مسؤول اللجنة، ذلك الذي صار أمين عام الكوميون، يتفرس في وجهك هذا واسأليه «هل ما زلت قادراً على التعرف إلى الفتاة التي اشتهيتها يوماً؟ لو أنه لا يزال يحتفظ بذرّةٍ من الضمير الحي لسوف يعيد تأهيلك على الفور. بيد أنه ليس مؤكداً أن ذلك النوع من الرجال يحمل في داخله ذرة من الرحمة».

في جميع الأحوال، هي لم تفقد الأمل. ليس الأمل في إنقاذ نفسها فحسب بل إنها كانت تنشر الأمل من حولها حتى يستمتع به الآخرون أيضاً.

تلك الطيبة المتوارية وراء تجاعيد وجهها كانت تضفي على ملامحها إشراقة الفتاة ذات الستة عشر عاماً التي كانتها يوماً.

«إن قضيتي مختلفة عن قضيتك» قلت لها وأنا أشعل سيجارة «أولاً كنت «يمينياً» ومن ثم «معارضاً للثورة» لا أعرف بماذا يجدر أن أباشر في إبطاله، بينما أنت لو توصلت إلى انتزاع «قبعة المالك» من على رأسك، فلسوف تسير أمورك على أحسن ما يرام. اكتبي، اكتبي، لا بد سيأتي يوم تزول فيه كل همومك». تمنيت لها كل الخير الذي تستحقه. «آه» قالت وهي تأخذ نفساً عميقاً «لسوف يكون الأمر رائعاً لو أُزيل كل هذا عن كاهلي».

إن أيام اعتمار «القبعة» لهي قاسية للغاية». التفتت إلى «كزيانغجيو» وسألتها: «إلى أين وصلنا في تلك الرسالة، ١٩٦٣؟...»

«مهلك لحظة» أجابت كزيانغجيو وهي تضع قلمها على الطاولة. أسندت ظهرها إلى الحائط وقالت «لدينا ضيف، فلندع

هذا جانباً لبعض الوقت».

«آه، أجل، أجل» أردفت السيدة العجوز «ما» بلهجة اعتذارية «أوترين، لم أكن أفكر إلا في نفسي. سوف أترككما وأخرج لأفتش عن بعض الحبر».

انسحبت السيدة العجوز وهي تدرك أن لانسحابها دلالة ما. كانت لتلك المرأة نظرة ثاقبة، بيد أنها لم تقدّر حظوة مدير «لجنة المزارعين الفقراء» وكانت النتيجة...

انتشرت رائحة أزهار الزيتون البري وانسابت إلينا من النافذة وشقوق الباب. في المهجع كان كل شيء وكأنما يرغب في الخروج، أما في هذه الغرفة فكان كل شيء وكأنما راغب في الدخول إليها.

سألتها: «لماذا لا تكتبين أنت رسالة استئناف؟»

«لا جدوى من ذلك». أجابت «من ذا الذي يستطيع أن يزيل آثار ما هو مرتبط بالمشاعر؟ إذاً لم أكن أنا المخطئة، فإن اللوم يقع على الآخرين. وبما أني قمت بالأشغال الشاقة، وهذا واقع، فما الجدوى من إثارة الموضوع مجدداً. على أية حال، حتى ولو أعادوا تأهيلي فكيف لهم أن يعيدوا إليّ تلك السنوات الثلاث الضائعة؟» لم يكن ثمة ما أجيب به على ذلك السؤال. هي كانت على دراية بحيثيات الموقف أكثر مني.

كانت ترتدي قميصاً أبيض مفتوحة أزراره على عنقها، وكاشفاً عن مثلث البشرة فوق ثدييها. كانت بشرتها لا تزال عاجية.

ولم يكن على الناظر إليها أن يلمسها ليعرف مدى نعومتها ودفئها... ارتسمت على وجهي ابتسامة صغيرة.

«في الواقع أنت من يجدر به كتابة رسالة استئناف». قالت: «إبدأ من مشكلة «اليمينية» فإن كل الأمور انطلقت من هذه النقطة بالذات. ولو تمت إعادة تأهيلك كما قالت السيدة العجوز «ما»، فسوف يسهل عليك أن تمتهن التعليم..»

«لا، وتحديداً لأني لا أرغب في العودة إلى مشكلة «اليمينية» تلك، فأنا لا أنوي القيام حتى بمحاولة».

«وإلى متى سوف تبقى منتظراً؟»

أشحت بنظري عن ذلك المثلث ورحت أحاول التفكير بكيفية إجابتها.

«قد لا تكون على علم بالأمر قالت إن «دينغ زياو بينغ» قد تمت إعادة تأهيله».

«آه، حقاً؟ إنها لأخبار مفاجئة وسارة. لا عجب في أن الجميع بدأوا فجأة بكتابة رسائل الاستئناف. هل هذا حقاً صحيح؟»

«بالطبع. لقد خرج وعاد إلى العمل».

كان هذا على الأرجح ما أرادت إطلاعي عليه خلال النهار! خبر كهذا كان ليعلن أمام الجميع. لا شك أن الناس قرأوه في الصحف أو سمعوه في المكبرات أو في الراديو. ولا بد أنه قد ورد في عشرات أو مئات الملفات التي تصدرها الحكومة المركزية. كانت هذه بلدة نائية، قرية يجتمع فيها المنبوذون في أحضان طبيعة غير مبالية. وفي الواقع كانت أخبار القضايا الوطنية الكبرى تصل إلى هذا المكان شبيهة بالكتابات الهيروغليفية وسلسلة من الرموز الغريبة: كان هذا ما تبدو عليه، بيد أن ذلك لم يكن كل شيء. كان على الواحد أن يصل إلى حقيقة تلك الأخبار من خلال المتاهات المحيرة التي تحيط بها من كل جانب. والناس الذين قُدِّر

لهم أن يكونوا خارج السلطة يعجزون عن إدراك حقيقة الأخبار. كانت أعلى المراتب الحكومية تحاول جاهدة أن توصل الأخبار إلينا تماماً كما تمرر عصا بين أيادٍ لا تحصى. وحين تصل تلك الأخبار إلى القرية كانت أشبه بأشعة الشمس المنعكسة التي زارت القمر وعادت منه قبل أن تصل حياتنا وبالتالي فإن حواسنا كانت بالكاد تلتقط انعكاساتها المشتتة.

في هذه القرية كانت كل أنواع الأخبار ترافقها كمية كبيرة من التحليلات حول دلالاتها، بدءاً من الأخبار الرئيسية كتلك المتعلقة مثلاً بتوزيع حصص الحبوب، وصولاً إلى الأخبار الصغيرة التي تفيد، مثلاً أن أمين السر قدّم سيجارة لأحدهم.

ولذا فإن الفهم المنطقي للأمور خارج إطار البحث. وفي النهاية كان على كل منا أن يعتمد على غرائزه وبالتالي فإن كل شيء كان ليوضع في إطار الظواهر فوق الطبيعية: النيازك، الهزات الأرضية، الأجنّة الغريبة، الأطفال الشُّعر وكل ضروب الظواهر غير الطبيعية كانت لتتساوى مع الحرب الفيتنامية، زيارة «سيهانوك» للصين، والمقال بالأحرف الكبيرة عن «ياو وينويان»، والتشريفات الديبلوماسية والعسكرية إضافة إلى كل الإشاعات النافذة من الأزقة والدروب. كل ذلك كان يلعب أدواراً متوازية التأثير على حياتنا. كان المذهب الذي يؤكد على عدم تمييز «الوحدة بين الإنسان والطبيعة» منتشراً على نحو عنيف غير مكبوح: كنا قد عدنا إلى العصور المظلمة.

كنت أحاول أن أفهم منطق الأشياء بالعودة إلى كتب الفلسفة والسياسة والاقتصاد، وما في هذه الكتب كان واضحاً، وهذا ما شكل دعماً حيوياً بالنسبة إلي لكي أبقى على قيد الحياة، ولكنه

أيضاً كان بمثابة لاقط لكل أحاسيس الروح وكل ما تحدس به. ولكني ما إن كنت أتواجه والواقع، كان كل شيء يستحيل شواشاً. وسرعان ما تأخذ الأخبار المنقولة شكل خطوط متعرجة، وتغرق في اعتباطية فظيعة فتبدو وكأنما تفلتت من كل التقاليد وعبرت إلى ما وراء حدود الحدس أو البديهية.

كان الأمر أشبه بتشويش تصدره الطائرة لتربك الرادار المقتفي أثرها.

تلك الأخبار الأخيرة كانت خارجة عن المألوف وكان حدسي قد أوحى لي أن الأمور كانت تتغير بسرعة في الخارج. وكما الدخان العابر في تلافيف السيجارة، كان تيار من الحرارة يعبر في عروقي وشراييني. لقد انقلبت السفينة ولا يهم إذا ما كان مقدمها غرق أولاً أو مؤخرها. المهم أن أحدهم نجح في ارتقاء سلالم النجاة والعودة إلى متن تلك السفينة الرائعة ليتسلّم مسؤولية قيادتها. وأول ما عليه القيام به هو إصدار الأوامر بعملية إنقاذ سريعة. أما عن الوجهة التي ستختارها السفينة في ذلك البحر الواسع، بعد أن يتم إنقاذها، فهي مسألة تتعلق بالمستقبل: كان عليها أن تتريّث إلى أن يتم سحب من في المياه وإعادتهم إلى متنها.

راحت عيناها تسائلان عيني وتنظران إلي بدهشة.

إن عيني امرأة لا تشبهان عيني خروف، بيد أن فيهما الخنوع عينه وكذلك الشكل والذعر والتردد.

ماذا عساني أقول لها؟ كان الوقت لا يزال مبكراً على تفسير أي تصريح قد يشوبه بعض الغموض، وحتى ولو احتوى على شيء كثير من الحقيقة فإن المتاهة كانت أصعب من أن يلجها أحد. لم أكن من النوع الذي يرغب في إغراق السفينة، إضافة إلى أن عدداً

كبيراً من الناس كانوا لا يزالون في المياه ويتمنون لو يغرق الجميع معهم.

همي الوحيد أن أكون على متن السفينة! جلّ ما أردته هو أن أعود إلى متنها، فأجفف ثيابي وأنظف جروحي وأمدد أوصالي الأربعة تحت الشمس الدافئة. ثمة شيء آخر كنت أريده؛ كنت أضمر أملاً وأخبئه عن الجميع. كنت أبغي المساهمة في تحديد مسار السفينة. إن تجربة الأعوام الثمانية عشر الأخيرة أوضحت لي أمراً مهماً: بإمكان شخص واحد أن يتسلم دفة السفينة ولكنه غير قادر بمفرده على التوجه بها إلى حيث يريد. ولكن هل كان بوسعي أن أقول لها كل هذه الأمور؟ كان نور المصباح المتوهّج مزعجاً. طوال الشهور القليلة الماضية، لم يكن في حظيرة الخراف سوى نور مصابيح الكيروسين التي يعود طرازها إلى القرن الماضي. وكنت أحب الدفء الذي كانت تبعثه في وسط العتمة. في العتمة كان بوسعي أن أدع خيالي يرسم لي همسات رقيقة تلطّف من وحدتي... وها أنا الآن، أجلس بمواجهة امرأة تنبض بالحياة. هي كانت تجلس قبالتي بلحمها الحي! تتحدث إليَّ بصوت مفعم بالرقة والود، ونبرات هذا الصوت كانت لتعبّر عن المعاني الضمنية أكثر من الكلام نفسه. فجأة، تنبّهت إلى دلالة مسألتي النور في عينيها: لم يكن في الغرفة سوانا وأحدنا كان رجلاً بلا امرأة والآخر كانت امرأة بلا رجل. ألم يكن ثمة ما نتحدث عنه غير رسائل الاستئناف وإعادة التأهيل. لم يكن في عينيها الشك والسؤال فحسب، بل كان ثمة فيهما أيضاً ومضة أمل وبعض من الاذعان. كانت وكأنما قد اتخذت قرارها وهي تنتظر أن أقوم أنا بالخطوة الأولى، كما لو أنها هيأت نفسها لكي تستسلم لهجومي المفاجىء.

جلست على السرير في جهة من الغرفة، وجلست هي على سرير آخر في مواجهتي. كانت تفصل بيننا مسافة من الأرض الترابية السمراء يبلغ عرضها أقل من مترين وكانت هذه المساحة أشبه بخط التحدي في لعبة الشطرنج. إذا ما اعتبر اللاعب أن من على الجهة المقابلة لا يمكن قهره فإنه سوف يصبح كذلك، أما إذا اعتبرت العكس فإن قوة الآخر سوف تضمحل في لحظة وتختفي بلمسة من أصبعه. كان الوقت يمر في صمت بليد. ارتسمت على وجهها ابتسامة صغيرة، غريبة وغامضة. ذلك النداء الصامت الشجاع، الطالع من غمرة الوحدة، راحت تتردد أصداؤه بيننا من جديد. بالرغم من أنها كانت ترتدي كل ثيابها، كانت خطوط جسدها واضحة تحت قميصها. بان جسدها العاري أمام عيني من جديد.

إن شغف السياسة يتدفق من منبع الشهوة نفسه؛ كلاهما تفرزه الغدد الصماء وكلاهما يدفع المرء لكي يهجر ذاته، ويندفع بشجاعة وجنون وإصرار بغية تحقيق السعادة من طريق التضحية بالذات. هذا النهار كان حافلاً بالأحداث السعيدة ـ كيف لكل تلك الأحداث أن تجتمع معاً؟ كان نهاراً جديراً بأن أحتفل به وكنت أشعر أني أصبحت نصف طليق. ارتسمت على وجهي ابتسامة غريبة غامضة. كنت على يقين بأنها قادرة على الفهم: تماماً مثلما كانت قادرة على قراءة ما في عيني رجل، كان بوسعها بالتأكيد، أن تعرف ماذا يدور في رأسي. تدفق ذلك الإفراز الغدّي الملون عنيفاً؛ كنت كالسكران. راودني شعور بالخشية من حظي السعيد وكان كنوع من التنبه الهذياني. شعرت مجدداً بعطش وجفاف في لساني، تماماً كما كان حصل لي آنذاك وسط القصبات...

وبينما رحت أهيىء نفسي لأقول شيئاً، لأفعل شيئاً، فتحت السيدة العجوز «ما» الباب: «بحثت في كل مكان ولم أجد شيئاً». راحت تتفرس بوجهينا وأردفت: «إن الحياة صعبة جداً، حتى لإيجاد بعض الحبر لكتابة رسالة استئناف، علينا أن نتكبد جهداً كبيراً».

«حاولي البحث في المكتب» أجابتها كزيانغجيو بإلحاح.

«لا بد أن يكون لدى المحاسبين بعض الحبر».

«أجل، سوف يكون الأمر رائعاً!» تظاهرت السيدة العجوز بالخوف وأردفت: «سوف يبادرني أمين السر كاو بالقول: «أنت، تكتبين رسالة؟ ليس لديك أقارب تراسلينهم ولا حتى أصدقاء، وتقولين أنك تريدين كتابة رسالة؟ أخشى أنك قد تودين كتابة شكوى ضد قائدك!»

ضحكنا جميعاً ما كسر الجليد بيننا بينما ارتسمت على وجهها سذاجة ابنة الستة عشر عاماً.

«أنتما على حق في النهاية» قالت. «لن يؤثر فيك رد الاعتبار ما لم توله أهمية قصوى». عادت لتجلس إلى الطاولة الخشبية والتقطت شيئاً تخيطه ثم بادرتنا بصراحة متناهية: «أنا لا أمزح الآن، أنتما تشكلان ثنائياً رائعاً».

لم تتفوه كزيانغجيو بكلمة واحدة ولكنها ابتسمت قليلاً. نية السيدة العجوز كانت طيبة بيد أنها كانت متلهفة وغير صبورة.

«أعتقد أنك تلمحين إلى أن أياً منا لا ينوي كتابة رسالة استئناف. ولكنك أنت تكتبين رسالة استئناف، وكذلك زو ويشينغ، أولا تشكلان أنتما معاً ثنائياً رائعاً؟

«لا تكن سخيفاً» وراحت، والإبرة في يدها، ترسم دائرة حول أذنها مشيرة من خلالها أني مجنون.

«أنا أقول الحقيقة. لقد قضى كل منكما عقوبة الاشغال الشاقة، لذا فليس بمقدور أي منكما الاستياء من الآخر، أو الارتياب حول أمره. أنتما في العمر نفسه تقريباً. أنت يا لاو زانغ متعلم، وثقافتها هي ليست بسيئة كذلك ـ لقد أنهت المرحلة المتوسطة على أقل تقدير. ومنذ أن انتقلت لتعيش معي لم أنفك عن التفكير بالأمر. كنت أترقب عودتك من الجبال لأخبرك بذلك».

«هيا، هيا» كانت كزيانغجيو مسترسلة في الضحك: «لن أتزوج مرة جديدة. لقد تزوجت ما يكفي لعمر واحد».

«كيف لك أن لا تتزوجي؟ إن النساء معدات، منذ يوم ولادتهن لأن يصبحن شريكات الرجال. أنا لا أحد يرغب بي، هذا صحيح، ولكن لو رغب بي أحدهم فسوف أتزوج أنا أيضا!

كانت السيدة العجوز «ما» تتكلم بجدية وتعني كل كلمة تقولها.

«ماذا تعنين بقولك أن لا أحد يرغب بك؟» قلت لها» إن مدير اللجنة ذاك كان يرغب بك، ولم تبدأ متاعبك إلا حين رفضته؟

«هذا لم يكن مجدياً قالت بشيء من الغضب «كان متزوجاً» ولديه ابن. لو لم يكن لديه عائلة لكنت ذهبت معه. هو لم يكن بالشخص السيىء على الإطلاق ـ كان طويل القامة، وسيماً، مناسباً لأن يشغل وظيفة رسمية.

تلك «القبعة» التي جعلني أعتمرها، كانت بقصد تحطيم كبريائي ليس إلا».

بدا وكأنما كانت لا تزال تحبه. لقد شرّدها من منزلها وقريتها، وتسبب لها بعقوبة ثلاث سنوات من الأشغال الشاقة! سألتها، «ولكن لماذا أصبحتِ لاجئة أساساً؟»

«أساساً لم تكن عائلتي تملك ما تقتات به. لم أغادر القرية بمفردي. كنا مجموعة قررنا أن نهرب معاً. لكنني أنا وحدي واجهت هذا الكم من الأسى».

«فكري بالأمر قليلاً» قلت لها «إن مدير اللجنة ذاك عديم الفائدة، كان هو من عمم منشور القبض عليك».

وما كنت أود قوله لها: «كفي عن الهيام به».

«هذا صحيح. ولكن جل ما أراد القيام به هو القبض علي واسترجاعي. كان يريدني أن أعود إليه. من كان ليعرف آنذاك أنه سوف ينخرط في كل تلك الحركات...»

لم يكن ثمة من سبيل للمنطق مع النساء. وبحسب ما قالته هوانغ كزيانغجيو من ذا الذي يستطيع أن يرى الأمور بوضوح حين تكون مرتبطة بالمشاعر؟ نظرت إليها - كانت تجلس ضاحكة بمواجهة السيدة العجوز «ما». ماذا كانت تخبئه هذه الضحكة، أهي الشفقة، أم السخرية، أم التشجيع؟ تشجيعنا على الشروع مجدداً بحديثنا؟

حين غادرت غرفتهما، كان الليل قد امتلأ بالنجوم.

من وسط الظلام بانت امرأة شابة، «مثقفة»، أرسلت من بكين بوصفها «شابة متعلمة تعمل في المناطق الجبلية». كان اسمها هي ليفانغ. كانت تغني أغنية عاطفية عنوانها «أرسل لك وردة»:

إن سعري ليس في الواقع بمرتفع،

جوارب نيلون وملء كيسي خيش ليس إلا.

ولو شعرت برغبة في الاعتذار.

أضف إليها ساعة ذات أرقام رومانية.

اقتربت مني وبادرتني بلهجة رقيقة: «تعال يا أخي إلى منزلي نرتاح قليلاً. ما رأيك بالأمر؟ لقد أمضيت شتاءً كاملاً من العمل الشاق في الجبال...»

«وما عساني أفعل إذا قدمت إلى منزلك في هذا الوقت المتأخر من الليل؟» قلت لها مضيفاً: «سوف أزورك في الغد».

«من الأسهل أن نقوم ببعض الأمور عند وقت متأخر. لقد ذهب رجلي إلى بكين ليزور أنسباءه».

«ألست خائفة مما قد يفعله بك هي - تز حين يعود؟»

«ها، ها! إنه هو بدوره في الخارج أيضاً، كل ما يهمه هو التمكن من جلب بعض المال».

لمعت عيناها كما تلمع عينا الهرة في الظلام الدامس.

«هنا، في هذه البلدة من ذا الذي يأبه بما تفعله؟»

«عودي إلى بيتك ونامي» قلت لها: كان هي - تز صديقاً لي.

كان جريان المياه يقرض على مهل طبقات الجليد في الأعلى... رفعت رأسي إلى السماء وأخذت نفساً عميقاً. هل سأتمكن يوماً من فهم الناس؟

4

كانت قدما لويد زونغكي تتدليان في الفضاء، وهو جالس مباعداً ما بين رجليه على عارضة خشبية لا تبلغ سماكتها أكثر من عرض ذراع رجل، وكان يبغي استخدامها كدعامة أساسية للمطبخ الصغير الذي ينوي تشييده داخل منزله.

ثبّت مسماراً على العارضة وشرع يوازن مطرقته قبل أن يغرزه في مكانه. «لقد عملوا على «تصحيحك» منذ ما يقارب العقدين ولا تزال على هذه السذاجة؟ لو كنت مكانك لما كنت مفعماً بالأمل، وأكثر مما ينبغي». غرز المسمار في مكانه ثم تابع قائلاً: «هلا نظرت إليّ ـ لقد أعيد «تأهيلي» وعدت لأمارس عملاً منتظماً، على بساطته، ومع منزلي هذا بإمكانك القول إني سيد مساحة الأرض الصغيرة هذه خاصتي. ولكن أود أن أسألك، هل لرأيي أي تأثير على مسار الأحداث؟ وشرع يضرب بمطرقته ضربات عنيفة. لم يبد غاضباً فحسب، بل وكأنما راغباً في إيقاظي. في ذلك الصباح مشيت مسافة اثني عشر ميلاً من مركز فرقتنا باتجاه مركز فرقته. كانت الشمس متألقة فذكرتني بالبحر. جئت

إليه أسأله رأيه حول دلالة «الأخبار» ومعناها ـ تلك الكتابات الهيروغليفية وأسأله مساعدتي، علني أتمكن من تلمس طريقي في متاهات المينوطور(*). لم يكن قادني بعد إلى أول المعابر، حين أظلمت الشمس المتألقة.

واصلت شرب الشاي الذي قدمه لي، بشهية كبيرة. كان الشراب قوياً لم أتذوق مثيلاً له منذ زمن بعيد. كان هذا النوع من الشاي قادراً على إزالة كل الشحوم من جسد الإنسان ـ وشعرت أن فنجاناً واحداً منه يكفي ليحولني من حيوان ملتهم للحوم إلى إنسان. لهي الحضارة مدهشة بالفعل. تناهى إلى مسامعي صوت متواتر من وراء ستارة الخيزران التي كانت تسد الباب.

كانت زو شوجون زوجة لويو تقوم بفرم حشوة الزلابية. إن اللحم مع العصائبية يشكل طبقاً وافياً، لماذا يا ترى يصر بعض الناس على ضرورة حشو العصائبية باللحم، ولا يعتبرونه سوى ذلك لائقاً؟ لم أكن معتاداً كل هذا.

كانت تحوط المكان حديقة صغيرة سويت على مستويات مختلفة: تطاولت الخطميات وارتفعت رغم أنها لم تكن أزهرت بعد، ومدت شتول البندورة والفلفل الحار والباذنجان رؤوسها، وبينها كانت الأرض الترابية الصفراء الممسدة وكأنها قطعة سجاد ناعمة. راحت فراشتان بيضاوان تحومان في النور على نحو أعمى، وإلى جانب الحائط انتصبت شجيرة مشمش. تلك كانت حياة منظمة. راودني شعور بأني عدت إلى دياري، رغم أن كل ما حولي كان غير مألوف. مستلقياً على كرسي مطرز المقعد،

(*) حيوان خرافي نصفه على صورة رجل ونصفه الآخر على شكل ثور.

أغمضت عيني بينما تلحّ في داخلي رغبة جامحة بالكلام.

واصل ليو زونغكي إلقاء محاضرته عليّ. «أنا رئيس الفرقة هنا كما تعرف. ولكن هل تدري من الذي اختاروه ليكون أمين سر الحزب ليعمل إلى جانبي؟ سوف أخبرك قصة وتكوّن بنفسك فكرة عن الأمر: تلك المرأة العجوز كانت في الأساس أمينة سر الحزب في مزرعة كينليانغ. حين انطلقت الثورة الثقافية انساق وراءها الجميع بطبيعة الحال، وأدخلت هذه المرأة السجن. بعثت لها ابنتها آنذاك رسالة تقول لها فيها: «أمي، إنهم لا يسمحون لي بالانضمام إلى الحراس الحمر. ويعتبرونك أنت السبب، لذلك أود قطع كل اتصال بك لفترة من الوقت. فلنتظاهر بهذا وأعتقد أن وقتاً قصيراً سيكون كافياً».

ماذا قالت المرأة رداً على ابنتها؟ اعترفت لها بخساسة أنها كانت «خائنة». كتبت لها تفهمها بأنها قررت قطع كل علاقة بها، وهكذا بكل جدية وبدون ذرة من الرحمة وضعت حدوداً فاصلة! أرادت من ابنتها «أن ترافق الثورة إلى نهايتها بكل عزم وإصرار!

ونتيجة لذلك، تحولت الإبنة ذات السبعة عشر ربيعاً إلى مجرمة سفاحة. سمعت أنها حطمت بيديها عظام إثنين من الملاكين المسنين. تأمل، ابنة طلب منها أن تنكر أمها! من هم أولئك الذين تصغي إليهم طفلة كهذه؟ وحدها والدة شيطانية بمقدورها أن تربي طفلة شيطانية كهذه.

تلك هي المرأة التي عينوها أمينة سر المفرزة. سوف أخبرك قصة أخرى وستعرف بنفسك حقيقتها. ثمة مساحات شاسعة خالية في هذه المنطقة، فاقترحت أن يستفيد منها المزارعون ويزرعوها، فتتوافر لهم بعض كميات الطعام الإضافية، حين بدأت الشتول التي

غرسوها تطل برؤوسها من تحت الأرض، أرسلت تراكتوراً وعملت على جرفها كلها. انتابني غضب عارم، قلت لها إن الصين تمتلك أكثر من ٩,٦ ملايين كيلومتراً مربعاً من الأرض، وزراعة بضع شتول إضافية من الباذنجان لا بد ستشكل إضافة إلى الثروة الاشتراكية ليس إلا. لماذا لا تدعينها تنمو؟ فأجابت أن الثروة الاشتراكية هي في جمعياتها الوطنية، وكل ما ينتجه الفرد يصب لمصلحة الرأسمالية النتنة.

ثم شرعت تتلو عليّ جملة من الأقوال والاستشهادات، ولم يكن في وسعي أن أهزمها في هذه اللعبة.

«منذ ذلك الحين ونحن نتقابل، من دون أن نتفوه بكلمة واحدة. أنا أتوجه شرقاً وهي تتوجه غرباً».

فكر ملياً بالأمر يا لاو زانغ. قائد فرقة وأمينة سر مفرزته والعلاقة مقطوعة بينهما. أو تعتقد أنه بوسعنا إنجاز أي شيء وسط وضعية مماثلة؟ نحن لا نعمل حتى على تسوية خلافاتنا، وكل منا يرغب في إلغاء الآخر، ما يعني أننا لن نصل إلى أي نتيجة.

«بوسعي أن أتصور كيف تمكن كزيا وينغ(*) من السيطرة على الوضع».

على الأقل لم تسع تلك المرأة العجوز يوماً إلى «تصحيحي». أنت تعرف أن زياووينغ كان توجه بمركبه ليطوف في أنحاء زونغنانهاي برفقة شخص قام «بتصحيحه»! ما يحاولون فعله يا لاو زانغ، هو أن يضعوا على متن سفينة واحدة مجموعة من الناس لم يتعافوا بعد من صدمة عنيفة تلقوها، إلى جانب مجموعة من

(*) دينغ كزيا ويينغ.

الذئاب الجائعة. ما ستكون النتيجة برأيك؟ أخشى أن المأساة سوف تستمر إلى ما لا نهاية.

توقف عن الطرق للحظات، ونظر إلي من الأعلى. النظرة في عينيه أعادت إليّ ذكرى نظرة الخروف العجوز وكل ما فيها من إرهاق وتشاؤم.

تمطيت، وابتسمت له ابتسامة حزينة. «لقد بدأ عرض المأساة منذ زمن طويل. مضى على بداية عرضها أكثر من ثمانية عشر عاماً. لا أدري إذا ما زال لدى الجمهور الشعور نفسه، ولكن الممثل الذي تراه أمامك أصابه التعب والملل بكل بساطة».

«ما من جمهور في الصين» أجابني باقتضاب.

إن أحد الأطراف يلعب دور «المصححين» بينما يؤدي الطرف المقابل دور الضحايا. ثم بعد فترة تراهم يتبادلون الأدوار. لقد سئمت أنت من أداء دور من يتم «تصحيحهم» ليس إلا. ما رأيك؟ أو ترغب في أداء دور «المصحح» لبعض الوقت؟»

بقامته النحيلة الفارغة الطول، ووجهه المتغضّن، كان يشبه كثيراً شرلوك هولمز، لو أن عينيه البراقتين كانتا أكثر دهاءً وقصبة أنفه أكثر ارتفاعاً بقليل.

كنا أمضينا عامين معاً في السجن نفسه، من العام ١٩٧٠ إلى العام ١٩٧٢. تشاركنا بطانيتي الوحيدة وسريراً واحداً وصحن أوز واحداً. لم يكن «كاو كزوي» قد تولى بعد أمانة سر المفرزة وكان المسؤول آنذاك يعمل على مصادرة كل ما ترسله زوجة «لويد»، حتى عيدان الأكل الخشبية.

مرة، وكنا نرتعد من البرد تحت بطانيتي، أذكر أني قلت له: «أو تعرف، لا أعتقد أن وفاة «لين بياو» كانت لائقة». وأصر على معرفة

البرهان الذي كنت أملكه لقولي ذاك.

«لا برهان لدي، أجبته، ولكن يخيّل إليّ أنه كان من أحد سجناء المخيمات الذين عرفتهم وقد تمّ إعدامه(*) بصورة عاجلة متسرعة. كانت كنيته «مصباح كهربائي بأربعمئة واط» وكان أصلع كمثل «لين بياو» ووجهه يشبه وجه «لين بياو» بكامل تقاطيعه. كان يحاول الحفاظ على شيء من البهجة في داخله، فيروح يسترسل في ضحك جذل. كل مرة كان يكابد فيها الروتين اليومي لـ «كينغ زوي» (الاعتراف بأخطائه وطلب الصفح) كان بدل أن يحني رأسه كما العادة المتبعة، يسنده جانبياً كما لو كان يتأمل في أمر ما.

لقد كتب اعترافاً مطولاً وسمعت أنه كتب، أن أول «انتقاد» وجه إليه كان في العام ١٩٤٢ في ينان(**). وفي العام ١٩٥٧ اتهم باليمينية وفي العام ١٩٥٩ أصبح «يمينياً» وانتهازياً وفي العام ١٩٦٦ أدخل السجن مع جميع من كانوا في «المراكز القيادية الرأسمالية» التابعة لليو دينغ. كتب في اعترافه يقول إنه يجهل كل شيء عن مواقع هذه المراكز وعن أهداف حملاتها وهذا ما استفز «اللجنة الثورية».

نحن زملاءه في السجن، عرفنا أنه لو لم تلصق به هذه الخلفية التاريخية المضخمة، وكانت كمثل حجر الرحى حول عنقه، لكان أعيد تأهيله وصار في عداد الكوادر العالية الشأن منذ ردح من الزمن.

(*) خلال محادثته مع المترجمة أخبرها الكاتب أنه كان مقتنعاً أن هذا السجين كان بالفعل «لين بياو» وليس برجل يشبهه.

(**) كانت تلك الحملة التطهيرية والتصحيحية الأولى الموجهة ضد المثقفين.

جمع لويد أدواته وهمّ بالنزول من على العارضة وراح يتكلم بينما يتلمس طريقه بحذر. «لقد أدركت المرامي الخفية لكافة الأمور» قال مضيفاً: «في الوقت الحالي ثمة أمر واحد يتوجب علينا القيام به، ألا وهو حماية حياتنا الشخصية الصغيرة ـ كأن تشيّد لبيتك مطبخاً صغيراً وتصنع بنفسك بعض الأثاث لمنزلك... أو تعرف أن تلك الأريكة هنالك قد صنعتها بنفسي بواسطة بعض الإطارات. إنها رائعة كما لو كانت أريكة حقيقية، هيا جربها بنفسك».

بوصوله إلى الأرض رأيت أن جسده كان لا يزال رشيقاً، لدناً، رغم أنه تجاوز الخمسين من عمره. «ليس بسيىء أليس كذلك؟» بادرني بعد أن لاحظ النظرات التي رمقته بها. «على كل واحد أن يمضي بعض الوقت في السجن. إن ذلك يحافظ على رشاقتك أولاً ثم إنك تدرك أن الرفاق الحقيقيين هم أولئك الذين قضيت عقوبة إلى جانبهم وليس أولئك الذين عملت معهم في مكتب ما».

أزحنا ستارة الخيزران ودلفنا إلى داخل المنزل. قعدنا على الأريكة التي صنعها بنفسه وشرعت بالكلام: «إن هذه المأساة التي نلعبها يا لاو لويو ليست ناشئة عن الأفراد وحدهم. من الواضح أن الذنب واللوم يقعان على نظامنا».

«بالطبع. ولكن إذا ما أردت تغيير نظام ما، عليك أن توفّق أولاً ما ين العلاقات البشرية». سكب لنفسه بعض الشاي وأضاف «خذ مثلاً على ذلك قرارهم بوضعي جنباً إلى جنب مع تلك المرأة العجوز. نحن لا نتفق على تشييد مرحاض عام فكيف إذا أردنا تغيير نظام بكامله؟» ما إن لمحت في عينيه ما يشبه البهجة حتى بادرته محذراً: «لا تنسَ الجانب النظري من الأمر».

يراودني شعور بأن ما نقوم به في الصين حالياً مرتبط باللينينية أكثر منه بالماركسية.

أنت تعرف أنه كانت للمعهد العسكري K.M.T ثلاثة مبادىء ويطلقون عليها تسمية المبادىء «اليمينية» ونحن لدينا مبادئنا ونطلق عليها تسمية المبادىء «اللينية».

«كيف لك أن تعرف ذلك؟»

إنه جلي وواضح. نحن لدينا بوخارين الذي ابتكر في الأساس فكرة الثورة الثقافية. وقادتنا الكبار يعتقدون أنهم هم الذين ابتكروها، بيد أن بوخارين تقدم منذ زمن بعيد لتسجيل براءة اختراعه في الحركة الشيوعية العالمية. ثم جاءنا دولين الذي لا ينفك يتكلم على قوة الإرادة والعنف والإكراه. ثم لدينا لين الأصلع وهو الأكثر ليناً منهم جميعاً. إن المبادىء اللينية الصلعاء لهي سهلة للغاية: علينا أن نجد شخصاً لنتعبد له».

«من الأفضل لك أن تحترس».

قال ضاحكاً: «لا عجب أنك ملاحق باستمرار! أنت (معارض للثورة) بكل ما في الكلمة من معنى».

في تلك اللحظة، دخلت علينا زو شوجون حاملة طبقاً من الزلابية الساخنة «معارض للثورة ومنحرف يميني سابق» الأجدى بكما الجلوس إلى المائدة لتناول شيء من الطعام!» قالت وهي تضحك ضحكة وردية وترشدنا إلى مقعدينا. «لم تزرنا في منزلنا منذ أكثر من عام يا لاو زانغ، يجدر بك أن تأكل كما ينبغي هذه الليلة». وقفت تراقبنا بفخر وغرور ونحن نحتل مقاعدنا، أكمامها مرفوعة ويداها اللحماوان على وركيها.

ثم عادت إلى المطبخ ووقفت ابنتها تمسك الستارة جانباً لتدخل

علينا من جديد حاملة المزيد من الأطباق الساخنة. بدت على المنزل البسيط المتواضع أجواء مأدبة عارمة. منذ زمن بعيد لم أتبادل أحاديث عقلانية مع أيٍّ كان، مع أني كنت أردد الأشياء نفسها كل ليلة أمام الخراف.

«فلنعد إلى الجانب النظري» تابعت. «نحن في الوقت الحالي نعبث بكل شيء».

حملت عودين مسودين من كثرة الاستعمال، لأقطع بهما الزلابية المحشوة باللحم . لقد روّح الكلام على نفسي فشعرت أني جالس على رأس طاولة مؤتمرات أترأس اجتماعاً بغاية الأهمية. «إن المسؤولية التي تقع على عاتقنا في الوقت الراهن، هي العودة إلى الماركسية الحقيقية. فعلى سبيل المثال، حين رددت لك تلك المرأة العجوز أقوال واقتباسات من ماو، كان بوسعك أن تجيبها بأقوال أخرى للينين. قال لينين إنه ليس بغباء فحسب، بل إنه فعل انتحاري محض، أن نحاول منع التبادل الخاص اللاحكومي بشكل قاطع. إنه لم يمنع حتى التجارة ذات الرأسمال الصغير وكان بالطبع ليسمح بزراعة بعض نباتات الباذنجان الإضافية».

«بالطبع هذا ما ردده لينين منذ وقت بعيد». دمدم لويد زونغكي وهو يأكل.

«أليس هذا ما نقوم به حالياً»؛ التلاعب بالكلمات التي قالها الناس في الماضي؟ أنت تستخدم أقوال واستشهادات القائد لتجاوبني. وأنا أستخدم أقوال الآخرين لأجاوبك. تماماً كما قال ماركس: «إن الموتى يحتفظون بسطوتهم على الأحياء».

اخترت زلابية أخرى. «ليس لدينا الوقت لإبداعات جديدة، إن أذهاننا منشغلة حالياً بكليتها بالتلاعب بالكلام. حتى ولو أردنا أن

نطور اتجاهات جديدة في هذه الأوقات الخانقة علينا أولاً أن نقاتل بالكلمات.

وهذا برهان على أن «نظريتنا» تشارف على مرحلتها النهائية. سوف تسدل الستارة الأخيرة حين نصير جميعاً في طريق غير نافذ. بدا على لويد، وهو يمضغ أكله، إنه ينصت إلي بانتباه تام. أحنى رأسه جانباً كما يفعل بعض الناس أثناء الاعتراف وسألني «وما برأيك يجدر بنا لفعله؟»

«حالياً؟ في الوقت الراهن، ليس بوسعنا أن نبدأ بالكلام حتى عما يتوجب فعله. كان لينين على حق حين قال إن البلاد عندما تكون على شفير الإفلاس فإنما عمالها هم أول من يدفعون الثمن».

فكرت بأيادي المزارعين في فرقتنا، في دامبو، في السيدة العجوز «ما»، هاي ـ تز هي ليفانغ «علينا أن ندعهم يعيشون حياة طبيعية. ويمكننا بعدها أن نبدأ بتغيير النظام وإصلاح الاقتصاد...» بعدها، رحت أردد نظرياتي بشأن كيفية الاصلاح الاقتصادي.

«هاي! كفى! كفى!» قال لويو زونغكي وهو يسترسل في الضحك. ثم سألني بجدية فائقة «هل فكرت بأن تدوّن كل هذا يا لاو زانغ؟»

«يمكنك أن تدون هذا في أطروحة. في الوقت الراهن، لن تجدي نفعاً لأيٍّ كان، بيد أنها قد تكون نافعة في المستقبل».

«ها! أو تعتقد أن الكتابة لا تشكل علي خطراً؟»

أو تذكر زو رويشينغ؟ حالياً نعيش معاً في المهجع نفسه. إن ابن العاهرة ذاك يهوى الوشاية بالآخرين. فليقع سطر واحد من كتاباتي بين يديه ولن تراني بعدها آكل من زلابياتك.

كانت زو شوجون تقف إلى جانبي طوال الوقت وتحثني بين الفينة والأخرى على اختيار زلابية جديدة.

«أعتقد أن الأمر الوحيد الذي يتوجب عليك فعله هو أن تؤسس عائلة. فلتكن لك حياتك الخاصة وغرفتك الخاصة، ولك بعدها كل الحرية لتكتب ما تشاء، من دون أن يعلم أحد بذلك. لقد لانت القوانين في الوقت الراهن وأنا واثق من أنك ستنال الإذن بذلك». «وهل أتزوج لأكتب أطروحة؟» سألتها ضاحكاً. ووافقتني الابنة وهي تضحك من وراء والدتها.

«حتى ولو لم يكن من سبب آخر، فأنا مازلت مقتنعاً بوجوب زواجك. وإذا كنت تعاني من مشاكل مادية فنحن على استعداد لمساعدتك».

«ليس المال هو المشكلة. لم أجد بعد المرأة المناسبة!» في الواقع كنت أفكر في نفسي بأني قد وجدت تلك المرأة بالفعل.

في طريق العودة كانت الغيوم منتشرة خفيضة على خط الأفق وكأنها تقبض على امتداد الأرض، قبل أن تنتقل بومضة عين لتغطي قمم الجبال. انقضّت آلاف طيور السنونو السوداء على السماء وكأنها تريد وصلها بامتداد الشعير الأخضر. كان الهواء مفعماً برائحة الأرض الرطبة. كانت نبتات الشعير الأخضر تتمايل كسلى على بعضها البعض بانتظار سقوط المطر.

الطريق إلى منزل لويو كانت صافية مشرقة أما طريق العودة فكانت داكنة تحت سماء تتكاثر فيها الغيوم وتتسارع.

ولكن في وسط العتمة، كان ثمة أمل يرتعش؛ بصيص سعادة يتحرك ويومض. وراء لحن الكآبة كان لحنٌ مصاحبٌ من البهجة. مشيت بخطى واسعة في الريف المكشوف.

سقطت نقطتان ضخمتان من المطر على التراب الأصفر، فبانت على سطح الأرض حفرتان صغيرتان كما لو أن حيواناً صغيراً ينقّب عن جحر.

وفجأة شرعت الأرض الفسيحة تغني مع المطر. صفعتني المياه الباردة على وجهي ولاحظت أنه كان يتوهج حرارة. في وسط العاصفة الرعدية، كان جسدي أشبه بمدفأة متوقدة وكانت كلمات لويو الأخيرة تزيده اتقاداً. الزواج! الكلمة وحدها يصعب ترديدها بصوت مرتفع. في ما مضى، فكرت مراراً بالزواج ولكنه لم يخطر على بالي لحظة أن وضعي غير الحر لا يقف حائلاً دون زواجي. ولم أفكر أيضاً بالزواج من امرأة في الوضع نفسه.

إن الأحلام لهي حقاً بهجة عارمة! رحت أتخيل عروساً ترتدي ثوباً أبيض شفافاً تركض إليّ كما في الحلم تحت سماء زرقاء صافية...

والعروس كانت هي! لم يسبق لي أن تخيّلت زوجة بالمصطلح المادي الملموس. كان الثوب الأبيض الشفاف قد تسلل إلى أفكاري وكل ما عداه كان مشوشاً.

حين تغيرت، مع مرور الأيام، مقاييس الجمال بالنسبة إلي، تغير معها مفهومي للزوجة العتيدة، وكنت لطالما أمني النفس بلقاء الرفيقة المثالية، ومعها السعادة العارمة.

وبعد ذلك، حين حلّت ثياب السجن السوداء محل الثوب الأبيض الشفاف في أحلامي، كانت زوجة خيالي تستحيل مجرد امرأة ليس إلاّ. وأي امرأة كانت تصلح لأن تكون زوجتي. بينما أنا فاقد لحريتي ولكل احتمال بأن أحيا يوماً حياة طبيعية، ماذا تجدي نفعاً الآمال المهيبة، وماذا بوسعها أن تقدم لي؟

حين يعيش المرء بلا أمل لا يمكن أن يصطدم بخيبات الأمل. بالرغم من ذلك وبكثير من المكر، وجدت سبيلاً لأن أبتكر لنفسي أملاً من اللاأمل. وكنت أجد تبريرات عديدة حتى أعتبر نفسي محظوظاً. أي عقاب بسيط أو عقوبة خفيفة، كنت لأعتبرها من ضروب الحظ السعيد: وأقول لنفسي إن الأمر كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير! سلسلة العقوبات التي توالت علي طول حياتي، كانت لتجعلني مفعماً بالفرح.

حياتي المتشردة التائهة، كانت لتصير تجربة غنية عشتها. الجوع والبرد كانا بمثابة امتحان منشط لما قد ينتظرني في المستقبل. كان بوسعي إقناع نفسي بأن ما ألاقيه يهيئني ويجعلني أهلاً لأن توكل إليّ مسؤولية هامة. جعلت نفسي دونكيشوتاً معاصراً، خيّل إليه أن الشياطين هي طواحين هواء وليس العكس. بهذه الطريقة جعلت الحياة محتملة.

وفي الواقع، أن أتزوج كان يعني أن أتزوجها هي تحديداً. أن يكون لي بيت، وفي الوقت الحالي لا يمكن إلا أن يكون الغرفة التي أتقاسمها و«زو رويشيتنغ» وإما تلك التي تتقاسمها هي مع السيدة العجوز، أن يكون لي بيت يعني أن يكون لي بيت بمعيتها. ورغم ذلك، وبينما قطرات المطر الضخمة تضرب بعنف على رأسي، أدركت في لحظة أني مقيّد بشدّة إلى كسور الواقع. كنت على ثقة بأني سوف أفقد عالم أحلامي المعزّي، ومعه القدرة على النشوة بالأفكار المثيرة. وكمثل قطرات المطر من حولي، كنت لأُفصَل بعنف عن الغيوم وأُدفَع إلى الأرض الجافة لتمضي وتحولني إلى كتلة من الوحل.

ولكن في نهاية المطاف، كان ذلك الجسد العاري المشرق

يمارس عليه سحره، يخدرني ويخمد فيّ كل رغبة في المقاومة. كان يناديني، ناعماً، مرتعشاً بالإثارة.

كان جسدي يتوقد بالحرارة فتروح قطرات المطر الباردة تطش وتتبدد كما لو كانت تتساقط على مكواة.

كان لويو زونغكي محقاً! كنت بحاجة إلى المنزل، إلى عش، إلى مساحة صغيرة تكون ملكي أنا وحدي. حتى إنسان عصور ما قبل التاريخ كان يملك كهفاً ليحتمي فيه ويقال إن «ملك الأعشاش» الصيني القديم كان يلقى دعماً كبيراً من الشعب لأنه ابتكر أمكنة تحمي الجسد لتستمر الحياة. بالنسبة لي، أن يكون لي بيت كان يعني أن أمتلك بضعة أقدام مربعة من مساحة الـ ٩,٦ مليون كيلومتر مربع التي تبلغها الصين، وأحولها إلى مملكتي الصغيرة المستقلة.

وبعد أن أصبح سيداً على قطعة الأرض الصغيرة هذه، يمكنني حينئذٍ أن أركز أفكاري وأخطط، أخطط لمستقبل ما تبقى من هذه الأرض الشاسعة.

وكان من المحتمل أيضاً أن تستنفد المأساة نفسها... بينما كنت أعبر فوق مصرف للمياه، علق حذائي في الوحل؛ حاولت أن أسحبه دون جدوى فتركته غير آسف. هي سوف تصنع لي حذاء جديداً، قلت لنفسي. تابعت سيري في طريق عودتي إلى المهجع وأنا أتقدم بصعوبة، مترنحاً، ولكن سعيداً.

«لماذا لم تختبيء تحت الأشجار لبعض الوقت!» بادرني زو روشيننغ وهو يستقبلني بشيء من الفزع، بعد أن رفع رأسه من على الورقة أمامه.

كان لا يزال منكباً على كتابة رسالة الاستئناف. «أكتب!»

فكرت «هيا إمضِ في الكتابة. إن مأساتك لهي مأساة حقيقية ومستمرة».

«انظر إلى نفسك، أنت مبلل حتى العظام» قال لي وهو يبتسم ابتسامته المهزومة، المتملقة؛ في ذلك اليوم تسببت لي ابتسامته تلك بإزعاج حقيقي وتساءلت كيف احتملتُ العيش مع هذا النوع من الرجال. «اللعنة، وما همّ لو تلقيت دشاً صغيراً كهذا؟ لقد صادفني أسوأ منه بكثير حين كنت أرعى الخراف». نظر من النافذة لدقائق معدودة وارتسمت في عينيه نظرة خبيثة تسخر من سوء حظي: «انظر! لقد عادت الشمس». كان ذلك صحيحاً. خارج النوافذ بانت أشعة الشمس صفراء واهنة، تسطع على جدار المبنى المجاور.

«اللعنة، إن السماء ضدي هي الأخرى» صعدت إلى السرير وأنا أدمدم.

«هذه الحياة المجنونة التي نعيشها متى ستنتهي برأيك يا لاوزو؟»

فجأة بانت على وجهه النحيل أمارات القلق. هلْ كنت سأقول شيئاً «معارضاً للثورة مرة أخرى؟ هل سيشي بي إذا فعلت أم لا؟ هل سيتسبب له الأمر بمزيد من المشاكل؟ وفي حال وشى بي ماذا لو أنكرت؟

«إن الطريقة الوحيدة لإنهائها هو أن تتخذ لك زوجة. أعتقد أنك سوف تدرك حينها أن كل هذا الجنون قد ولى إلى غير رجعة». ولأطمئن باله أكثر رفعت صوتي عالياً وأنا أقول له ذلك.

رحت أنظر إلى الروافد القاتمة فوق رأسي وأتساءل عن كيفية إصلاح هذه الغرفة وترتيبها قليلاً...؟

5

«ما رأيك لو ترعى الأحصنة لبعض الوقت؟» سألني «كاو كزوي» عرضاً.

حين لاحظ ميلي للموافقة، سحب سجائره وقدّم لي واحدة. «إنه عمل سهل للغاية والقطيع لا يزيد عن قرابة العشرين حصاناً. ليس عليك أن تسوقه بعيداً في الجبال، لذا فإنك سوف تعود كل مساء بشكل منتظم، إن المناوب الليلي سوف يتولى مسألة إطعامها وليس عليك أن تقلق بهذا الشأن أيضاً.

بدا وكأنه يبذل كل جهده ليعتني بي ويحاول أن يهوّن حياتي قدر الإمكان. ثم عرفت في الواقع، أن لا أحد سواي يرغب في هذه المهمة. وكان من الصعب جداً في تلك الفترة دفع الناس للخروج حتى بقصد العمل في الحقول. لا أحد كان ينوي بذل أدنى جهد لتعلّم أي جديد.

«حسناً، من يساعدني في هذه المهمة؟» سألته وأنا أشعل سيجارة.

«من هو الرجل المناسب برأيك؟»

«أعتقد أن «دامبو» سوف يكون مناسباً». ضحك. «كيف خطر اسمه على بالك؟ ولكن لو أوكلت إليه هذه المهمة، من سيتولى رعاية الخراف؟»

«إذاً عليك أن تختار غيره ليقدم لي يد العون. أعتقد أنّ عليك أن تختار أحداً من الفرقة الرئيسة». كلانا كان يعرف جيداً أن دامبو كان الرفيق المثالي في زمن الصراخ والاتهامات ذاك. أطرق مفكراً للحظات وقال: «سوف أرى ما يمكنني فعله». كنا نجلس القرفصاء على منحدر عند حافة أحد الحقول ونراقب مياه الري تقرقر حول النباتات اليافعة قبل أن تنتشر على الأرض. إن العاصفة التي هبت قبل أيام، تلك التي بللتني حتى العظام، لم تكن كافية لري الزرع. هذا الربيع، كان القمح ينمو بغزارة وكانت بعض النباتات على أطراف الحقل قد أورقت قبل غيرها. في المصطلح الزراعي، كانت هذه النباتات تنعم بما كنا نسميه: «الشروط الفضلى على الحافات»، وكانت تنمو بعيداً عن النباتات الأخرى فتتمكن من امتصاص ما تشاؤه من الشمس والهواء والماء. يبدو أن البشر يشعرون بحاجة معاكسة ويبذلون ما بوسعهم ليحتشدوا ضمن جماعات مكتظة. كنت، أنا نفسي، أشعر برغبة مماثلة بيد أني في كل مرة كنت أحاول الدخول إلى الجماعة، كانت تصدني مقاومة «حركة» ما.

هل سأنجح في ذلك بعد أن أتزوج؟

أن أعيش حياة طبيعية كمثل الآخرين وأؤسس عائلة وأمتلك بيتاً صغيراً دافئاً؟

حين كنت أخضع للاستجواب داخل السجن، كان المستنطقون يهزون رأسهم ويقولون لي: «لست قطعاً بالرجل

المغفل يا زانغ يونغلين! لقد تجاوزت الثلاثين من عمرك. ماذا تنتظر؟ لا تقل إن القلب يتوقف عن الخفقان بينما الجسد لا يزال نابضاً بالحياة! أنا واثق من أنك تتمسك بموقفك هذا بانتظار أن تتغير السلالات الحاكمة. أنت تعتقد أن كل شيء سوف يتغيّر معها فتجد آنذاك زوجة لك!»

حتى بقائي من غير زواج كان يزيد من شكوكهم وريبتهم، ولو ساورتهم الشكوك في تلك الفترة، فأنت بالتأكيد تكون قد اقترفت جريمة.

دوّى صوت المكبر من جديد. وانطلق الصوت النحاسي في الهواء الرطب. كانوا يذيعون أخبار الظهر...

«إن معنويات عمال مناجم الفحم الحجري العظماء قد تغيرت تغيراً جذرياً... تحت قيادة «التجمعات التقدمية» والأفراد التقدميين» ومن خلال دراستهم للماركسية واللينينية وفكر ماوتسي تونغ. لقد محوا من رأسهم «ذهنية الأيادي المأجورة»(*). وطوروا موقفهم من المسؤولية. حملوا روح الشيوعية ليتقدموا بها وصارت لهم وجوه جديدة. لقد حطموا مفاهيم «القدر» و«المصير». لقد تحرروا من قيود «الطبقة الرجعية الحاكمة» ما قبل التحرير، وخطوا خطوة جبارة في تحرير تفكيرهم. لقد عملوا بكل طاقتهم على دفع عجلة التطوير الإنتاجي والتقني...»

رحت أصغي بكليتي والأمر الوحيد الذي علمته هو أن العمال في مناجم الفحم كانوا يؤمنون هم أيضاً «بالقدر». باستثناء هذه المعلومة لم تعلمني الأخبار بأي جديد.

(*) الأيادي المأجورة: أي أن لا يعمل الفرد أكثر مما يتقاضاه.

كان بمقدوري أن أكتب «أخباراً» مماثلة وأنا جالس هنا عند حافة الحقل.

واللافت أن كاو كزوي عبّر هو الآخر عن سخطه بكلمة «اللعنة» أطلقها باتجاه مكبر الصوت ثم اعتدل واقفاً وانتزع غصناً من شجرة صفصاف قريبة. وكمثل ممثل في أوبرا بكينية انطلق في طريقه مترنحاً وهو يلوّح بسوطه.

إثر رحيله، فاجأتني السيدة العجوز «ما» حين خرجت من صف الأشجار ورائي ووقفت إلى جانبي. كانت تحمل بإحدى يديها رفشاً وبالأخرى رزمة من حطب الوقود. لم يكن مسموحاً للنساء العازبات بتناول الطعام في قاعة المائدة الجماعية، وكان يسمح لهن بالتالي تحضير الطعام بأنفسهن. وعلى ما يبدو كن يجدن في ذلك لذة أنثوية عارمة.

«ألن تعود إلى البلدة يا لاوزانغ؟»

«لم أنته بعد من ري هذا الحقل. سوف أبقى هنا لبعض الوقت. ما الأمر؟» سألتها وقد ارتسمت نظراتها البريئة على وجهها رغم أني قد تكهنت بما يدور في خلدها.

«تقول إنه يتوجب عليك أن تذهب إليها وتكلمها بنفسك!» جلست السيدة العجوز «ما» إلى جانبي. «ما من مشكلة أقول لك!» كانت تتكلم بكل ثقة. «لا تصدقها إذا قالت لك إنها لن تتزوج».

إنها تحب أن تتدلّع قليلاً. إن النساء هن هكذا دائماً.

«حسناً ما الذي قلته لها؟» سألتها وأنا أقترب منها.

«وما الذي قالته هي بالضبط؟ هل قلتِ له ما طلبته منك؟»

«أجل، أجل. أخبرتها بكل شيء. وكل ما أجابتني به:

«فليأت هو ويخبرني بنفسه».

«أوتعتقد أن الأمر مضمون تماماً؟ إياك أن تذهب وتفسد كل ما دبّرته»!

«ألم أقل لكِ إنه ما من مشكلة على الإطلاق».

راحت مياه النهر الأصفر تقرقر جذلى وهي تنتشر على مهل في حقول القمح. شعرت أن الأنا في داخلي قد أخمدتها هذه الأخبار بما يكفي، ولم أفكر آنذاك في المستقبل. ما كان مهماً أني قمت بالخطوة الأولى وهذه الخطوة لم تذهب هباء. في تجربة الأعوام الثمانية عشر المنصرمة، كان عدم مصادفتي للعوائق يعتبر أمراً مغايراً وجديداً.

«حسناً متى يجب أن أذهب لأكلمها؟»

«يا لك من طفل! أوتعني أنك تفكر في انتظار اليوم الميمون؟ «تعال الليلة. وما إن تطأ عتبة الغرفة حتى تراني أغادرها على الفور».

«وكيف أبدأ الحديث؟»

«أوتسألني؟ رجل بذكائك ألا يعرف كيف يبدأ؟

على أية حال لقد مهدت لك الطريق. إن سارت الأمور على ما يرام فليكن، وإلا فبئس الأمر. ولكنني أقول لك إن الأمر مضمون».

«وكيف لك أن تعرفي أنه مضمون؟»

«أنت تكثر الأسئلة بشكل لا يطاق. ألم أعش معها تحت سقف واحد طوال الشهرين المنصرمين؟ أو تعتقد أن ثمة شيئاً واحداً لا أعرفه عنها؟ انظر إليها. لقد تزوجت مرتين وما عساها أن تتوقع

أفضل من هذا؟ إن موظفاً رسمياً لن يلتفت إليها مهما كانت جميلة، والعامل لا يستطيع الزواج منها لأنها لا تستطيع أن تحظى بإذن لمقر قانوني. إذا تزوجت منك، فإن همي الوحيد هو إنها جميلة للغاية وقد ...»

لم تكن كل هذه الأمور هي ما أرغب في سماعه. ما كنت أريده في تلك اللحظة هو أن يقال لي كم هي رائعة وكم سأتكبد من الشقاء لأحصل عليها.

عندما حلّ المساء، سرت ناحية غرفتهما. وبينما كنت أقرع الباب شعرت فجأة أن الأمر لا يتطلب شجاعة كبيرة. لم يكن ذلك كما تصوره الروايات، مسألة إقدام وشجاعة.

كانت الغرفة أشبه بكهف حقيقي لولا ضوء المصباح الكهربائي الذي ينيرها. كانت أكثر نظافة من غرفة زو رويشيننغ لكن معالمها الداخلية كانت مطابقة لها تماماً. كل الغرف في القرية كانت أشبه بمرابط حيوانات. بينما كنت أدلف إلى الغرفة شعرت وكأني حيوان ما. إن «الانتقادات العظيمة» خلال الأعوام العشرة المنصرمة كانت عملياً، قد حوّلت إلى فتات كل التقدم الذي أحرزته الكائنات البشرية.

كانت العلاقات الثنائية بين رجل وامرأة قد عادت إلى مرحلة بدائية، تلك التي كانت فيها القرود في طور التحول إلى بشر. كانت العلاقة مقتصرة على معناها الجسدي: سفاح القربى، أخذ الشريك عنوة، الزواج بأمر من أحد الوالدين، هدايا الخطوبة، الزواج الطويل الأمد بملء الإرادة وصولاً إلى الحب الحر ـ كل تلك الأمور كانت لا تزال ملكاً للمستقبل. في هذ المرحلة البدائية الهمجية، كنت أشعر وكأني حيوان مفترس يجوس بحثاً عن فريسته. مجرد

أن نحوم حول بعضنا البعض ونشتم روائح جسدينا، كان أمراً كافياً ووافياً.

كما كانت وعدتني، نهضت السيدة العجوز «ما» وهي تردد بعض الكلمات، ثم جمعت لوازم الخياطة خاصتها وخرجت من الغرفة. لم أفهم كلمة واحدة من كل ما قالته. «ها قد أتيت! اجلس». وضعت الكتاب الذي كان بين يديها جانباً وسوت السرير إلى جانبها بضربات خفيفة. بدا وكأنها كانت عالمة بقدومي ـ وكانت فرشت على السرير غطاء نظيفاً.

«ما الذي تقرأينه؟»

اعتقدت أنه كتاب قد أتمكن من التعليق عليه ببضع كلمات، وعندما حملته قرأت عنوانه: «الكتيب العملي للألكترونيات» ولم أفقه كلمة واحدة منه.

«ماذا تعني بكتاب؟ إن السيدة العجوز «ما» تستخدم هذا لترسم عليه نعال الأحذية». وأخذت تضحك. «ماذا عساني أفعل بالكتاب؟ إن الأحرف القليلة التي تعلمتها أكاد أنساها كلها».

«كان بوسعك أن تواصلي دراستك». وضعت الكتاب جانباً والذهول بادٍ على وجهي ثم لاحظت أني وضعته حيث كان يجدر بي أن أجلس. ولم يتبق لي، والحال هذه، إلا الجلوس من جديد في الجهة المعاكسة، على سرير السيدة العجوز «ما».

حملت «الكتيب العملي للألكترونيات» وراحت تقلب صفحاته وتفتش عن الصور. بدت وكأنها مستغرقة في صفحاته رغم أنها كانت خالية من أي صور. سحبت سيجارة وبدأت أدخن. كل ما كان يجري أمامي كان بعيداً كل البعد عن توقعاتي.

لم يكن هذا المشهد إطلاقاً مشهد طلب يد للزواج. كنت لأفضّل أن تكون رائحة الأزهار منتشرة في الأرجاء، ونحن نجلس تحت ضوء القمر وأشجار الصفصاف تصدر حفيفاً ناعماً فوق رؤوسنا، بينما نحن نتهامس بأرق الكلمات وأعذبها.

كنت لأفضّل أن تتردد أصداء ضحكاتنا في الفضاء بينما شفاهنا تحاول اختراق الحدود الممنوعة وعواطفنا تتبلور في بقعة من الجنة. ولكن أين الحب في كل ما يجري الآن؟ هل حقاً كان ثمة من حب؟ شتمت في سري وقلت لنفسي إن الحاجة هي التي حلت محل الحب. ولوهلة رحت أتساءل هل أني قد اتخذت فعلاً القرار الصواب؟ اجتاحني شعور بالعزلة وكان كياني كاملاً وكأنما يقاوم قبل القيام بهذه الخطوة. شرعت أتفحصها بدقة وهذه المرة بنظرات باردة أشبه بنظرات شارٍ يتفحص البضاعة. لم تكن جميلة بالمقاييس المتعارف عليها ولكنها كانت تملك جاذبية فائقة تشع من وجهها وشعرها الأسود اللمّاع. وعلى عكس وجه السيدة العجوز «ما»، فإن ملامح وجهها لم تكن توحي بأدنى ما يشير إلى الماضي.

كان وجهها وكأنما ارتدى قناع وجه امرأة شابة، امرأة إما تائهة في الأحلام، وإما لا تفكر في أي شيء على الإطلاق. كان نقاء ذلك الوجه وصفاؤه يسبغان عليه بهاء يخترق الواقع وكأنما ليسمو فوق كل ما هو عادي ومبتذل.

بيد أن الناظر إليه، لو حدّق في تقاطيعه عن كثب، لاستشعر ربما بشيء من الغباء المستتر وراء تلك النظرات.

لم يُجْدِ تحديقي نفعاً وكنت كلما نظرت إليها أكثر، ازداد هذا القناع غموضاً واستحال عصيّاً على الفهم. هل كانت غبية حقاً، أم أنها كانت وبكل بساطة بمنتهى البراءة؟ كان الجزء العلوي من

جسدها يستند إلى الحائط كما هرة كسولة تتراخى بانتظار شيء ما.

هذا المشهد تطابق تماماً مع صورتها الذهنية التي احتفظت بها في ذاكرتي طوال الأعوام الثمانية المنصرمة: ثدياها المنتصبان، استدارة معدتها الصغيرة، ومرونة جسدها التي تتبدى فور النظر إليه. لم يكن أي جزء من ذلك الجسد غير أنثوي. حتى الهواء الذي كانت تتنشقه كان مفعماً بالأنوثة: كانت تمثل قمة الإغواء بالنسبة لأي رجل كان.

تبدلت أفكاري فجأة وأدركت أنها قد غاصت في أمر خطير. وكان الخطر يحثني على أن أغوص أكثر فأكثر. وأقوم بعمل ما، فقط لكي أكتشف ماذا سيحصل.

«هل تكلمت إليك السيدة العجوز «ما»؟ شرعت أخيراً بالكلام.

«ممم...» أخيراً رفعت رأسها لتنظر إليّ: «أجل كلمتني».

«وما رأيك؟» قلت لها هذا وكأني أدعوها للقيام بنزهة.

«ولماذا طلبت منها أن تكلمني ـ هذا أمر يتوجب علينا أن نناقشه على انفراد». قالت ذلك وكأنها تطلب مني أن أقرضها مالاً».

«أجل علينا أن نناقشه، أنا وأنت على انفراد. طلبت منها ذلك لأن... لأن...» كنت أشعر باضطراب شديد فرحت أدمدم كلمات غير مفهومة...» لأنه لم يسبق لي أن تفوهت بأشياء مماثلة، لذلك طلبت منها أن تكلمك».

«هل صحيح أنك لم تتقرّب من إحداهن يوماً؟»

«أجل بالفعل». أكّدت لها ذلك بكل حزم. في الواقع كان

«ماضيّ» قد بدأ في العام ١٩٥٧، طالما أني لم أكن أشعر بأن ما حصل لي قبل ذلك التاريخ كان جزءاً من حياتي.

«هل هذا معقول؟» كانت شكوكها جلية رغم أنها كانت تتكلم والبسمة بادية على وجهها.

«فكري قليلاً بالأمر. ابتداءً من العام ١٩٥٧، أصبحت رهناً «للحركات» ـ أصبحت «رجل حركة». وبين السجن والأعمال الشاقة كيف كان لي أن أجد زوجة لي، هذا إذا ما أغفلنا ذكر الحب؟»

عبّرت عن تعاطفها معي بهزة من رأسها ثم سألتني وهي تضحك: «أوتريدني أن أعلمك؟»

وافقت على قبول التحدي مجيباً: «سوف يسرني ذلك».

شعرت في تلك اللحظة أن الحياة إلى جانبها سوف تكون أهون بكثير مما كانت عليه من قبل.

ثم أردفَتْ بلهجة جدية مفاجئة: «الحق يقال إنه من غير المجدي الكلام على الحب في مثل سننا، هذا خصوصاً مع كل ما كابدناه من مشقات. المهم أن نؤسس بيتاً وننشىء عائلة ونعيش مثل كل الآخرين».

«هذا بالضبط ماكنت أفكر به». أجبتها وأنا أردّد لنفسي أن وجهات نظرنا متضاربة من دون شك.

«وثمة أمر آخر، ولا أقول هذا لأعني أيّاً منا، ولكن ليس من داعٍ في المستقبل ليثير أحدنا ماضي الآخر». قسَتْ نظراتها وهي تشير إلى هذه النقطة وتحدق بي.

أدركت أنها كانت تخفي ضعفها وراء واجهة القساوة تلك.

كانت مخطئة لو أنها كانت تتكلم على نفسها فحسب. هل كانت تعتقد حقاً أني كنت عفيفاً في ما يختص بالأمور العاطفية.

«بالطبع، بالطبع، هذا أمر مؤكد». أشرت برأسي موافقاً. خيم بيننا لفترة صمت أخرق فيما كنا نقيّم ما قد انتهينا إليه.

لغاية تلك اللحظة كنت عاجزاً عن استخدام كلمتي «زوج وزوجة» أو حتى كلمة «ثنائي».

كانت هناك أولاً مسألة مساحة المترين من الأرض المتسخة التي كانت تفصل بيننا ومن ثم بدا وكأننا كنا نتناقش في أمور العمل. فجأة أدركت كم كان المشهد برمته مضحكاً ومثيراً للسخرية.

بدا لي وكأنها شعرت بذلك هي الأخرى، حين انحنت لتخرج ترمس المياه الساخنة الأخضر من تحت السرير. أخرجت أيضاً كوباً خزفياً وسألتني: «هل تريد شاياً فيه؟ أجبتها بأني سأكتفي بكوب من الماء. انتهزت الفرصة لأنظر إليها وهي تسكب لي الماء، وعندها فقط لاحظت الدفء والرقة على وجهها. كان صوت المياه المنسكبة لتقابل الكوب أشبه بهمسات حميمة. ليس للمياه أي شكل أيضاً فهي تتخذ شكل الكوب حين يُطلب منها ذلك. مرّ في ذهني بيت من شعر كنت أعشقه في ما مضى. وضعت كوب الماء على الصندوق الخشبي بيننا. وفجأة قصرت المسافة بيننا.

ماذا يتوجب علي فعله الآن؟ شعرت برغبة كبيرة لأمد يدي وألمس يدها لكن كلمات تفوهت بها في تلك اللحظة جعلت أعصابي تنكمش انكماشاً مؤلماً: «حسناً كم لديك من المال؟» شعرت وكأني أخذت على حين غرة وأجبتها: «قرابة السبعين أو الثمانين دولاراً. ولكن بإمكاني أن أقترض مبلغاً من المال إذا دعت الحاجة إلى ذلك...» كنت أفكر في عرض لويو.

«لا داع لذلك. فأنت إذا اقترضت المال عليك أن تعيده في جميع الأحوال. ولكن قل لي كيف لم تتمكن من توفير غير هذا المبلغ الضئيل وأنت تعيش بمفردك طوال هذه السنوات؟» شعرت بالصقيع يجتاح كافة أنحاء جسدي. رفعت الكوب وشربت جرعة من المياه الساخنة.

«إن راتبي، وكما تعرفين، سبعة وعشرون دولاراً في الشهر وعلي أن أوفر مصاريف الأكل والثياب وأشتري سجائري. كان بوسعي أن أتوقف عن التدخين...»

ورغم أني تفوهت بذلك كنت مدركاً تماماً بأني لم أكن لأملك التصميم اللازم لأتوقف عن التدخين. لم أتوقف عن التدخين في أسوأ الأوقات التي واجهتني في مخيمات العمل. بيد أن تطور مسار حبكة هذه المسرحية وكأنما حتّم علي أن أقول شيئاً مماثلاً.

«ليس عليك أن تتوقف عن التدخين» أجابتني «سوف نجد وسائل أخرى لنوفر بعض المال في المستقبل. أنا أيضاً وفرت مبلغاً صغيراً...»

رسمت بأصبعها خطاً على حافة الصندوق وتموضعت كما لو كانت بانتظاري لأسألها. وحين لم أفعل رفعت رأسها وقالت بحدة: «أكثر منك بكثير». نظرت إليها وضحكت. لم تكن بالطبع، لتتمكن من توفير مبلغ كبير وهي كانت تبالغ بدون شك.

كانت رواتب السجناء الذين أطلق سراحهم من مخيمات الأشغال تعتبر الأدنى في سلم رواتب المزارعين، ولم يكن الواحد ليتقاضى أكثر من سبعة وعشرين دولاراً في الشهر الواحد. وكان

من المستحيل أن تعيش برخاء بهذا المبلغ، فكيف لها أن توفر مبلغاً كبيراً كالذي تشير إليه.

«أعتقد أنه لمن الأفضل أن تتولي أنت مهمة إدارة الشؤون المنزلية».

«حسناً!» أجابتني وقد بدت عليها البهجة لأني تركت لها الإمساك بزمام الأمور.

كل هذا بدا لي غريباً وبعيداً كل البعد عني. حين كانت صورة لفّقها خيالي، كانت تنفذ كل ما أطلبه منها وكانت تصير كل ما أطلب منها أن تصير.

يبدو لي الآن أن الحلم قد تبخّر من رأسي، وتفلّت من قبضتي ليصير كائناً مستقلاً بذاته. وما قام به هذا الكائن كان، وللمفاجأة، متضارباً مع كل ما كونته عنه في رأسي. كنت على قناعة بأني عرفتها تمام المعرفة ومع ذلك ها أنا الآن وكأني ألتقي أحد الغرباء. رغم هذا كانت تنبض بالحياة قبالتي بجسدها الثلاثي الأبعاد، ونفسها الدافيء المتسارع كأنما يلفح وجهي، بينما ثدياها الممتلئان يتحركان على إيقاعه. كان جسدها رائعاً بهياً كما في أحلامي، لذا فإن صورة خيالي والواقع أمامي، كانا متشابكين رغم كل شيء.

بعد أن سوينا المسألة الأخيرة، بدا وكأنه لم يبقَ لنا شيء نتكلم عنه. جلسنا بصمت ننتظر بقلق واضطراب، هي، أصابعها تدق على حافة الصندوق، وأنا، أجلس على سرير السيدة العجوز «ما» وأشعر أكثر فأكثر بأن جلوسي في هذا المكان أصبح لا يطاق.

استحال جو الغرفة سخيفاً خانقاً وقد أثقلته أحاديثنا المادية الجلفة. في وقت قصير صار من المستحيل أن نخترق ذلك الخط

الرفيع الذي كان يبدو سهل الاختراق. رفعت رأسها أخيراً وسألتني: «أو تعتقد أنهم سيوافقون نظراً لوضعك الراهن؟»

«أعتقد أنهم سيوافقون. ألم تقولي إنّ الظروف باتت اليوم أفضل من ذي قبل؟»

أطلقت ضحكة فارغة من أي مضمون أو معنى أو حيوية. كانت ضحكة تعبّر عن عدم فهمها للأمور وقالت:

«نحن ننهض بأنفسنا من أينما يلقون بنا برفساتهم».

تأثرت تأثراً مفاجئاً. إن هذا الواقع كان السبب في لقائنا بالأساس. في تلك اللحظة شعرت بجاذبية قاتلة تشدني نحوها. أردت أن أمسك يدها الملقاة على الصندوق وأن أشدها إلى صدري. في تلك اللحظة انفجر صوت هاي ـ تز وتناهى إلى مسامعنا عبر النافذة. كان يصرخ مستاءً لأنه لم يتقاض أجراً لقاء العمل الذي ذهب ليقضيه في بكين، وتردد صوت كاو كزوي وهي تهدىء من روعه وتنهيه عن أي تصرف مجنون وتطمئنه بأنه بالإمكان تسوية الأمور. وبهذا الفصل الهزلي الإضافي أسدلت الستارة على مسرحنا.

هل كان حباً بحق؟ هل كان هذا عرضاً للزواج؟ تقلبت في فراشي طوال تلك الليلة ولم يغمض لي جفن.

لقد حصل كل شيء بسرعة فائقة وشعرت بأن حلقات وسطية عديدة كانت مفقودة، بيد أن النتيجة النهائية كانت مؤكدة. كان يراودني شعور زائف ولكنه لم يكن شعوراً قوياً جامحاً.

تسلل ضوء القمر من نافذة الغرفة، ومن دون أن أغفو، دخلت إلى عالم الأحلام. أصبحت الأحلام حقيقة بصورة عجائبية، في حين أن الواقع من جهته، أصبح حلماً زائفاً. كل شيء بدا غامضاً

ويستحيل التنبؤ به. من دون أي قبضة نحكم بها السيطرة على المستقبل، كان كل شيء يبدو قدراً مرسوماً. القدر كان ساحراً دنيوياً يطلق مزاحاً يعجز الناس عن تحمله:

لقد ابتكر الخيال والأفكار وفي نهاية المطاف لم يدع أيا منها يتحقق. ابتكر خيبة الأمل، الوهم، والخداع ومن ثم زرع الأمل والمثالية في عقول البشر.

رحت أتذكر قصص حبيّ القديمة، الواحدة بعد الأخرى. وللغرابة، إنه أثناء لقائي بالنساء اللواتي أحببتهن أكثر من غيرهن لم تتقدم لي أدنى فرصة للزواج بهن. من سأتزوجه اليوم هو الأمل؛ جسد يعيش داخل حلم. إن المثالية لم تكن لتنسجم مع الواقع ورغم هذا فإن خيالي ومثاليتي كانا ملتصقين بي التصاقاً وثيقاً.

كيف بالإمكان تفسير هذه الفكرة؟ يقول البعض إن الحب هو العطاء ـ ولكن ماذا كان لدي حتى أعطيه لها. لم أكن أملك شيئاً؛ لا الحب ولا حتى الحنان.

في البداية لم يكن الزواج يأتي نتيجة للحب إنما كان وليد الصدفة ـ كان أحد الشعراء محقاً حين قال: «يا زوجتي، إما أنتِ وإما أن أعرف معنى الحب الحقيقي».

«لاو زوا!» فجأة رحت أنادي بصوت عال. شعرت بحاجة ماسة لأتكلم إلى أحد، إلى أي كان.

استيقظ زو رويشتينغ مرتعباً: «ماذا حصل، ماذا حصل؟»

«آه، لا شيء». تلاشت فجأة رغبتي في الكلام.

«هل لديك عود ثقاب؟ أريد أن أشعل سيجارة».

«عد إلى النوم»، راح يتقلب في فراشه باستياء واضح: «أنت

تعرف جيداً أني لا أدخن. ما الذي جعلك تظن أن لدي عود ثقاب؟»

الجزء الثالث

١

تعذّر عليّ ردع نفسي عن الالتفات بين الفينة والأخرى إلى الجرائد التي تكسو الجدران. كانت إحداها تبرز صورة فوتوغرافية مرفقة بشرح لها: «اجتياح الجيش الأميركي وارتكابه مجزرة فظيعة في ماي لاي». كانت الصورة صغيرة وغير واضحة، بيد أنه كان بوسع الناظر إليها تمييز الجثث المكومة فوق بعضها البعض.

أن تكون جدران غرفتنا الجديدة مكسوة بكل هذه الجرائد، وأن تكون هذه الصورة بالتحديد معروضة في مكان بارز، كان يثير في نفسي الضيق والتوتر. ورغم ذلك لم أسارع إلى انتزاعها واستبدالها بجرائد وصور أخرى. وما كان يزيد في توتري غطاء السرير الذي طرزت عليه صورة جرارين ضخمين يحرثان الأرض. كيف كان لنا أن ننام أنا وهي تحت تلك الآلات الضخمة؟

كان هاي ـ تز هو الذي اهتم بتزيين الجدران وكان في الأساس ينوي مساعدتي لكسوها بالكلس. بيد أنه عاد من مكتب مقر الزراعة الحكومي وهو يدمدم بحماسة بادية، وبين يديه رزمة كبيرة من الجرائد رماها أمام قدميّ قائلاً: «ما عليك إلا أن تراقبني! من

الواضح أن هذه الجدران يستحيل كسوها بالكلس لذلك فأفضل ما يمكن هو أن نكسوها بالجرائد. ألم ترَ كيف يكسون الجدران بالجرائد في أميركا؟» اختار من بين الرزمة بضع ورقات ورماها على السرير مضيفاً: «أعرف أنك تحب قراءة «الملحق اليومي» فسرقت لك بعض الأعداد لكي تلقي نظرة عليها ولسوف ترى كم هي مثيرة للسخرية. ولكن ثمة أمراً واحداً جديراً بالذكر ـ يبدو أن الأجانب بدأوا يتعلمون منا! لقد بدأ أحد الأحزاب الماركسية اللبنينية بالثناء على «سياسة ٧ أيار»(*) خاصتنا. لمن السهل عليهم، ما إن تمتلىء بطونهم، أن يستولوا على الفكرة. فليأتوا إلى الحقول ويعملوا فيها ولسوف يدركون ماهية هذه الفكرة وحقيقتها.

رحت أقرأ الجرائد أثناء عمله، وفي النهاية بانت أمام ناظري على الحائط كومة الجثث.

غطاء السرير قدمه لنا هدية بعض من كانوا معنا في الفرقة وهم، مثلنا، إما كانوا في «مخيمات الإصلاح عبر العمل» أو «التربية عبر العمل» أو كانوا من «منتقدي الشعب»، أو كانوا في السجن. الوحيدة التي لم تكن تنتمي إلى أي من تلك الفئات كانت الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين. تبرعت كل عائلة ببضعة سنتات ومن هذه القرية الصغيرة تجمّع مبلغ عشرين دولاراً. يا له من مبلغ ضخم، وفي الوقت نفسه لا شك أنه مبلغ يثير الشفقة.

«لقد وضبت كل شيء قالت السيدة العجوز «ما» بكل فخر. كانت سارت أكثر من عشرة أميال لكي تجمع كل اللوازم من بلدة مجاورة. «لم أجد أيّاً من الألوان الأخرى مناسباً ـ هذا الأحمر

(*) توجيهات ٧ أيار من العام ١٩٦٦، حين استحدث الرئيس ماو ما يسمى بـ «كادر المدارس» في المناطق الريفية.

الفاتح هو الأنسب. هذا يعني أن سعادتكما سوف تكون عظيمة وفي العام المقبل سوف نرى لكما طفلاً صغيراً مكتنزاً!

كانت الجرافتان الضخمتان لا تزالان تندفعان على سريرنا بيد أن الأمر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد. استمر الحلم. الآن يجب أن يُدفع إلى النهاية. إن الدرب التي يفردها العالم لكل شخص لهي درب ضيقة جداً.

عليك أن تسير وراء الخطوة الأولى التي تقوم بها. وإذ تنطلق في سيرك، لا يجوز لك أن تنتقل بحرية بعدها ـ فالحائطان المرتفعان على جانبي الدرب يضطرانك للسير في اتجاه واحد محدد.

قمت بزيارة هاي ـ تز في اليوم نفسه الذي تكلمت فيه إلى كزيا نغجيو. وما إن دلفت إلى الغرفة حتى راح يصرخ قائلاً: «تهاني! عظيم! لقد سمعت الخبر من هي ـ ليفانغ. أنتما تشكلان ثنائياً رائعاً ـ ثنائي جديد صنع من قطعتي غيار قديمتين».

عنّفته هي ـ ليفانغ قائلة: «لا تمزح. لاوزانغ ليس بقطعة غيار ـ لم يسبق أن استعمل من قبل! في الواقع إنه برعم نضر لم يتفتح بعد». ثم غمزت لي بطرف عينها، سراً عن هاي ـ تز.

«هذا يظهر كم أنك قليلة المعرفة» صفع هاي ـ تز زوجته على ردفها وأضاف: «لا يقال، يتفتح البرعم للرجال، بل يقال «صبي بتول». لا بأس يا لاوزانغ أنت رجل طيب. حتى هذه الدمية التي سوف تتزوجها هي طيبة أيضاً. في حال احتجت لأي شيء ما عليك إلا أن تعلمني».

دخلت صلب الموضوع على الفور، وأخبرته بما كنت أعتزم القيام به وما كنت أحتاج إليه.

«لا تضف كلمة أخرى!» راح يربّت على صدره.

«سوف أذهب لأكلم كاو زوي بنفسي. لو أبدى أي اعتراض فسوف أدعه يختبر بنفسه غضب إخواننا في عصبة شباب بكين. إن ابن الزانية ذاك لا يعرف أن مجرمي الحرب أنفسهم قد تم إطلاق سراحهم». سارع إلى ستر فمه بيده ثم أضاف:

«اللعنة! لقد نسيت أن أجلب له هدية هذه المرة. لم يبقَ لدي سوى زجاجتين من شراب السرغوم على ما أعتقد...»

«وعلبة من الحلوى المحفوظة لوالدته العجوز» أردفت هي ـ ليفانغ.

«حسناً. فلنبدأ بسرعة. لنجد ورقة ونشرع بالكتابة... حسناً هذا رائع. ها هي ورقة الرسائل اللعينة التي جلبتها معي من بكين. حسناً هذه ريشة. اجلس هنا يا لاو زانغ واكتب... هل لديك ما يكفي من الحبر! حسناً ابدأ بهذا: «إن معارض الثورة زانغ يونغلين والسجينة المحررة هوانغ كزيانغجيو يوافقان بملء إرادتهما على أن يصيرا فريقاً معارضاً للثورة...» انفجرنا جميعاً بالضحك.

ثم جلست بجدية وشرعت بتدوين كلمات لم يسبق لي أن كتبتها من قبل ـ طلب للزواج، كتبته في جو من الضحك والمزاح فبدأت المسألة برمتها وكأنها مجرد دعابة. أخذت ورقة ـ ولم تكن ورقة رسائل بل ورقة مخصصة «لاقتراحات الزبائن... أتى بها هاي ـ تز من متجر كزيدان ـ وقبل أن أبدأ بالكتابة على جهتها البيضاء ترويت للحظة.

«أولا تعتقد يا هاي ـ تز أنه من الأفضل أن أدوّن قولاً من أقوال ماو في أعلى الورقة؟»

«بلى، ولكن أي واحد من أقواله؟» ضرب هاي ـ تز فجأة على الطاولة وقال: «أكتب شيئاً كمثل «ديكتاتورية البورجوازية» وكن

على ثقة أنك ستبقى أعزب طوال حياتك! لسوف «يعيدون إصلاحك» بجدية تامة هذه المرة. اللعنة عليكم أنتم جماعة «التاسعة النتنة»(*) إنكم تلجأون باستمرار إلى أسواط الآخرين لتجلدوا بها أنفسكم».

«لا تقل هذا. فنحن نعطي الآخرين، كلاً حسب حاجاته. في الواقع خطرت لي فكرة للتو، لا تزعجني. حملت القلم وكتبت السطور التالية:

من أقوال الرئيس ماو

«اعملوا على تفعيل العناصر الإيجابية، اجمعوا كل العناصر التي يمكن جمعها، ابذلوا أقصى جهودكم لكي تحولوا العناصر السلبية إلى عناصر إيجابية بغية تلبية الواجب العظيم وبناء مجتمع اشتراكي».

طلب

نحن الموقعين أدناه، المزارع في الفرقة رقم ٣، زانغ يونغلين، ذكر، بالغ من العمر ٣٩ عاماً لم يسبق لي أن تزوجت من قبل، والمزارعة هوانغ كزيانغجيو، أنثى، بالغة من العمر ٣١ عاماً، مطلّقة، نتقدم بطلب زواج وافق عليه الطرفان بملء إرادتهما وهما يتعهدان أنهما بعد الزواج لسوف يواصلان إعادة إصلاح نفسيهما ويتلقيان الإشراف وإعادة التأهيل تحت إمرة قيادة فرع الحزب ولسوف

(*) يشرح الكاتب: «من العام ١٩٦٦ إلى العام ١٩٧٦ عمد اليساريون المتطرفون داخل الحزب إلى تقسيم «أعداء الشعب» إلى تسع فئات من الناس: مالكو الأرض، المزارعون الأثرياء، معارضو الثورة، العناصر الفاسدة، العناصر اليمينية، الرأسماليون، الجواسيس، الخونة والمثقفون. وتشير عبارة «التاسعة النتنة» بصورة عامة إلى فئة المثقفين.

يبذلان كل جهودهما للمساهمة في بناء مجتمع اشتراكي. ونحن إذ نشكر لكم اهتمامكم ونقدر موافقة قيادة فرع الحزب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

زانغ يونغلين

هوانغ كزيانغجيو

نيسان/أبريل ١٩٧٥

«واو» صاح هاي ـ تز وهو يقلّب الورقة بين يديه ويمعن النظر إليها كما لو كان خبيراً في الفنون الخطية. «اللعنة! هلا نظرت إلى هذا. نشكر لكم اهتمامكم!» وهذا القول الذي انتقيته. يجدر بك أن تكون أمين سر الحزب. هذه الوثيقة وحدها لهي كافية لانتزاع موافقة ذلك اللعين. انتظرني هنا. أنا ذاهب للبحث عنه».

«ليس بهذه السرعة ـ ماذا عن إقامتنا؟»

مدت هي ـ ليفانغ يدها وسحبته إلى الوراء.

«عليك أن تجد حلاً لهذا مع كاو كزوي كذلك».

أطرق هاي ـ تز مفكراً للحظات وقال: «أجل بالنسبة إلى مكان الإقامة. من الأفضل ألا نتسبب في طرد السيدة العجوز «ما» أو زو رويشتينغ من غرفتيهما فوضعهما الحالي يكفي وحده ليثير الشفقة.

«فلينتقلا للعيش معاً في غرفة واحدة» ارتأت هي ـ ليفانغ مقاطعة.

هلا خرجت من هنا! لا، علينا أن نفكر بحل آخر... آه! خطرت لي فكرة. لماذا لا نطلب منهم الغرفتين اللتين درجوا على استخدامها كمستودع للوازم القديمة. حسناً. حسناً. سأنطلق على الفور».

بعد ذهاب هاي ـ تز، نظرت إليّ هي ـ ليفانغ وقالت لي بلطف: «اسمع يا لاوزانغ إذا لم ترزقا أولاداً فلا تضع اللوم عليها!»

«كيف لك أن تعرفي أنه لا يمكنها إنجاب الأطفال؟»

«وهل ثمة من شيء واحد لا أعرفه بشأن النساء؟»

طقطقت بأصابعها أمام أنفي وأردفت: «كل الكتب التي علمتك لا تساوي نصف ما أعرفه أنا».

«لا يهمني إذا لم تنجب أولاداً. إن إنجاب الأولاد هذا لا أرغب به تحديداً».

حدقت بي مذهولة.

في نهاية المطاف تمّ كل شيء، وكما وعد هاي ـ تز، على أحسن ما يرام. فجأة صار لي بيت، وكان، علاوة على ذلك، أوسع بمرتين من منازل معظم العاملين في المزارع. وبدل غرفة واحدة كان لدي غرفتان. صحيح أنهما كانتا عبارة عن مستودع بأسوأ حالاته ولكن كان لهما بابان، واحد داخلي وآخر خارجي. بوسعي أن أتخيل ما فعله هاي ـ تز ليتمكن من انتزاعها من كاو كزوي.

أظهرت كزيانغجيو براعة فائقة في ترتيب مسكننا وزخرفته. أشارت إلي أين أعلق حاملة عيدان الأكل الخيزرانية، وأين أركّز رفاً صغيراً نضع عليه الصابون؛ أين أشيّد منصة صغيرة لنركّز عليها السرير وكيف أرصف الأقفاص فوق بعضها البعض كي تصير عبارة عن خزانة عملية تتسع لأغراض شتى؛ كيف أجهز مكاناً للمدفأة بأصغر مساحة ممكنة، أين أضع أواني المطبخ والأكواب والملاعق في مكان مناسب وصحي في آن معاً وبأقل مساحة ممكنة أيضاً. علمتني أين أضع طست غسيل الوجه وآخر لغسيل الأرجل

بعد الاستعمال، وكيف أمدّ سلكاً لنشر الثياب. كل من التفاصيل الصغيرة كانت وراءه أسباب منطقية. كان من الضروري، على سبيل المثال، أن تكون علاقة القبعات فوق علاّقة الثياب، والزوايا المحيطة بهذه الأخيرة عليها أن تكون مكسوة بالورق الأبيض حتى لا تتسخ الثياب، وهذه أيضاً كنا نغطيها بقطعة قماش فتبدو العلاقة وكأنها خزانة حقيقية.

باب كان يفصل بين الغرفتين. كان مغطى بالشعارات ولكنه لا يزال في حالة جيدة. استعرنا منشاراً وشطرناه سراً إلى قسمين. ركّزنا القسم الأول تحت النافذة ووضعت هي عليه زجاجة كريم البشرة خاصتها ووضعت أنا ممتلكاتي الوحيدة التي يسمح لي بعرضها: مجموعة أعمال ماركس وأنغلز الكاملة. كانت هذه الكتب الوحيدة التي يسمح بعرضها على أنظار العالم. بعد ثمانية عشر عاماً من الأعمال الشاقة، حظيت أخيراً برف الكتب. في مساحة تبلغ ٩,٦ مليون كيلومتر مربع، صار بوسعي أخيراً أن أقول إني حظيت منها بمتر مربع خاص بي.

لم تسبغ زجاجة كريم البشرة على الرف مظهراً سوقياً بل على العكس أسبغت عليه الكثير من الرقة والأناقة. أما القسم الثاني من الباب فقد استخدمته كالتالي: وضّبَت أربعة عيدان بالحجم عينه وبعد أن سنّت أطرافها، غرستها في الأرض الترابية وعلى طرفها الأخير، ركّزت القسم الثاني من الباب وغطّته بقطعة من القماش. طاولة الطعام هذه أضفت على الغرفة فجأة جواً فائق الألفة والحميمية. كانت طاولة الطعام خاصتنا تلك، الوحيدة في كل القرية.

علّمتني أيضاً طريقة جديدة لتركيز الأسرّة. بدل الطريقة

التقليدية المتّبعة بتركيز السرير ومعه المدفأة أصرّت على أن نعمد إلى فصلهما، كل في غرفة مستقلة. لم أقتنع بسهولة التنفيذ بداية، لكنني سرعان ما اكتشفت أن هذا الأمر سهل التحقيق وكل ما يستوجبه أن يكون أنبوب المدخنة أطول بقليل من الطول المعتمد. وبتلك الطريقة استطعنا أن نحجب الرماد عن غرفتنا ورحت أتساءل: لما كان الأمر كان بهذه السهولة لماذا لم تخطر هذ الفكرة على بال أحد غيرها؟

لم تترك الغرفتين بلا فاصل بينهما وسارعت إلى تعليق ستارة من القماش الأبيض النظيف.

جلبت لنا هي ـ ليفانغ، هدية هي الأزهار البلاستيكية التي كانت تحتفظ بها منذ سنتين في زهريتها.

في منزل ليفانغ كانت هذه الأزهار تبدو كئيبة ذاوية ولكنها في منزلنا، وبعد أن غسلتها هوانغ بالماء والصابون صارت نضرة لماعة، ولم تصدق هي ـ ليفانغ عينيها حين رأت زهريتها في وسط طاولتنا الجديدة.

«أنت حقاً بارعة!» قالت لها بإعجاب. «كما لو أن يديك قد نفختا فيها الحياة».

«إن زوجة مثلك لهي قادرة بلا شك على تحضير كافة أنواع الخضروات المخللة أيضاً...» أردفت السيدة العجوز «ما» وهي كانت حاضرة تستمتع معنا بدفء المنزل الجديد.

كان زو رويشينغ يمص قطعة من الحلوى، جالساً بصمت على كرسي خشبي بلا ظهر.

أخذ الجميع يرجونه ليعزف لحناً على آلته لكنه كان يرفض قائلاً: «ليس هذا بالوقت المناسب على الإطلاق...»

«وهل أن عزف أغنية يتطلب وقتاً مناسباً؟...» ردد الجميع وهم يصرّون على معرفة سبب رفضه هذا. أنا وحدي فهمت السبب.

في اللحظة الأكثر صخباً من الحفلة، دخل إلينا أمين سر الحزب كاو كزوي: «هاي، يا هوانغ، كزيانغجيو لقد قمت بإنجاز رائع حقاً. قال وهو يجول بناظريه في أنحاء المكان وابتسم لها مضيفاً: «إن غرفتي المستودع هاتين تبدوان رائعتين».

التقط هاي ـ تز سيجارة من على شرشف الطاولة النظيف وقدمها له: «حضرة أمين السر هذه لك. أترى كيف أن الناس تحت أمرتك الذكية، يبدون استعداداً كاملاً لأن يتجذروا في أرض جديدة، وأن يجعلوا من هذه المزرعة دياراً لهم؟»

«إنك لفصيح جداً هذا اليوم. ولكن، احتفالاً بسعادة هوانغ كزيانغجيو، سوف يسرني أن أدخن هذه السيجارة. في النهاية، أنا الذي أتيت بها إلى هذه المزرعة...»

كان كاو كزوي يتصرّف بحسب ما تمليه الشكليات الرسمية، إذ اكتفى بتوجيه التهاني إلى هوانغ كزيانغجيو وحدها. فهي قضت عقوبة في الأعمال الشاقة ولكنها لم «تُلبس القبعة» أما أنا فقد أُلبست قبعة وكنت إذ ذاك أحمل هوية مزدوجة. في مناسبات مماثلة كان أمين السر حريصاً على التمييز بين الرتب والمنازل.

وقفت إلى جانب الستارة القماشية البيضاء وابتسمت. كانت ابتسامتها مشرقة رائعة.

انتهت الحفلة، جلست على حافة السرير الجديد وأنا أدخن. بقيت في الغرفة الأخرى لتزيل ما تبقى من بذر البطيخ والحلوى. وكان يتناهى إلى مسامعي رنين أصوات بين الفينة والأخرى. كان الرنين بعيداً كما لو كان يصل إلي من حلم. كان هذا صوت

زوجة ـ ولم تكن لتصدره يدا أي إنسان آخر.

«امرأة»، قلت لنفسي متأملاً: «كانت الكلمة تعني أكثر مما تصورته. كان لها صوت وروح وحقل مغنطيسي. كان لها نفسها الخاص ونكهتها المميزة».

كانت تترك رائحة منها على كل ما تلمسه فتضفي عليه سحرها الخاص. كانت حاضرة بكليتها في كل غرض في غرفتنا. كل ما كان في هذ الغرفة، باستثناء الصور المزعجة، كان بمثابة الحياة التي ابتدعتها هي.

إن الحياة ليست إلا عبارة عن أشياء كهذه: سرير، غطاء للسرير، رف للكتب مصنوع من نصف باب، علاّقة للثياب في أسفلها ورق أبيض، كريم للبشرة كتب على زجاجته «زهرة الثلج». العالم الذي ابتدعته كان يغمرني، إلى أن شعرت بفقد هويتي. لقد اخترقتني تماماً كما اخترق المنشار الباب الخشبي ليشطره شطرين. لقد عملت على شطري وقطعت عني كل ماضيّ.

2

أطفأت النور في الغرفة الخارجية، أزاحت الستارة ودلفت إلى الغرفة.

«هل تشعر بالنعاس؟» سألتني مبتسمة كما لو أنه قد مضى على عيشها معي سنوات عديدة.

«لا، ليس تماماً»، قلت. «وأنت هل تشعرين بالنعاس؟ سأقوم بتوضيب السرير».

«لا لن تفعل ذلك. من سمع برجل ناضج يقوم بتوضيب السرير؟» صعدت إلى المصطبة وشرعت في ترتيب الشراشف.

«اذهب لتستحم ـ لقد حضرت لك المياه»

أيقنت من قولها هذا أمرين: الأول أني، من الآن وصاعداً، لم أعد مضطراً لتوضيب سريري وثانياً إن ما سمعته «حماماً» كان شرطاً أساسياً لما سيحصل بعده.

حين عدت من حمامي، وجدتها تتكاسل في الفراش. يا للسرعة! صعب علي أن أعرف ما العمل. كان على السرير غطاء واحد ووسادتان. يا للعجب أن يكون على أحدهما رأس امرأة. لن

يتمدد إلى جانبي رجل بعد اليوم، إنما امرأة. سوف ترقد إلى جانبي ولن يأتي أحد ليفرّق بيننا، بيد أني وجدت كل هذا أمراً مستغرباً. لا بد أن يكون ثمة تسلسل منطقي لكل ما يحدث. أشعلت سيجارة ورحت أتأمل بكل هذه الأمور.

«هل ما زلت تدخن؟» لم يكن في سؤالها نبرة تأنيبية، كانت تطرح علي سؤالاً ليس إلا.

«لا أشعر بالنعاس» ابتسمت لها معتذراً. «أشعر بإثارة كبيرة».

على الأرجح أنها ضحكت هي الأخرى ولكني لم أسمع صوت ضحكتها.

«لماذا أردت الزواج مني يا كزيانغجيو؟» سألتها وأنا أنظر إليها جالساً على حافة السرير. كانت عيناها تحدقان في الروافد. صمتت للحظة قبل أن تسألني: «ولماذا أردت أنت أن تتزوجني؟»

«هل ما زلت تذكرين ما حصل لنا منذ ثماني سنوات وسط القصب؟...»

ضحكت لسماعها هذا السؤال، وشعرت بالغطاء يرتعش فوقها. «آه أما زلت تذكر هذا؟»

«بالطبع أذكره. لم أنسه يوماً».

«أنا قد نسيته منذ زمن بعيد»، جرحتني كلماتها تلك وقد تفوهت بها بحدة. إنها قد نسيت.

شعرت بالكآبة تغمر قلبي رغم أني كنت على يقين بأنها لم تكن لتنسى.

«لا لم تنسي. وإلا كيف كان لك أن تتعرفي إليّ حالما رأيتني؟»

«تعال، تعال إلى السرير». قالت برقة وإلحاح. «ما جدوى الكلام

عن كل هذه الأمور طالما إننا معاً في هذه اللحظة. فلنفكر كيف سنعيش من الآن وصاعداً».

كيف سنعيش. شرعت أخلع ثيابي بشيء من الحرج. كان لدي الكثير لأقوله، كان بمقدوري أن أتفوه بكم هائل من الكلام العاطفي وجلّ ما فعلته أني تركتها تقودني إلى حيث تشاء.

«أجل، كيف نمضي أيامنا»، كانت تستلقي على ظهرها، وجسدها بكامل استقامته. «براتبينا معاً، يمكننا أن نعيش حياة لائقة. على الأقل يمكننا أن نعيش أفضل من الأكياس العتيقة التي تنتقل في الخارج، أولئك النسوة اللواتي لا يملكن سوى الأفواه! أنا لا أكنّ احتراماً لأي منهن». فجأة أصبح في نبرة صوتها الكثير من الازدراء. بدا لي وكأن حياتها من الآن وصاعداً سوف تتمحور حول منافستهن على كيفية «تمضية الأيام» وكان واضحاً أنها في هذه المنافسة، كانت مصرة على الفوز.

النساء. آه من النساء. لسوف أتمكن من فهمهنّ شيئاً فشيئاً. كنت خلعت قميصي وبنطالي وجلست بالقرب منها متكئاً إلى الحائط. أردت أن أنهي السيجارة وأطيل هذا الوقت قدر الإمكان، إذ أن هذه اللحظة بدت لي وكأنها من لحظات الحياة التي تستحق أن نتريث عندها.

كانت هنا إلى جانبي. شعر طويل أسود ينتشر على وسادة بيضاء ناعمة، عينان مشعتان تنظران إلى الأعلى، إلى تخوم مساحة قريبة. هل يا ترى كانت هذه المساحة لتتحرك بالصور الجميلة في ذهنها؟ كانت عيناها السوداوان تحدقان في البعيد، تتمسكان بالأمل والتوقعات وبالحذر أيضاً، وكانت هي في ترقب وانتظار وكأنما تحضّر نفسها للقاء قادم.

كانت خطوط جسدها بارزة على غطاء السرير.

كانت قساوة الآلات الحديدية تتناقض وتقوّس ثدييها وبطنها الصغير، فيبدو المشهد مثيراً للضحك. امرأة ذات قدرة عجيبة على التكيف وقدرة على تحمّل الأعباء مهما كان حجمها. تحولت الصورة إلى حقيقة. توارت إلى حيث ألوان أحلامي؛ أحلام لم تحكم سيطرتها عليها يوماً.

وأدركت أن للحقيقة قدرة أكبر على التأثير بي.

«تعال» قالت. رفعت الغطاء فتبدى أمام ناظري، تماماً كما رأيته وسط القصب، جسدها الرائع...

«لعلني مهتاج أكثر مما ينبغي».

لم أقل هذا إلا لكي أخفي خجلي وفزعي.

كان أمامي مستنقع يغلي وكنت أصارع للخروج منه. كانت هذه حمم بركان ملتهبة، رائعة الجمال ومرعبة في آن. حيوان النوتي الجميل مد مجساته فجأة من الجدران وراح يلفني محاولاً إغراقي. كانت هذه اسفنجة مضيئة التصقت بمرجان أبيض وراحت تحاول امتصاص كل السوائل من جسدي. كانت هذه حديقة عملاقة كما في قصص الأطفال. كنت أعيش أقدم القصص الشعبية وأكثرها نضارة وجاذبية... إن الصراع الأول في تاريخ البشرية لم يكن بين رجل وآخر أو بين رجل ووحش. الصراع الأول كان بين رجل وامرأة.

كان صراعاً لا يتوقف لحظة ولا يزال مستمراً إلى الآن. لم يكن يتطلب القوة فحسب إنما أيضاً روحاً حيوية وعواطف وإحساساً فنياً فطرياً لإيجاد التوازن وبلوغ الوحدة والتناغم وتحقيق الكمال، مع الاحتفاظ باستقلاليته الذاتية. في هذا الصراع فشلت وخسرت

أيضاً فرديتي واستقلاليتي. كان العرق يتصبب من كافة أنحاء جسدي كما لو أني خارج للتو من الحمام.

والغريب أن أسفل قدمي كان بارداً. خفق قلبي للحظات وقلت لها أخيراً: «أريد أن أشرب».

«أنت ميؤوس منك! ما زال أمامنا الكثير لنفعله!» ورغم ذلك نزلت من السرير وتوجهت لتسكب لي كوباً من المياه. سمعت صوت المياه ينسكب في الكوب وكأنه تلاطم معدني صاخب.

«هاك!» قدمت لي الكوب ورحت في العتمة أتلمس طريقي لألتقطه بيد وفي الوقت عينه لأمسك ذراعها باليد الأخرى.

«أنا آسف». رددت لها. رغبت في جرها لتجلس إلى جانبي، بيد أنها تفلتت من قبضتي وصعدت إلى السرير من جديد لتختبىء تحت الغطاء.

«وما الداعي للأسف؟ سوف نحاول في المرة القادمة». لم أتمكن من رؤية وجهها ولكن صوتها كان بارداً. أمضينا الأيام القليلة التالية بهدوء، وحاولت أن أميز حجم السعادة التي تحتويها. كان ثمة من يحضّر لي الطعام وودعت تناول الطعام في الصالات الجماعية بعد أن اعتدته طوال الأعوام الثمانية عشر الفائتة. بعد أن كنت أرافق الأحصنة إلى زرائبها في المساء، وأسير عائداً إلى مسكننا، كنت أجد طبقاً شهياً بانتظاري في كل ليلة على طاولتنا الجميلة. ورغم أن مقومات الأطباق لم تتغير عن ذي قبل، إلا أنها كانت تضفي عليها نكهات مميزة وألواناً جديدة.

«لو استمررت في الأكل بهذه الطريقة، لسوف لن تكفينا حصصنا بعد اليوم» كانت تقول لي وكنت أفهم هذا على أنه تشجيع لي لألتهم المزيد.

أمام منزلنا، سويت قطعة صغيرة من الأرض. على جوانبها نمت أعشاب طويلة كانت تعكس أشعة غروب الشمس في المساء، ومن بعدها تدريجياً ضوء القمر فتبدو كحائط بلون الكهرمان. بعد تناول الطعام، كنت أجلس في هذا المكان وأستغرق في أحلامي.

يوم زواجنا، كان جاء إلى البلدة بائع متجول على دراجته يبيع البطات الصغيرة. اختارت أربعاً منها ولما حملت تلك المخلوقات الصفراء بين يديها قالت بسعادة: «فلنأمل أن تكون كلها أناثاً». وفي اليوم ذاته حصلنا أيضاً على هر صغير: أصرّت الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين على أن منزلنا، ذلك المستودع القديم، كان على الأرجح يعج بالفئوان فأحضرت لنا هراً صغيراً فطم للتو عن والدته.

كان هراً رمادي اللون مخططاً بالأبيض راح يلعب ويموء على تلك البقعة الصغيرة من الأرض ومعه البطات الصغيرة تبطبط وتتأقلم شيئاً فشيئاً مع مساحتها الجديدة. أصبحنا فجأة عائلة واحدة؛ أنا أيضاً شعرت بهذه الحياة الجديدة.

أثار تعاطفها معي الشكوك في نفسي. كان نوعاً من الشفقة يختبىء وراء عنايتها المفرطة ولم تكن ابتسامتها طبيعية، وشعرت بالدونية، إزاءها. وهذا قد أفسد عليّ شعوري بالهناءة، وبدأت أتساءل هل أن السعادة هي مجرد أن تأكل جيداً وتنام في مكان أفضل من ذي قبل؟ حتى أني فقدت ذلك الاكتفاء الذاتي الذي كنت وجدته لنفسي في الوحدة.

المناظر عينها كانت لا تزال أمامي: غروب الشمس، الغيوم فوق التلال البعيدة، الخروف العجوز بصوفه المتجعد الذي تهزه النسمات، الغبار المتصاعد طويلاً قبل أن يستقر على الطريق، ذلك

الذي تثيره حيوانات صبورة تجهد لجر العربات بينما الأسواط تنهال على جلدها... كل ذلك أثار في قلبي ألماً لم أعهده من قبل.

في كل ليلة، كانت تتقلّب في الفراش إلى جانبي وكمثل حيوان مفترس أُطلق إلى الحلبة، كانت تنتظر مني أن أقوم بخطوة ما.

بكل كبرياء وميل ظاهر إلى المشاكسة، كانت تترقب محاولتي للاستيلاء عليها، بيد أني منذ الليلة الأولى، أدركت أني كنت فقدت القدرة على ذلك.

هل يعقل أن يكون نوعاً من الحاجز النفسي؟ حاولت عدة أساليب لأخفف من وطأة الجو الذي جعل يزداد توتراً.

انتهزت فرصة غيابها في أحد الأيام، وعلقت جرائد جديدة فوق الجثث المكومة. بدّلت غطاء الجرارين بغطاء جديد بحجة أن الجو أصبح حاراً.

ماذا كان علي أن أفعله غير تنحية الجثث والجرارين؟ كان يشلّني القلق وفي كل مرة كنت أترقب بهلع «المرة القادمة».

بعد انقضاء عدة ليال، وبينما كنا نستلقي على السرير، أمسكت يـدي وراحت تقـودها برفق إلى بحيرات غريبة. تولت هي القيادة.

قارب صغير وسط البحار الهائجة يحاول الإبحار إلى شواطىء الأمان. كانت الأمواج الدافئة تعلو وتهبط فيما تجتاحني ارتعاشات من أعماق المحيط. وفي غمرة ارتعاشي، تحولت إلى مكتشف لأماكن جديدة: هنا هضبة صغيرة يكسوها ضباب رقيق دافىء، هنا شلال يندفع إلى أرض رطبة ناعمة. هنا لم تكن أي كلمات لتشق طريقها إلى المفاهيم المنطقية: هنا كانت المرحلة البدائية من

الشواش. كنا مادتين بلا شكل من الجبلة الأولى، تثيران الارتعاش في شعيرات جسدينا. كان كل شيء وكأنما طالع من رزم أعصاب صغيرة ترسل موجات كهربائية إلى كافة أنحاء جسدي... شرع رأسي يخفق خفقاناً مؤلماً.

«هل أنت مريض؟» زفرت زفرة عميقة قبل أن تسألني وتدفعني بعيداً عنها.

«لا أدري...» رحت أدلّك صدغيّ وقد آلمني خفقانهما العنيف. «لم يسبق لي أن...»

«أحقاً لم تقم بهذا من قبل؟»

«أبداً» قلت لها لاهثاً.

جلست قبل أن أرفع عني الأغطية بحركة عنيفة، وكنت بدأت أشعر تحتها بحرارة خانقة كما لو كانت حماماً بخارياً. وشعرت بعدها بشيء من الارتياح.

«هل لأنك في الماضي كنت عاجزاً عن ذلك أيضاً أم لسبب آخر...»

«لا. ليس الأمر كذلك». شعرت وكأني متهم في قفص حين بدأت الدفاع عن نفسي.

«ذلك لأن الفرصة المناسبة لم تتقدم لي من قبل...»

«وبعدها» ترددت قليلاً قبل أن تضيف: «لم أكن أنوي إثارة هذا الموضوع ولكن ماذا عن الأعوام الثمانية الفائتة؟»

«الأعوام الثمانية...» بالكاد استطعت التركيز وحتى لو نجحت في ذلك، لم يكن ثمة من سبيل لشرح الأمر. حتى أنا لم أكن فاهماً.

نهضت من على السرير ومددت يدي لأتناول سيجارة. انبرت فجأة قائلة «أعطني واحدة أنا أيضاً». ومضت شعلتان في العتمة سرعان ما انطفأتا لتبقى نجمتان مضيئتان في وسط الظلام.

دخنت نصف سيجارة قبل أن أقول: «أعتقد أن السبب عائد لكبتي طوال مدة طويلة».

«كبت! ماذا تعني بذلك».

راحت تمج سيجارتها بعنف، وخيّل إلي أنها بصقت هذه الكلمات في وجهي.

«كبت تعني... القمع، الكبح».

أطلقت ضحكة ساخرة وهي تقول: «إن معجم ألفاظك لجدير بالإعجاب».

لم يردعني رادع وتابعت قائلاً: «أنت تعرفين مثلي أن كل الأحاديث في مخيمات العمل لم تكن لتدور إلا حول هذه الأمور ليس إلا. ولكني حين كنت أسمعهم يتحادثون في الأمسيات، كنت أسارع إلى لجم نفسي وأحول تفكيري إلى أمور أخرى. ومن ثم في مهجع العازبين، كان الأمر مماثلاً ولما كان الآخرون يشرعون في إطلاق النكات البذيئة، كنت أستغرق في قراءة كتاب وأفكر بالمشاكل السياسية. ولما كنت أعمل على كبح نفسي بهذه الطريقة، رحت شيئاً فشيئاً أفقد القدرة...» لم أقتنع أنا نفسي بالعبارة الأخيرة فأردفت مضيفاً: «لا شك أن الأمر سوف يتحسن تدريجياً...»

«وإلى أين أوصلك كل هذا التفكير؟ إلى أين قادتك كل الكتب؟ التفكير والقراءة. ها! ما نفع كل هذا؟»

«إن للناس عقولاً ولذلك يتوجب عليهم أن يفكروا. أو تعتقدين أن حياتنا يمكنها أن تستمر بهذه الطريقة إلى الأبد؟ هل يمكن أن تستمر بلادنا على هذا النحو»؟

«اصمت. أنت لا تجيد سوى الإطناب في الكلام. ليس بمقدورك القيام بأي شيء».

رمت سيجارتها على الأرض الترابية وارتسم في العتمة قوس أحمر. «إن الآخرين يفكرون ويقرأون هم أيضاً، ولكنهم ليسوا بعاجزين مثلك. سمعت أن هناك رهباناً عجائز كرسوا نصف حياتهم للتراتيل البوذية ولم يعاشروا امرأة، بيد أنهم ما إن كانوا يركبون على إحداهن حتى يمارسوا معها الجنس من دون أي مشكلة. إن ثمة مثلاً شائعاً يقول: «كالذئب حين تكون في الثلاثين، وكالنمر حين تكون في الأربعين» وبالتالي فعليك أنت أن تكون كالنمر. لايمكنك خداعي. أعتقد أنك تعاني من هذه المشكلة منذ ولادتك».

شعرت فجأة بعدائية تجاهها: «بالطبع لديك خبرة أكثر مني في هذا المجال». بيد أني لم أحقق أي انتصار بقولي هذا، فقد أصبحت هي وجسدي، كلاهما عدويّ. «حتى أنك كنت تفكرين بالجنس منذ ثماني سنوات في المخيم...»

«لماذا تثير الكلام على الماضي أيها المعتل! أنت نصف رجل!» أصابت كلماتي الموقع الحساس وتضاعف غضبها. «منذ ثماني سنوات... ها! لو أنك حاولت شيئاً في ذلك اليوم، لسارعت إلى التبليغ عنك إلى القائد وانغ، وجعلتك تتذوق طعماً إضافياً للعقاب! أنا كنت أفكر في جمع أكبر عدد ممكن من نقاط الجدارة

والاستحقاق! وأنت اعتقدت بأني كنت أشتهيك وأحبك».

«يجدر بك أن تبول بريكة من المياه وتنظر إلى نفسك فيها».

انفصلت الصورة عن الواقع انفصالاً تاماً.

3

بلا أي إنذار مسبق، وجدت نفسي عالقاً مع حصاني في بركة من الوحل، كان فرساً أرقط اسمه «الرقم ١٠١» وكنت انطلقت على ظهره في نزهة قصيرة.

غاص حافراه الأماميان في المستنقع الخفي وتبعهما رأسه ونصفه الأمامي. راح بحافريه الخلفيين، يحاول غريزياً تغيير اتجاه جسده ولكنه كلما كان يجهد في محاولاته، كان يغرق أكثر فأكثر. رحت أحثه على التقدم، وأنا أجلده بسوطي وأضرب جنبيه بالركاب في قدمي. ارتفع رأسه وانتصبت أذناه ومن على ظهره كان بوسعي رؤية نظراته الحائرة المتوحشة. غمر الوحل كل أعضائه وراح يغرق أكثر فأكثر. لم يعد من جدوى في ضربه فنزلت عن ظهره وتوجهت إلى ضفة مكسوة بالأعشاب ورحت أراقب.

كنا تقدمنا، من غير قصد منا، إلى حفرة مغطاة بالأعشاب كان أحدثها تصدع في إحدى القنوات. ورغم أن الصدع قد رمم، إلا أنه كان لا يزال يرشح مياهاً حملت معها الوحل والتراب. وبمرور الوقت، نمت طبقة من الأعشاب والقصب وغطت سطح الحفرة

جاعلة الوحل غير المستقر يبدو وكأنه أرضٌ صلبة.

لطالما كنت أنجح في تحاشي هذه الأشراك الطبيعية ولكني اليوم، وبسبب ذهولي، وقعت أخيراً في الفخ. كنا نركب الأحصنة في الفترة المسائية. وكانت أشعة غروب الشمس تنعكس بلونها الذهبي على الأشجار والأرض وتلتقط تموجات المياه على المستنقع. بدأت الضفادع تشعر ببرودة المساء، فشرعت تطلق نقيقها الصاخب.

توقفت الحيوانات الأخرى عنوة، بإيحاء من دامبو، وأدارت رؤوسها لتنظر إلينا لتقول: «ماذا تفعلان بحق السماء؟ عليكما الإسراع في العودة إلى الزريبة ـ سوف ينقض عليكما البعوض في أية لحظة!»

«هاي! صرخت له». عد بالحيوانات الأخرى وسوف أعمل على إنقاذه ونلحق بكما في ما بعد. لا تنتظرني ـ أحسب أن الأمر سوف يطول». فكرت في أن أطلب منه الذهاب لرؤية كزيانغجيو وإعلامها بأني سأتأخر في العودة، ثم تذكرت بأنه غير قادر على الكلام.

لم يكن قادراً على الكلام، ولكنه كان يفهم كل شيء. ضرب بسوطه وانطلق عائداً بالخيل إلى زرائبها. بعد رحيله، خيّم الصمت على الأرض من حولي. شرع الفرس الأرقط يطلق نواءً متوحداً منتحباً، ويرمقني بنظرات واسعة حزينة. ثم خفض رأسه ليريحه على أعشاب البرك، وراح يترقب أوامري. شرع البعوض يحوم حول رأسي بطنينه المشؤوم فأشعلت سيجارة لأبعده عني وبقيت جالساً على حافة القناة.

حلّق سرب من الغربان فوق رأسي في طريق عودته من الجبال. رأيت أرنباً برياً رمادي اللون يقفز في حقل بعيد. أخذت ظلال

الأعشاب والأشجار والأرنب البري والفرس الأرقط العجوز وجسدي وكل شيء من حولي، تطول وتمتد لتتراخى بكسل على الأرض. وكأن العالم كان يعزف نغماته على سلم موسيقي ثانوي. حتى دخان سيجارتي لم يكن ينتشر من حولي بل كان يتصاعد في الفضاء في خط مستقيم ليتوارى من بعدها في الخواء.

خطر لي أن أنتزع السرج من على ظهر الحصان، فيتسنى له استجماع قواه للمحاولة التالية. استخدمت سكيني لأقطع حزام السرج من على قطعة الأرض الصلبة التي أقف عليها والسيجارة تتدلى من شفتي.

انتزعت السرج بحذر شديد حتى لا أسقط أنا أيضاً في الحفرة. انبعثت من ظهره رائحة عرق الخيل، قوية وأليفة. ألقيت السرج على الأرض وجلست عليه وتركت الحصان يرتاح قليلاً.

كنت دخنت خمس سجائر حين بدأ الليل يلفنا بستاره الشائك الذي التصق به، ثم انتقلت إلى ذنبه الذي كان يهف باتجاهي. هبّت عصفة ريح أشبه بروح فضية وراحت تدوّم في شجرات الصفصاف المتدلية على ضفاف القناة ثم مدّت ذراعين عملاقين لتعمل على إغاظتي أنا والحصان. رفع الحصان رأسه ثم خفضه كما لو كان يتوجه إلى الروح بتحية احترام وإجلال.

«آن الأوان لأتصرف»، فكرت في نفسي ثم رحت أقتطع بعض الأعشاب لأجعل منها موطئاً صلباً لقدمي. «حسناً يا صديقي، فلنبذل أقصى ما بوسعنا قلت له مضيفاً: «سوف أتمسك بذيلك وأدفع بكتفي كفلك هذا، تماماً كما حين علقت في بركة المياه المتجمدة في ذلك السهل، أو تذكر؟ حسناً فلنبدأ!» بدا ذنبه الكثيف أشبه بقطعة خشبية صلبة يصعب على المرء التصديق بأنه

طالع من لحم حي. واحد، اثنان ثلاثة! رحت أدفع بكتفي مستعيناً أيضاً بحذائي الصلب لأضرب به كفل الحصان بين الحين والآخر.

بدا وكأنه فهم ما يتوجب عليه فعله وراح يواكب جهودي ويحاول الاندفاع إلى الأمام. بدا صوت الوحل وهو يتحرك تحت حوافره وكأنه شبح مدفون أيقظته فجأة قوانا الشريرة. رحنا نحول الاندفاع في كافة الاتجاهات وفاق عدد محاولاتنا العشرين. بدا الوحل وكأنه يذوب ويجري في مادة لزجة فيما الأعشاب تلوي رؤوسها وتغرق تحت سطح المياه.

في نهاية المطاف، كان علينا الإقرار بهزيمتنا. توقف الفرس العجوز عن المحاولة وكأنه يشير إلى إدراكه حجم مأزقه الكبير.

ألقى رأسه على الأعشاب وهو يلهث من شدة التعب. جلست القرفصاء على الضفة وأنا أهوّي بقميصي وأمسح العرق عن وجهي. «ما العمل؟ هاي، يا صديقي هل سنمضي الليلة بطولها في هذا المكان؟»

غرق المكان في العتمة وامتزجت كل المشاهد في مشهد واحد. الحقول، الجبال، الأشجار، أصبحت كلها واحداً، ولم يكن بمقدوري تمييز بصيص نور واحد. خيّم الظلام بغموضه وأسراره على كل الأرض.

فجأة سمعت إلى جانبي صوتاً بدا لي غريباً وأليفاً في آن. «يا صديقي، لا تدّعي أنك مهموم وقلق إلى هذه الدرجة. إن البشر لبارعون حقاً في تزوير الحقيقة». رفع الفرس العجوز رأسه وراحت إحدى عينيه تحدّق فيّ وهو يقول: «أنت لا ترغب في العودة إلى المنزل مثلي أنا تماماً. لم يمض على زاوجك إلا شهر واحد وها أنت وزوجتك تنامان منفصلين كلّ على حدة هل أنا محق؟ أنت خائف

ـ خائف من الليالي تماماً كما أنا خائف من أن أشد إلى عربة».

من شدة ذهولي، وقعت على ظهري فالتطمت مؤخرتي بالعشب الرطب البارد. «هل تستطيع الكلام؟»

«ها، ها». راح يضحك مني بلهجة عنيفة ساخرة: «انظر إلى نفسك، إنك تخشى أن تكون قد فقدت صوابك. لا تنس أن ثمة مكبراً للصوت على مقربة من زريبتي ومذ وصلت إلى هذه الأرض، وأنا ألتهم الملصقات بأحرفها الضخمة. صحيح أن لمذاقها شيئاً من طعم الحبر ولكنها على الأقل مصنوعة من الألياف النباتية، وهي أفضل بكثير من تلك الأعشاب التي يحاول ملقمو الخيل المستهترون، دسها لنا وإجبارنا على التهامها. وقد اكتشفت بعد كل ذلك، أننا نعيش في عصر لغوي لم يسبق له مثيل. أنتم البشر تشهدون انحطاطاً في المجالات الأخرى. ولكنكم خبراء ولا شك في فن الخطابة. وبحسب القول المأثور: «من يحوم حول الزنجفر يتبقع بالأحمر ومن يحوم حول الحبر يتبقع بالأسود».

بعد كل هذا التثقيف والتنوير، إنه لمن الطبيعي أن أتعلم الكلام!

لم يكن بمقدوري سوى التفوه بكلمات مليئة بالشك والريبة: «لا أصدق هذا».

«هذه مشكلتكم أنتم البشر، إنها نقطة ضعفكم الأساسية وعليكم العمل على معالجتها. يتوجب عليكم أن تتعلموا منا بعض الصمت؛ أن تتعلموا كيف تراقبون الأحداث بعين موضوعية ناقدة. إنها الطريقة الصحيحة ليهتدي الواحد إلى العالم باتزان ورباطة جأش».

سألته «إذاً لماذا فتحت فمك لتتكلم اليوم؟».

«أعرف أنك لا ترغب في العودة إلى منزلك».

أجابني وهو يطلق شخيراً مزعجاً «أما بالنسبة إليّ فأنا لا أرغب في العودة كذلك. أحياناً نتشابه نحن وأنتم. نشعر بحاجة إلى إقصاء أنفسنا والابتعاد عن الآخرين.

نشعر بحاجة إلى السكينة لكي نعيد النظر في كافة الأمور. إن الفلسفة قد تناولت هذه النقطة كما تعرف وأكدت على أوجه الشبه بين سلوك البشر والخيل».

لم يكن بوسعي إنكار حقيقة ما كان يقوله فقلت بصوت مرتفع: «صحيح أني في لا وعيي، لا أرغب في العودة فأنا بحاجة لأن أنفرد بنفسي هنا في هذا العراء، وأحاول إعادة النظر في كل شيء».

«لربما يمكنني مساعدتك؟» سأل بلهجة متواضعة وكأنه تلميذ مطيع: «لم أعش تسعة وثلاثين عاماً كمثلك أنت، ولكن بين جنس الخيول، أعتبر من الأكبر سناً. وحين قيل إن الفرس العجوز يعرف الطريق، فإن هذا الكلام يشير إليّ أنا. قد نتمكن معاً من القيام بمحاولة».

«حسناً بما أنك تعرف الكثير، بماذا تنصحني؟» سألته.

«يا عزيزي، يا عزيزي». أجابني وهو يصدر بشدقيه قرقعات غريبة «أولاً أنا أتعاطى معك بشكل كلي. أنت وأنا نعاني من المشاكل عينها. أعتقد أنك على علم بأن البشر خصوني بوحشية حين كنت أصغر سناً». «أجل أعرف ذلك، أجبته، ولكني أنا لست بمخصي. لازلت أحتفظ بكامل عدتي ولكني فقدت القدرة على استخدامها. ولذلك لا علاقة لي بما تعاني منه أنت».

«قبل خصائي، لم يكن يلزمني أكثر من صهيل صغير أو نفحة

من رائحة فرس حتى أشعر بإثارة كبيرة تجتاحني. ولم تكن لتقف في وجهي المسافات البعيدة أو الحواجز العملاقة حتى أذهب للقائها.

لم يكن عضوي يعاني من أي مشكلة بل كان يحقق غايته على نحو لا يخطىء وينقلني إلى عالم من اللذة عصي على الوصف والمقاومة. بعد خصائي، فقدت كل رغبة في ممارسة الجنس ولم يعد أي شيء قادراً على إثارة اهتمامي. وكما يقال ما من أسى أكبر من موت الروح. أنتم البشر، إن وحشيتكم الغادرة قد محت الأمل الذي كنت أحمله يوماً في قلبي. يا رعاتي الأعزاء، عليكم أن تتمعنوا جيداً في أحوال قلوبكم أنتم، وتحاولوا أن تقيّموا ذواتكم بجدية فائقة».

«لا، قلت له . أنا وأنت مختلفان. أنا لا أزال أحمل في داخلي الأمل الذي فقدته أنت. كان أملي كبيراً في المرة الأولى والثانية وحتى في المرات الأخيرة التي أرادت فيها مشاركتي المتعة بملذات السرير. ولكني في الآونة الأخيرة، بت أشعر بغضب عارم ورعب كبير بسبب عجزي».

أطلق الحصان ضحكات متقطعة باردة وقال:

أنت قلق أكثر مما ينبغي حول هذه النقطة بالذات. أولا تعتقد أن الأمر تافه ومبتذل؟ ما أحاول بلوغه شخصياً هو حالتك النفسية الإجمالية. إن هذا النوع من العجز لا شك يؤثر على نشاطاتك الأخرى. أنت رجل مثقف وتعرف جيداً أن مقاربة شاملة للأمور هي الطريقة الوحيدة لتحليل الأنظمة المختلفة. إن البشر والعالم وحدة متواصلة: إذا صادفت المشاكل نظاماً واحداً معيناً، فإن ذلك يترك أثره واضحاً على الأنظمة الأخرى. هل ما زلت تشعر بأنك

متمسك بالمعتقدات والمثاليات والطموحات ذاتها؟»

«لا أعتقد أن معتقداتي قد تأثرت بشكل أو بآخر». قلت هذا، وكنت أعي أني غير واثق من كلامي فأردفت: «خذ سي ماكيان على سبيل المثال، فهو بعد أن عوقب بالخصي ظل قادراً على إبداع عمله الرائع «حوليات التاريخ».

دوّى شخيره الساخر في الأرجاء وقال: «أيها الراعي العزيز، لحسن حظك أنك رجل آداب».

لقد ارتكبت في هذا خطأً في المنطق الصوري.

إني أعرف كل شيء عن سي ماكيان هذا:

أثناء «حركة انتقاد كل المحافظين والكونفوشيوسيين»، كنت أسمع عنه يومياً عبر مكبرات الصوت. ما سمي آنذاك «بالعقاب بواسطة الخصي» كان إجراء جسدياً بالياً وكان تأثيره على القوى الذهنية كمثل مهماز يحثها على المضي قدماً وإتمام ما هو معروف الآن بـ «حوليات التاريخ». باعتقادي، إنه لم يكن ليكتبه قط لو لم يُخْصَ. إن العالم قد فقد واحداً من أعضائه المنتجة ولكنه ربح عملاً أدبياً رائعاً. إنه المثال الأدق لما تنصح به مكبرات الصوت باستمرار حول تحويل الأمور السلبية إلى أخرى إيجابية. بيد أنك تواجه شيئاً مختلفاً.

أنت تشبه أشقائي الذي يتوجب عليهم مواكبة أبناء جنسهم واقتيادهم إلى المسلخ: لم تنل شعرة منك رصاصة واحدة، لكن الجروح أصابت ذهنك.

إن الوهن قد استقر في رأسك وفي أعصابك وفي كل نقطة من أعماقك. أما زلت مقتنعاً بإمكانية مقارنة نفسك بسي ماكيان؟»

«لا، لا، أعتقد أنك على حق. أرجوك تابع» قلت له وأنا أحني رأسي.

«من جهة أخرى، وبمعنى ما، أنا وأنت متشابهان».

رمقني الفرس العجوز بنظرة عطوفة جعلت عينيه تومضان في قلب العتمة وتابع:

إن خصائي قد أخمد كل رغبات اللذة والتوق في قلبي ولكنه في الوقت عينه دفعني لأن أهذّب نفسي إلى درجة صرت معها قادراً على التحدث بلغة البشر. إن حالتك مماثلة لحالتي. فأنت حين كنت تقوم بالأشغال الشاقة في المخيمات، كنت تدرج على الاستشهاد بأقوال الآخرين ولم يكن أحد ليتأكد أنك حسن الاطلاع على أعمال ماركس وأنجليز ولينين وستالين وماو.

من جهة أخرى وعلى عكس سي ماكيان لم يقطعوا لك شيئاً، أعذرني أرجوك لو بدا كلامي فظاً ولكن الأذى في النهاية أُلحق بك نفسياً تماماً مثلي أنا. إن النتيجة النهائية هي واحدة: إن حياتك، مثلي أنا، أفلتت من سيطرتك، وأنت مضطر مثلي لأن تسمح للآخرين بإعطائك الأوامر وضربك والتحكم بك وركوبك . ها. ها. نحن فعلاً ثنائي مميز. رجل عاجز وحصان خصيّ! أرجوك أن تعذرني، إذ أن حس الدعابة عندي يحملني أحياناً إلى ما وراء الخطوط الحمر. في هذا أيضاً نحن متشابهان أعني صفتّي السخرية والهجاء اللتين نجمعهما من هنا وهناك...

أجل، يراودني حتى أن مجتمعكم الثقافي بكامله عاجز هو الآخر. لو بقي عشرة بالمئة منكم مكتملي الرجولة، فإن بلادنا لم تكن لتصل إلى وضعها المؤسف هذا.

لا أعرف ما شعورك أنت، ولكنني سئمت حقاً من سماع

مكبرات الصوت يومياً. هل يعقل أننا بالرغم من قدراتنا اللغوية الاحترافية الكبيرة، نعجز عن ابتكار شيء جديد؟»

«أوتعتقد أن حياتي انتهت؟» سألته بنبرة حزينة.

«وماذا تعني كلمة «انتهت؟» أجابني وهو يرمقني بنظرة فيها الكثير من الجدية والرصانة: «إنك تصل إلى هذه الأرض، تعمل وترى أشياء مختلفة، تأكل وتسمع كل غرائب الأمور: كيف، إنه، مثلاً، في وقت من الأوقات يتحول رئيس الحكومة إلى مجرم سجين وكيف يتحول سفاح وقاطع طريق إلى نائب رئيس حزب يضم عشرة ملايين من الرجال. ومن ثم تموت. إن حياة كل إنسان تسير مبدئياً بحسب نهج واحد. أنت محظوظ نسبياً لأنك تعيش في زمن لم يسبق أن شهدنا مثيلاً لسخافته. أو تعني أنك تطلب المزيد؟ أو ترغب أيضاً في إنجاب ذرية لك؟»

«لا، لا أرغب في هذا على الإطلاق. في حال، كما أشرت إليه لتوك، استمرت البلاد في مسرحيتها هذه، في مهزلتها هذه، فإن أي ذرية لي سوف تكرر بكل بساطة ما عشته أنا في قدري التعيس. الأفضل ألا تأتي ذريتي إلى هذا العالم على الإطلاق».

صالبت ذراعيّ وألقيت ذقني عليهما: «ما أعنيه أنه على كل واحد منا أن يضيف في حياته شيئاً إلى العالم، أن يقوم بمساهمة ولو صغيرة إلى البشرية...»

«آه، اسمعوا، اسمعوا! لقد عادت إلى الأضواء المشكلة القديمة» قاطعني الفرس العجوز وأضاف:

«انظر إلينا نحن الأحصنة، علينا يومياً أن نكدح مكبلين بالحبال ونسحب هذا ونجر ذاك. أوليست هذه مساهمة؟ أنتم البشر ترغبون

دائماً في إضفاء الألوان الزاهية على أكثر الأمور تفاهة. بإمكانكم أن تحولوا مرحاضاً إلى خبر يتصدر الصفحات الأولى، وهذه النتيجة المذهلة التي وصلتم إليها جاءت بسبب الدراسات المعمقة لأعمال الرئيس ماو».

«أنت لا تفهم ما أعنيه. أنا أتكلم على العمل الإبداعي وليس على الأوامر التي أتلقاها من الآخرين مثل شأنك أنت».

«وما الذي ترغب في إبداعه؟» راح الفرس العجوز يستنطقني.

«إن البشر ومثلهم الأحصنة وكل المخلوقات الحية، إبداعهم الأول والأساس يتمثل في استيلادهم لبعضهم البعض. وأنت عاجز عن ذلك حتى، وما زلت تفكر في الإبداع؟ أقول لك بصدق أن البعض منكم، أنتم البشر، يعملون طوال حياتهم بكل إخلاص وتضحية للذات ولا ينجبون أولاداً بيد أنهم يحتفظون بالقدرة على الإنجاب ويضحون بها لكي يبدعوا أشياء جديدة. أما أنت فلقد خسرت في الواقع تلك القدرة! إن حالتك النفسية تفتقد الاتزان والتناغم. أرجوك وأتوسل إليك أن تكف عن التظاهر بأنك ما زلت قادراً على الإبداع. وحتى لو أبدعت شيئاً، فلسوف يكون مشوهاً وقادراً على إلحاق الأذى بالبشرية بأكملها... أيها الراعي العزيز، أنت تشبه حصاناً صديقاً لي عرفته يوماً لم يكن خصياً بالمعنى الحقيقي، ولكنه فقد كل رغبة في اللذة. وفي نهاية المطاف، أصيب بالجنون بسبب تناقضات جسده بالذات، وسارعتم إلى التهامه، وما زال جلده معلقاً فوق روافد زريبتنا. أرجوك أن تضع حداً لهذا التوق إلى الإبداع الذي مازال مشتعلاً في داخلك. كن مسالماً، كن رجلاً متزناً، قادراً على السيطرة على نفسه، تماماً كما تعلمت

أنا أن أصير حصاناً مطيعاً. اعرف مكانك والتزم بالقوانين التي يضعونها».

«إذاً فهمت جيداً ما تعنيه فأنت تعتقد أنها على حق، أليس كذلك؟ أو تعتقد أني معاق ونصف رجل؟» أدركت أن الدموع بدأت تنهمر غزيرة على وجنتي الباردتين.

أطلق الفرس الأرقط العجوز تنهيدة طويلة من أعماقه وقال: «أجل. أخشى أن يكون ذلك صحيحاً. عليك أن تقر أنت بذلك لأنه واقع لا مفر منه».

إن سلطة القدر تتجلى حين يقع الناس في المشاكل، والقدر هو ما تعاكسه أنت. لقد تمسكت عبثاً بكل معتقداتك ومثالياتك وطموحاتك، بل الأسوأ من ذلك جعلتها تتحول كلها إلى ذلك الحاجز الذي يشكل اليوم مصدراً لقلقك وعذاباتك.

أنت تعرف، كما أعرف أنا، لماذا خصانا الناس. أرادوا أن يقتلوا فينا قوانا الإبداعية فنصير طيّعين لإرادتهم. لو لم يفعلوا ذلك لكنا حافظنا على إرادتنا الحرة، ولم يكن لذكائنا المتفوق أن يسمح لهم بشدنا إلى حبال العربات. حتى سي ماكيان نفسه قال: «إن الشعب الذي عوقب، فقد الشجاعة في خطابه». أي «إبداع» ذلك الذي يمكنك الكلام عليه بعد اليوم؟»

لم أكن أملك كلمات أواجه بها ما قاله لي. شعرت بالذل وشرعت أحشائي تزيد مرارة.

«آه»! فجأة رفع الفرس الأرقط رأسه في مواجهة الريح وأخذ نفساً عميقاً. «لقد شممت رائحة لذة شهوانية. إنها غير منبعثة من جسدك ولكن يبدو أنها تلفك. غريب! أيها الراعي العزيز، عليك أن تكون شديد الحذر. يجدر بنا الانطلاق الآن. لا أريد أن

تواجهك أي مشاكل أخرى، فأنت تراعي حقوقنا نحن الأحصنة ولو بصورة نسبية». بهذه الكلمات رفع بعنف حافريه الأماميين وسحب نصفه الأمامي من الوحل. رفع حافريه الأماميين برشاقة كبيرة على الأرض الصلبة على حافة الحفرة وشدّ ردفيه قبل أن ينهض بجسده إلى الضفة المعشوشبة. لم يلزمه سوى ثوان قليلة ليخرج نفسه من هذه الورطة. «هيا بنا» أدار رأسه نحوي وناداني قائلاً: «إن العتمة شديدة ويصعب عليك أن تتلمس طريقك لوحدك. سوف أرشدك إلى الطريق وما عليك إلا أن تتبعني. إن غرائزي لهي أقوى بكثير من غرائز الإنسان. في الواقع إن الانحطاط الأكبر الذي تواجهونه أنتم البشر هو في مملكة الحيوانات.

وأحد الدلائل على ذلك ميلكم الدائم إلى الاعتقاد بأنكم الأكثر ذكاءً. انطلق قدماً ضارباً الأرض بحوافره وأنا أجرّ نفسي وراءه حاملاً السرج على كتفي والسوط عديم الجدوى في يدي.

كانت الظلمة شاسعة وكأنها بلا نهاية...

* * *

كان الجميع نياماً حين وصلنا إلى القرية. الضوء الوحيد كان مصدره منزلنا، مشيراً إلى أنها كانت تسهر في انتظار عودتي. إنه لمن الأفضل أن يكون للمرء منزل من أن لا يكون له منزل على الإطلاق. على مدخل الزريبة، التفت الفرس العجوز الأرقط ناحيتي مجدداً وفتل شفته العليا مطلقاً صوتاً من بين أسنانه ينبهني بوجوب التزامي الصمت: «أيها الراعي العزيز، من الآن وصاعداً سوف أعود صامتاً وغبياً كما كنت من قبل. ومهما يكن، أرجوك لا تخبر أحداً بأني قادر على الكلام. لو علم رفاقي بمقدرتي هذه، فسوف يحسدونني فينهالون علي بالضرب والرفس حتى الموت. في الوقت

عينه، أرجوك، ولمصلحتك الخاصة، لا تبح بكل مكنونات قلبك حين تكون برفقة الآخرين. أخف معلوماتك واكتم أفكارك. إنها الطريقة الوحيدة التي تجعلك قادراً على صون حياتك.

4

لم تكن آوت إلى الفراش بعد حين دخلت عليها. كانت في الغرفة الخارجية تكسّر بزر دوار الشمس بين أسنانها. كانت جريدة مفروشة على الطاولة وقشور البزر متناثرة فوقها. تكوم الهر الرمادي على نفسه على كرسي منخفض الظهر.

«لماذا تأخرت في العودة؟» كانت تحمل بين أصابعها بذرة دفعتها إلى فمها بحزكة مسرحية.

كان سؤالها عرضياً، وفي نبرتها ما يشبه اللامبالاة، «لقد سقط الفرس الأرقط العجوز في حفرة من الوحل». أجبتها وأنا أعلّق السوط على العلاقة التي سبق وصفها».

«الطعام في القدر» قالت لي من دون أن تبدي أي استعداد لإعداده لي.

غسلت وجهي وطردت الهر بعيداً قبل أن أجلب طعامي وأضعه على المائدة. لاحظت أن في العلبة على الطاولة، تلك التي كنا نستخدمها كمنفضة، عدداً من أعقاب السجائر. «من زارنا؟»

سألت. تبعت نظراتي إلى الأعقاب في العلبة وترددت قليلاً قبل أن تجيبني: «أمين سر الحزب كاو».

«وما الغرض من زيارته؟»

«وما الغريب في ذلك؟ إنه يكن لنا احتراماً كبيراً وقد مرّ بنا ليلقي علينا التحية».

«إن الغرابة تكمن في هذا الاحترام الكبير بالذات».

شرعت في تناول طعامي. كسرت بذرة أخرى ورمقتني بنظرات جانبية وبعد أن صمتت قليلاً قالت: «أمرك غريب فعلاً. وكأن بالك لا يهدأ ويطمئن إلا حين ينظر إليك الناس من عليائهم. لو جاملنا أحدهم ومرّ بنا في زيارة قصيرة، لا بدّ لك أن تظن سوءاً. كما لو أننا من غير أنوف أو أعين على خلاف الآخرين. لماذا لا يمكننا أن نعيش بانفتاح وبلا قيود كما يعيش كل الناس؟ كان في ما قالته الكثير من المنطق والصواب. لم يكن لدي ما أقوله فتابعت تناول طعامي بصمت وحين فرغت منه، وضعت الوعاء والعيدان على اللوح الخشبي المعد لتقطيع المأكولات، وشعرت فجأة بإرهاق شديد.

توقعت منها أن تقول لي كعادتها: «دعها جانباً سوف أهتم أنا بغسل الأواني» بيد أنها لم تأتِ هذه الليلة بأدنى حركة لردعي.

كانت لا تزال تجلس إلى الطاولة وتعمل على كسر البذرة الأخيرة. راحت تتمطى كالهرة ثم شرعت بلف الجريدة. أفرغت العلبة المليئة بأعقاب السجائر في وسط الجريدة ورمتها في سلة المهملات ثم تناولت فرشاة صغيرة وراحت تنظف بها غطاء الطاولة. كانت تتمسك بأصول النظافة وعاداتها حتى في حالاتها المزاجية الأكثر سوءاً».

«اخلع ثيابك في الغرفة الخارجية. لا تدخل بها إلى غرفة النوم. وكأنك كنت تتمرغ في الوحل».

بعد أن أصدرت أمرها هذا، أزاحت الستارة الفاصلة بين الغرفتين ودخلت إلى غرفة النوم من دون أن ترمقني بنظرة واحدة. نفذّتُ ما أمرتني به وخلعت ثيابي المكسوة بالوحل ورميتها في حوض الغسيل. بعد أن ترددت قليلاً، قررت أن أسكب بعض المياه الباردة وأغتسل بها.

حين دلفت إلى الغرفة الداخلية، لم تكن قد نامت بعد. كانت تحدق بعينين فاغرتين إلى الجرائد المعلقة على السقف كما لو كانت تقرأ إحدى مقالاتها.

«ألم تنامي بعد؟» سألتها.

تقلّبت في فراشها وأدارت وجهها إلى الحائط من دون أن تجيبني. فرشت غطائي في الجهة المعاكسة. كنت قد عدت لاستعمال غطاء السرير خاصتي وعادت هي لتستعمل غطاءها الخاص، ووضعنا الغطاء المطرّز بصورة الجرارين، هدية زفافنا، في ما بيننا كمثل مغلَم عند الحدود.

كان لون الجرارين الأحمر الفاقع أشبه بتحذير بالخطر.

تمددت على السرير وتناولت كتاباً، ومن غير أن أفهم كلمة واحدة، قرأت بضع صفحات منه.

لم تحثني على إطفاء النور والخلود إلى النوم كما كانت تفعل في الماضي. لم يكن بمقدوري أن أسمع صوت أنفاسها حتى. بدت الغرفة وكأنها مغلّفة بصمت خانق يتوجب علي تمزيقه.

وضعت الكتاب جانباً وقلت لها بنبرة حازمة: «كزيانغجيو، إذا

كنت تعتقدين أن الأمر مناسب، فسوف أتقدم بطلب للطلاق».

«أنت مجنون»! بادرتني بنبرة سريعة وبصوت يقظ. من الواضح أنها كانت تنتظرني لكي أبدأ الحديث.

«سبق أن تطلقت مرتين. والآن لم يمضِ على زواجي سوى فترة وجيزة وتريدني أن أطلق مجدداً؟ لو سمع الناس بهذا، لسوف يسترسلون في الضحك مني إلى أن تسقط أسنانهم. إنس الأمر. إن حظي سيىء للغاية وهذا كل ما في الأمر. أدركت الآن أنه مقدر لي ألا أكون سعيدة في هذا الحياة».

«كيف تقولين هذا! ما زلت في ريعان شبابك...»

تفوهت بهذه الكلمات وقد اجتاح أعماقي شعور بالشفقة إزاءها. «لست مضطرة لأن تتقدمي بالطلب بنفسك. سوف أتقدم أنا بطلب عنا نحن الاثنين».

«أنت تتقدم بالطلب... أنت تتقدم بالطلب!» أرجع إلي الحائط صدى صوتها. «على أي أساس سوف تتقدم بالطلب؟ ما العلة التي أعاني منها والتي ستستخدمها دافعاً للطلاق؟»

«لاتسيئي فهمي. الذنب ليس ذنبك. كل اللوم يقع علي أنا. إن قانون الزواج قد تناول هذه النقطة بنصه: «إن رجلاً وامرأة غير قادرين على العيش حياة زوجية مشتركة لا يسمح لهما بالزواج. وهذا ما لم أتيقن منه إلا بعد الزواج...»

«يا إلهي. سوف تتضاعف سخرية الناس منا إذا ما استخدمت هذه الحجة. لسوف يقولون إني أنا، هوانغ كزيانغجيو، قد خططت لكل هذا منذ البداية...»

«كيف لك أن تفكري بهذه الطريقة؟ إنها حجة واضحة ومنطقية».

«اللعنة على كل شيء! إن كل ما يتعلق بغرفة النوم هي حجج واضحة ومنطقية. أوليس كذلك؟ لا أحد يفكر بهذه الطريقة إلا المهووسين بالكتب أمثالك».

أطلقت ضحكتها الباردة التي بتّ أعرفها جيداً وقالت: «لا. لقد فكرت ملياً بالأمر. إن زواجنا لا يمكن إلا أن يكون أشبه بتعاونية اجتمع ليؤسسها فردان أعزبان لكل منهما عائلته الخاصة. إن زواجنا ليس بأسرة تقليدية ولا بمهجع لغير المتزوجين! سوف نكمل حياتنا كما لو كنت أنا لا أزال أعيش مع السيدة العجوز «ما» وأنت مع زو رويشينغ.

سوف تعيش أنت في غرفة وأعيش أنا في الغرفة الأخرى. أما بالنسبة للعمل فسوف نتقاسمه بالتساوي ويساعد أحدنا الآخر. سوف تقوم أنت بالأعمال الشاقة كمثل جلب المياه والفحم وحطب الوقود وأنا سوف أتولى تحضير الطعام والغسيل والتنظيف.

ما عسانا نفعل غير ذلك؟ إنها الطريقة الوحيدة...»

فجأة فقدت السيطرة على نفسها وراحت تجهش بالبكاء من دون أن تتوقف عن الكلام: «كنت آمل، آه آمل.. أن ألتقي برجل طيب. كنت مستعدة لكل شيء من أجله. كم كنت أرغب في قضاء الجزء الثاني من حياتي في حياة هانئة برفقته...

عدم القلق بشأن السياسة وشجونها وكل ما يفعلونه في الخارج. إنهم لا يزالون يسمحون للناس أن تعيش أليس كذلك؟ وإلا أي نوع من البلاد ستكون بلادنا من غير ناس؟ بإمكاننا أن نغلق الباب بكل بساطة ونعيش حياة عادية هانئة ولا نعطيهم

أعذاراً ليقبضوا علينا مجدداً... كنت أرجو كل هذا من كل قلبي، وانظر ماذا حصل! أي نوع من الرجال أنت؟ قد قالت لي السيدة العجوز «ما» إنك على الأقل صادق وطيب، بيد أنك تفتقد أدنى حد من الرجولة والشجاعة... لو كنت رجلاً بحق لما مانعتُ في أن تبرحني ضرباً طوال النهار...!»

شعرت بألم شديد يعتصر أعماقي بينما أنا مستلقٍ على السرير ورغم أن الضوء كان لا يزال مشتعلاً، تحول كل شيء أمامي إلى سواد باستثناء ومضات من النور خلف عيني. انهمرت دموعي وبت عاجزاً عن التفكير: «إلهي، يا إلهي!» شعرت بنفسي تنادي من أعماقها. لم أكن اؤمن بالجنة أو بالجحيم ومع ذلك رحت أطلب النجدة من أحد ما. «لماذا تدوسني وتسحقني؟ لقد مرّغتني بالتراب بما فيه الكفاية ـ لماذا تُوّجه إليَّ هذه الرفسة الأخيرة؟»

حين شعرت بصمتي العميق، جلست في فراشها ونظرت إلي بعينيها الحمراوين الدامعتين. لربما قد رأت دموعي، بيد أنها لم تأتِ بأدنى حركة. مدت يدها وأطفأت النور بنقرة من أصبعها.

كان يتوجب علي أن أقوم بحركة ما لأهدىء من روعها، كان علي أن أضمها إلى صدري وأداعبها. كان علي أن أفعل كل ما بوسعي لأجعلها سعيدة. بيد أني لم أكن قادراً على أي من ذلك ففي المرتين الأخيرتين، حين راحت تبكي وحاولت أن أضمها إلى صدري دفعتني عنها بعنف وطلبت مني أن أتركها وشأنها: «أنت تزيد الأمور سوءاً». كانت تبادرني بوجهها المحمر وعينيها الدامعتين. فهمت آنذاك أنه يتوجب علي عدم لمسها بعد اليوم. كان علي أن التزم جهة السرير الخاصة بي أو أن أختبىء في زاوية إذا ما أمكن. كان من الأفضل لي أن أتحوّل إلى فأرة. كانت

تمددت وانتشرت ببطء في ما يسمى «بيتنا» إلى أن ملأت كل المساحات الفارغة. كانت استولت بكليتها على غرفتي المستودع حتى أنه لم يتبقَ لي فيهما زاوية واحدة. في ما مضى، حين كنت أعيش في مهجع العازبين كنت أشعر بأن ثمة مساحة ملكي في ذلك المكان. كانت مساحة صغيرة ولكنها، في ذهني، كانت مساحة بلا حدود. اليوم باتت المساحة التي نعيش عليها أوسع بكثير من ذي قبل، بيد أنها قد تقلصت في ذهني إلى أقصى الحدود. أدركت اليوم ما معنى قول الناس إن عقولهم مخنوقة.

أدركت أخيراً أن ثمة اضطهاداً أقسى من اضطهاد المجتمع. ورحت أتذكر، الواحد تلو الآخر، كل الرجال الذين انتحروا أثناء قيام حركات مختلفة وأدركت أن السبب الأساسي في فعلتهم تلك، كان يتمثل في زوجاتهم أو في أولادهم. كانت نخسة المهماز التي أطلقتها عائلاتهم قوية لدرجة دفعتهم إلى اتخاذ القرار النهائي. أما الذين تمكنوا من الصمود أمام اضطهاد الحركات المختلفة، فكانوا أولئك المتنعمين بدفء عائلاتهم ودعمها. فهم كانوا يشعرون بدعم عائلاتهم وسندها الروحي حتى حين كان ينكر عليهم حق الحصول على عيدان للأكل في «زريبة البقر». أنا أيضاً فكرت في الانتحار. لما كنتُ «معاقاً» «ونصف رجل»، لما كنتُ عاجزاً إلا عن تلقي الأوامر من هنا وهناك كمثل الفرس العجوز الأرقط، ما الجدوى من استمراري في الحياة؟ لماذا عليّ أن أمضي ما تبقى من حياتي الجريحة مقيداً إلى الأسطبل؟

أثناء تلك الفترة، ظهرت عليّ والدتي المتوفاة مرات عديدة في الأحلام. كانت في منتهى الرقة واللطف، تماماً كما في صورتها القديمة، وابتسامة أزلية ترتسم على زوايا فمها. كانت تتراءى لي ثم

تتوارى كما لو قد لفّها ضباب كثيف. وحين كنت أسارع لألمسها كانت تختفي. بعد أن أستيقظ كنت أحاول في كل مرة استعادة الحلم وتفسيره: هل كانت تناديني لألحق بها أو أنها كانت تطلب مني الاستمرار في الحياة؟

في أحد الصباحات التالية للقاء والدتي، استيقظت باكراً ورحت أراقب الغرفة وهي تضاء تدريجياً مع طلوع النهار. كانت غرفة خربة لكن كزيانغجيو تمكنت، بعنايتها، من تحويلها إلى غرفة نظيفة مشرقة. كنت أمقت خيوط العنكبوت أكثر من أي شيء آخر لأنها كانت تذكرني بالسجن، وفي هذه الغرفة لم أجد مرة أثراً لها.

في الضوء الطالع، تدريجياً كانت مقتنياتنا تصبح مرئية شيئاً فشيئاً: رف الكتب وعليه كريم البشرة خاصتها، مرآتها المستديرة، غطاء الطاولة الأبيض، زهرات الربيع العطرية في كوب زجاجي إلى جانب النافذة. كنا قد غطينا الأرض بطبقة من الآجر لكي نساوي سطحها. حتى الجرائد على الجدران الترابية، كانت تبدو في الضوء الساطع وكأنها ورق جدران حقيقية.

كان كل شيء يبدو وكأنما نابضاً بالحياة، وكأنما على استعداد، وتأهب لخدمة سيده.

يداها الرشيقتان كانتا أبدعتا كل هذا وقامتا بتأليف أغنية للمنزل المثالي.

رحت أراقبها وهي تنام ووجهها إلى الأعلى.

صورة جانبية رائعة الجمال كانت تمتد من جبهتها إلى ذقنها. كل ما حولي كان يُخضعني لسحره وبدل أن يصدني وينفرني منه، كان يحاول جرّي إلى حياة طبيعية. ورغم ذلك كنت قد

شيدت بيني وبين كل ما حولي حائطاً زجاجياً غير قابل للكسر.

كان جسدي الخارجي وصولاً إلى أدق أعصابي وأعمقها، يجعلني عاجزاً عن التمتع بحياة رجل عادي.

وعلاوة على ذلك، كان ينكر علي حقي بالخلق والإبداع كأي رجل عادي.

«نكون أو لا نكون؟» كنت أطرح على نفسي باستمرار سؤال هاملت.

٥

«هاي، لاوزانغ! ما رأيك لو تعيرني حصاناً لهذا النهار؟»

كنت ودامبو قد أخرجنا الخيل من الزريبة ذلك الصباح ووصلنا به إلى تخوم البلدة حيث التقينا بهاي ـ تز. كان يحمل على كتفه بندقية قديمة ومن الجليّ أنه كان بانتظاري ليطلب مني أن أعيره حصاناً ليذهب به إلى الصيد. ذلك اليوم، كان يوم عطلة لفريق الانتاج، بيد أن الحيوانات كانت بطبيعة الأحوال بحاجة ليسوقها أحدنا إلى المراعي. كان بوسعي أن أطلب من أي كان أن يحل محلي وأعطيه الراتب المخصص لساعات العمل الإضافية، بيد أني أبديت سروراً كبيراً للفرصة التي تقدمت لي لأخرج من المنزل.

في الشارع، شاهدت عدداً من العاطلين عن العمل يحومون حول باب مكتب الفرقة.

«تقدّم قليلاً» قلت لهاي ـ تز: «سوف أوافيك عند مدخل الغابة».

من على ظهر الفرس الأرقط العجوز، استخدمت سوطي لأقود الخيل إلى أرض مراحة شاسعة. كانت الأعشاب البرية منتصبة

طويلة وقد مضى وقت طويل لم تطأها قدم. كانت الأرض الصفراء الممتدة تبدو جافة لا يتخللها سوى أخاديد صغيرة بفعل المياه الجارية. لم تكن الخنازير والخراف والأحصنة قد وفرت شبر أرض من الحقول القريبة من القرية وكنا نضطر للتوغل في السهول حتى نتمكن، نحن الرعاة، من تغذية حيواناتنا بشكل لائق. انطلقت على ظهر الحصان باتجاه حزام الأشجار على مدخل الغابة، على مقربة من الأرض القفراء وترجلت عنه لأربطه إلى جذع إحدى الشجيرات.

أقبل هاي ـ تز راكضاً. أخرج سيجارة من حقيبته وأشعلها قبل أن يقدم لي سيجارة أخرى ويسألني «أي منها هو الأكثر طيعاً؟» وأضاف «أعطني حصاناً قوياً».

«أنصحك أن تأخذ هذا الفرس الأرقط، لكن كن حريصاً على العودة في المساء الباكر ولا تخبر أحداً بالأمر. خلف السرج ثمة كيس صغير فيه بعض الحبوب. لا تقس عليه وخذ وقتاً للراحة بين الفينة والأخرى واتركه يرعى بعض العشب».

«أعرف، أعرف». أجابني هاي ـ تز وهو يسوّي مطيته: «إنه حصان لا بأس به. إنه يشبه الحصان في ذلك الفيلم اللعين...»

«إن هذا المكان قد ألحق ضرراً بأفضل الأحصنة، قلت له، تماماً كما دفن فيه أفضل الرجال».

«أجل، حسناً». بادرني قائلاً ثم تذكر فجأة أمراً ما وأدار رأسه لينظر إلي: «يا لاو زانغ، ثمة أمر أود اطلاعك عليه بصفتنا أشقاء ليس إلا. وفي الواقع لقد حذرتني ليفانغ بعدم الإتيان على ذكره أمامك ولكنني مقتنع بأن لا أسرار بين الأشقاء. ليلة أمس، مرّ بنا كاو كزوي في زيارة قصيرة. أنت تعرف أن ذلك اللعين غالباً ما يمرّ

بنا ليحتسي الخمرة. حين انتصف الليل وكان قد أصبح ثملاً، راح يقول إن من بين كل النساء في هذه الغرفة زوجتك كزيانغجيو هي الأجمل على الإطلاق. ثم شرع يتكلم على نحولة خصرها ونعومة خديها والطريقة التي تحادثه بها. وفجأة راح يردد بكل صراحة إنه يرغب في ممارسة الجنس معها. إن ابن الزانية ذلك، لا يتردد لحظة في البوح بما يجول في خاطره. لديه فكرة وافية عن مسار العالم وهو يكره أن يكون مجرد موظف رسمي تافه ويفضل أن يعيش كل يوم بيومه، وبأفضل ما يتسنى له، لذلك تراه لم يلتحق بفرقة «المصححين». ولكني اؤكد لك يا لاو زانغ أنه في ما يتعلق بأجساد النساء، ينفذ دوماً ما يقوله. أقول لك بصدق، إن زوجتك ليست «معصومة عن الخطأ» هي الأخرى لا يحوم الذباب حول بيض البط إلا إذا كانت فيه شقوق. إن ليفانغ تعمل معها في فرقة الإنتاج وهي قد أكدت لي أن كاو كزوي يحوم باستمرار حول المكان الذي تعمل فيه. من الصعب أن أنصحك بأي شيء يا لاوزنغ لما أنك قد قررت الزواج منها بملء إرادتك، بيد أني اؤكد لك أن النساء يتوجب مراقبتهن جيداً وباستمرار. أنصحك بأن تضربها من وقت لآخر لتدرك أن عليها التصرف بشكل لائق. استعمل ذلك السوط اللعين وانهل به عليها!»

لم أشعر بالغضب ولا حتى بالمفاجأة. إن الأعشاب التي داست عليها الأقدام وسحقتها، لا تقوى على الوقوف حتى في وجه النسمات الرقيقة.

رحت أفرك جبيني المغطى بالتجاعيد ثم قلت له: «فلتفعل ما يحلو لها يا هاي ـ تز. أنا أقدّر لك اهتمامك ولكنها تعد لي الطعام وتغسل ثيابي يومياً وأعتقد أن هذا كافٍ».

«ذلك الغبي اللعين، ذلك العاطل الخسيس!» ردد هاي ـ تز وقد تقطب حاجباه الكثيفان غضباً: «كونك قد دخلت مرتين إلى مخيمات العمل وثلاث مرات إلى السجن لهو أمر إيجابي بالفعل. أنت رجل قوي. ولكن ما مأخذها عليك لتظن أن بإمكانها النجاة بفعلتها؟ على أية حال، لقد أمضت عقوبة أعمال شاقة هي الأخرى إضافة إلى أنها سبق أن تزوجت مرتين...»

«هيا بنا». سلّمته سوطي وربتّ على كتفه: «لا تنسَ أن تعود باكراً».

كان الفرس الأرقط العجوز ينتظر بصبر إلى جانب الشجرة وأومأ إليّ برأسه كما ليوافق على ما قلته. امتطى هاي ـ تز الحصان وهو يدمدم ويشتم، ودلفت أنا إلى قلب الغابة لأجلس على مقربة من حقل قمح. كان القمح ذهبي اللون وقد اقترب موعد حصاده. كانت رؤوس النبتات المثقلة بالحبوب تتأرجح على مهل في الهواء، كمثل كورس نساء يصدحنَ بالأغاني تحت ظلال الغيوم العابرة في السماء. كانت النباتات تتذكر ربيع أيامها حين كانت لا تزال نباتات صغيرة نضرة خضراء. كانت تتذكر الحياة النابضة في براعمها وروعة سيقانها الخضراء التي تروح تطول وتطول لتلاقي السماء.

كل ذلك قد ولى، وكانت تعرف تماماً أنه قد ولّى إلى غير رجعة. كانت حبوبها قد أصبحت ذهبية قاسية ومكتنزة بعد أن عملت الشمس على تجفيفها، وأصبحت سيقانها هشة يصعب عليها الوقوف في وجه الريح والمطر. كانت أصبحت ناضجة، هذا صحيح، ولكن الأيام الجميلة قد ضاعت منها. ضاعت إلى الأبد.

كان الهواء حاراً وجافاً وورقات الحور الأبيض تبعث حفيفها فوق رأسي.

انبعثت فجأة ريح دوامية من بين القمح لتنطلق في الهواء الرحب. رأيت لونها الرمادي يتلاشى. تدريجياً في الإزرقاق الواسع. كانت الغيوم تتسارع في السماء من غير أن تعرف، مثلي أنا، إلى أين تأخذها الريح. لقد جرت كل الأمور بسرعة فائقة!

لم يمضِ على زواجي أكثر من شهرين. إن حقل القمح هذا، هو عينه الذي عبرته في طريقي لزيارة لويو زونغجي. وتماماً كما تغير المشهد بكليته، كنت تغيرت أنا أيضاً.

نَمَت نبتات خروع ضخمة على حافة الحقل. وكمثل يد تهدىء من روعي، استقرت إحدى وريقاتها على كتفي وكأنما لتسكب في داخلي كل أصوات الطبيعة المتدفقة، وتفتح أمامي كل مكنونات قلبها الشغف والمنتحب: «مرحباً يا نبتة الخروع خاصتي، مرحباً يا أشجار الحور البيضاء، مرحباً أيتها الغيوم البيضاء التائهة! مرحبا أيها القمح الذهبي خاصتي. لقد وهبتني الحياة ولكنها كانت حياة عديمة القيمة. لقد بددتك حياتي وبددت نفسها أيضاً.

توقفت فجأة، وشعرت لوهلة بدوران الأرض من تحتي. انفجر الثقل المكبوت في داخلي ورحت أصرخ: «إلهي، إلهي، لماذا تخليت عني؟»

«إن هذا الرجل ينادي إيليا». ردد معي شعب إسرائيل.

6

وصل الجرار إلى مدخل المدرسة الإبتدائية في المركز الرئيسي قبل أن يتوقف محركها بصورة مفاجئة .أصدرت العربة التى كانت تجرها ضجيجاً مدوياً قبل ان تتوقف هي الأخرى.

«تقدمي ،ايتها الجرارة اللعينة!» قفز كزياو[*] لي ـ تز من مقعد السائق وشرع بكل ما أوتي من عنف واندفاع يركل إحدى الإطارات .

«نحن لا نزال نستعمل هذه الآلات الخربة بينما أتلفت مثيلاتها منذ سنوات بعيدة في المناطق الاخرى ». كانت الشمس غابت وطلع البدر مكتملاً في صدر السماء الصافية من الغيوم والنجوم ايضاً . شعرت بصفاء الليل المنعش أكثر مما شعرت به عند الغسق . عُلّق على كل جهة من باب المدرسة منشور عمودي كتبت أحرفه باللون الأحمر. كتب على المنشور الأول: إن هدف المدرسة نقض تفكير طلابها. أما على المنشور الثاني فكتب: «يتوجب على

(*) كزياو: لقب يُصدّر به اسم الشخص حين يتوجه إليه من هو أكبر منه سناً.

الناشطين في قسم البروباغندا أن يمضوا وقتاً طويلاً في المدارس ليشاركوا في وظيفة هذه الأخيرة التي تقتضي النضال والنقد والتحويل. يتوجب عليهم البقاء أبداً تحت إمرة المدارس».

إذاً، فإن المدارس لم تكن أمكنة لتلقين المعرفة بل لنقضها. هل كان ذلك يعني تحويل البراءة والصدق إلى نفاق ورياء؟ أو تحويل التفكير الرأسمالي إلى تفكير بروليتاري؟ هل كانت طبقة الرأسماليين تفكر جدياً بالسيطرة على عقول الأطفال الذين لا تتعدى أعمارهم الثماني سنوات حتى تبادر المدارس إلى استئصال هذه الأفكار من أساسها؟

شعرت بهواء المساء البارد يمسني برفق.

كان الوقت متأخراً وبدا وكأن الهواء البارد يهب من القمر باتجاه الأرض.

كان كزياو لي ـ تز يسحب بكل قواه المحرك في مقدمة الجرار ويحاول عبثاً تشغيل المحرك من جديد. تمددت في العربة وكيس من الخيش تحت ظهري، ورحت أتأمل في القمر. هل كان ما رأيته قارتين أم محيطين؟ وبينما كنت أحدّق بهما شعرت بأني أقترب أكثر فأكثر منهما حتى لأكاد ألمس سطح القمر. راح كل ما على الأرض يتقلص تدريجياً وأنا أنظر إليها من فوق، نظرة تعجب وحيرة.

«اللعنة، لن يدور المحرك» تسلق كزياو لي ـ تز إلى جذع العربة ومد عنقه لينظر إليّ: «ماذا سنفعل يا لاو زانغ؟»

«كرر المحاولة» قلت له وأنا أشعر بمنتهى الراحة والهناءة.

«اللعنة على كل هذا! تعال وجرب بنفسك!»

«كل ما أجيده هو أعمال الزراعة أما تشغيل محرك الجرار فذلك فوق طاقتي. لو كان بوسعي تشغيله لكنت قدمت لك يد العون منذ زمن بعيد».

تردد كزياو لي ـ تز على الجذع وراح يدمدم: «ما العمل؟ ما العمل؟»

قبل ساعات قليلة، كان أمين سر الحزب كاو استدعاني إلى مكتبه وكنت أنهيت ساعات العمل العادية، وأوكل إلي مهمة ليلية إضافية تقتضي مساعدة كزياو لي ـ تز في نقل سماد فوسفاتي من محطة السكة الحديد بواسطة جراره.

«أعمل لليلة واحدة». قال لي «ويمكنك أن ترتاح في إجازة غداً وبعد غد». وأضاف شارحاً: «إن العمال مدعوون جميعاً إلى لقاء كبير في قاعة البلدة غداً، وعلى الجميع أن يحضروا لأن القادة يدعوننا مجدداً إلى دراسة نظرية ديكتاتورية البروليتاريا ـ شيء ما عن انتقاد لواحد يدعى سونغ جيانغ...»

في حال أُرسل أحد الرجال في مهمة عمل طوال الليل، فمن الطبيعي أنه لن يكون مضطراً لحضور الاجتماع في اليوم التالي. وعلى نحو أكثر صلة بالموضوع، لن أكون مضطراً من جهتي للمشاركة في جميع الأحوال. إن «الأثرياء» و«مالكي الأرض» و«المعارضين» و«اليمينيين» لم تكن لتشملهم الاجتماعات، لذا فإن كاو فعل عين الصواب حين اختارني أنا للعمل الليلي. كان بوسع دامبو الاهتمام بالخيل لمدة يوم واحد، ولن يؤثر غيابي على شيء بل على العكس سوف يندفع الاجتماع بكل حماسة، من غير أن تثبط عزمه أي من العناصر المفاجئة ومن غير أن يعترض أحد على نداءات «التجمع في قاعة البلدة» و«توحيد الصرخة» الخ. بالنسبة

إلي، كان هذا العرض يقدم لي فرصة يومي إجازة مقابل ليلة عمل إضافية واحدة. إضافة إلى أنها سوف تكون في الحقول في ذينك اليومين وسوف يكون البيت لي وحدي وبطبيعة الحال لم أرفض الاتفاق.

«هاي» راح كزياو لي ـ تز يحوم حول الجرارة ثم قال لي: «أو تدري بماذا أفكر؟ أعتقد أنه يجدر بنا أن ننام قليلاً. فلنتوجه إلى مبنى المدرســة ونجد لنا مكاناً مريحاً نأخذ فيه غفوة لبعض الوقت».

«نأخذ غفوة؟ كيف لك أن تفكر بأمر مماثل؟ ماذا عن المسؤولية التي ألقيت على عاتقنا؟»

«المسؤولية، المسؤولية! اللعنة عليها». ولكنه راح يمشي مضطرباً في ضوء القمر. «إن هذه الجرارة القديمة تتعطل باستمرار. لم يكن عليهم إرسالي منذ البداية. لا أدري ما العمل. فليأت من يعرف ما العمل ولديه الصبر اللازم لذلك وليجرب تشغيل المحرك».

نهضت من مكاني وقفزت من المقطورة على الأرض وقلت له: «على الواحد منا أن تكون لديه تبريرات دائمة للرؤساء وأنت تعرف ذلك تماماً».

حتى ولو تعطل المحرك كلياً، ماذا لو أتى أحدهم وسرق بعض القطع من الجرارة أثناء نومنا؟ بل أسوأ من ذلك، ماذا لو جاء أحدهم يبحث عنا فيرانا نياماً. لسوف يعتقد أننا عطلنا المحرك عمداً». خلع كزياو لي ـ تز قبعته وراح يحك رأسه ويدمدم: «ما العمل؟» بالرغم من مكانته المتميزة بوصفه ابن نائب رئيس القسم السياسي، لم يكن يملي علي أوامره أو يحاول الاستبداد بي بل إنه حتى كان يحاول كل ما بوسعه ليهوّن الأمور علي.

«حسناً إذاً قال: «اذهب أنت للنوم وسأبقى أنا هنا لأسهر على الجرارة».

«لا. هذا ليس بالقرار المناسب» قلت. «لن تتحرك هذه الجرارة من مكانها مثل الغد، بينما يحسب أمين السر كاو أننا مستغرقون في نقل الأسمدة وأعتقد أن هذا ما يتوجب علينا فعله: سوف تبقى أنت هنا في المقطورة بينما أذهب أنا لكي أبلّغ عما حصل معنا. وبذلك نكون أولاً قد قمنا بواجبنا وثانياً سوف أعود بحصانين لجر الجرارة إلى أن يشتغل محركها مجدداً. ما رأيك بذلك؟»

«أحسب أن الأمر سوف يكون شاقاً للغاية. إن فرقتنا تبعد أكثر من تسعة أميال!»

«لا يهم. أنا معتاد على المشي مسافات طويلة، مذ كنت أتولى رعي الخراف. إن ضوء القمر ساطع هذه الليلة ولسوف أتمكن من الوصول إلى البلدة عند منتصف الليل، على أبعد تقدير. أما العودة مع الحصانين فلسوف تكون أسرع بكثير. أخلد أنت إلى النوم لبعض الوقت وسوف أرجع إليك قبل طلوع الفجر».

تحت ضوء البدر المكتمل، بدا الريف الممتد أمامي كمثل قطعة من سطح القمر، كانت القفار الباردة تمتد بوسعها لتصل إلى خط الأفق الأسود ولم يكن أي أثر لكائن بشري. بدا لي أن المرء ببلوغه ذلك الخط الأسود لسوف يقع في مساحة واسعة كلها إشراق وصفاء. شعرت بأني قد عدت إلى محيط أليف وأحسست بخفه في جسدي عصية على الوصف، بينما كنت أخطو خطوات واسعة في العراء.

ليس من الصعب الانتقال من عالم إلى آخر، ولا يتطلب منك ذلك إلا أن تسمح للعالم بأن يدور من تحت قدميك . وصلت إلى

مركز فرقة الإنتاج خاصتنا حوالي الساعة الحادية عشرة. كانت قريتي الصغيرة هادئة وغارقة في نوم هانىء تحت ضوء القمر. كانت صفوف مباني الآجر الترابية غارقة في سبات عميق كمثل مزارعين يتمددون مرهقين بعد نهار طويل من العمل المضني.

من بين حزام الأشجار على تخوم القرية، رأيت ضوءين بعيدين في الصف الأول من المباني: أحدهما كان في مكتب فرقة الإنتاج والثاني كان في غرفتي المستودع اللتين قد أصبحتا منزلاً لي. اجتاحتني موجة عارمة من الحنان حين أدركت أنها في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا تزال تسهر في انتظاري.

ترددت للحظة محاولاً أن أقرر ما إذا أتوجه لرؤيتها قبل أي شيء آخر وأطلب منها أن تأوي إلى فراشها أو أتوجه إلى مكتب الفرقة وأتقدم بتقريري إلى أمين السر كاو.

خرجت عن الطريق الرئيسي لأسلك ممراً ضيقاً هو بمثابة طريق مختصرة داخل خط أشجار الحور المستقيم. راحت الأغصان الجافة من العام الفائت تطقطق تحت قدمي بينما هواء الليل البارد يندفع من بين أوراق الشجر فوق رأسي حيث تتردد سقسقات العصافير من أعشاش السنونو المختبئة بين الأغصان.

نَمَت شجرات الزيتون البري إلى جانب شجرات الحور، والأولى كانت فريدة من نوعها في الصين الشمالية الغربية وكانت تفوح من زهراتها الصغيرة الصفراء رائحة غريبة رائعة تنشر شذاها بين الأوراق الرمادية الفضية والأغصان الشائكة.

كانت شجرات الزيتون قادرة على مقاومة جفاف الأرض القلوية ولم تكن تتطلب الكثير من الطبيعة بيد أنها لم تكن لتبخل البتة بنشر عطرها الفريد.

كانت براعم شجر الزيتون البري قد تساقطت في هذا الوقت من الموسم لتتدلى الأغصان مثقلة بثمارها. في الخريف، كانت الكرات الخضراء الصغيرة تتبدل وتتحول لتضفي على الشجر لوناً ذهبياً رائعاً.

كنت قد وصلت إلى نهاية صف الأشجار تلك حين رأيت الضوء في المكتب ينطفيء فجأة. بان شخص على الباب وفي ضوء القمر تمكنت من التعرف على كاو كزوي. انطلق يمشي بتصميم واضح ولكنه بدل أن يتوجه إلى منزله في صف المباني الخلفي، توجّه إلى منزلي أنا.

تجمدت في مكاني مذهولاً وأنا أشاهده يدفع باب منزلي ويدخله بسرعة. ومضى نور في العتمة حين فُتح الباب لاستقباله، وفي أقل من ثانية انطفأ ذلك الوميض الذي أنار الحقول للحظات وجيزة. تابعت المسير بحركة آلية وتقدمت بضع خطوات حين انطفأ بدوره فجأة، النور من وراء النوافذ وكأنما القرية قد أغمضت عينيها فجأة أمامي. كل البلدة كانت تغط في نوم عميق! وحدي أنا تُركت في الخارج. وحدي أنا كنت يقظاً!

* * *

«لقد حصل الأمر أخيراً». كانت قدماي تنهاران من تحتي وسارعت للجلوس على جذع شجرة زيتون مقطوعة. كنت أسمع صوت الريح تصفر وسط الشجرات وتضرب جسدي بيد أني كنت غير قادر على الشعور بالريح عينها.

من بين كل ما تلقيته في حياتي من إذلال وإهانة، كانت هذه التجربة الأخيرة الأقسى على الإطلاق. وتفاجأت أنها لم تكن قد واجهتني قبل اليوم: يبدو أن القدر قد خرج على القاعدة هذه المرة

وأولاني عناية خاصة، بيد أنه كان قرر منذ لحظة ولادتي، أنه علي أن أتذوق كل أنواع الألم والعذاب. طوال الأسابيع الأخيرة، كنت بدأت أحدس أن موعد العذاب النهائي بدأ يقترب. كنت كلباً ذليلاً، أُقصي إلى زاوية وراح ينتظر عاجزاً، بظهره المستقيم وفروه المنتصب، أن تسقط عليه العصا المرفوعة فوق رأسه. كنت آمل فقط بألا تسحق عظامي فأستمر في العيش على أمل الشفاء يوماً.

ها هي العصا في طريقها للسقوط على جسدي! مرة أخرى، أدركت أن غرائزي كانت محقة.

شعرت وكأن شللاً قد أصابني فتمددت تحت شجرة الزيتون البري وتشبثت إحدى يديّ بجذع الشجرة الخشن، حتى كادت تنتزع عنه قشرته. كنت بحاجة، وفي آن، إلى ترميم حواسي وامتحان قدرتي على تحمل الألم.

«هاي، ماذا تفعل ممدداً هناك؟» انبعثت روح من الهواء فوق رأسي وسددت إلي رفسة خفيفة مفاجئة. «هيا قم واحمل قاطع الأخشاب وانطلق حيث يجب! أوليس هناك حصانٌ مربوط خلف بابك؟ إن المفتاح في حوزتك وبوسعك الدخول من ذلك الباب لحظة تشاء. إن على الزوج الوقوف منتصباً ما بين الجنة والأرض! كيف يخطر ببالك أنه عليك أن تتقبل هذا النوع من الإهانة؟»

رفعت رأسي ونظرت إلى مصدر الصنوت. كان صاحبه سميناً وقصير القامة وتميل بشرته إلى السواد وكان يرتدي زي سلالة سونغ الرسمي . كانت عيناه محمرتين كعيني طائر الفينيق وحاجباه كثيفين كمثل شرانق دودة الحرير.

أخذ يمسّد شاربيه وهو يقول: «نحن الأشقاء، لم نتخاذل يوماً كما تفعل أنت الآن. حتى الأقزام تصارع حتى الموت ضد الزناة

والمغويين. انظر إلى نفسك. إن قامتك تتعدى الستة أقدام وأنت تتمتع بجسد مفتول ومع هذا تسمح بحصول كل هذا. كيف لك أن تواجه يوماً والديك في أرض الآخرة؟»

كان ثمة ما بوسعي القيام به من دون شك. لربما كانت الجثث التي بانت أمامي على الجدران في يوم زفافنا نذير شؤم ومع ذلك...

«أيها الأخ سونغ! رحت أنادي قائلاً: «إن الأزمان قد تغيرت. حين عمدت أنت إلى قتل يان بوكسي(*) كان بوسعك النجاة بفعلتك والإبقاء على حريتك.

في أيامنا هذه تسير الأمور بطريقة مختلفة. إن جبال شوي بوليانغ لا وجود لها اليوم!»

«الذنب ذنبك أنت وحدك. لا تنسَ أن جبال شوي بوليانغ قد صنعها الأبطال بأيديهم. أنت تعيش في عصر شبيه بزمن حكم كزوان هي(*). كان سونغ جيانغ يردد: «إن النمور والذئاب تملأ الطرقات؛ إن الصدق والنزاهة تمت تنحيتهما جانباً. إن الأمبراطور متحجر القلب وجاهل. ما الذي تنتظره بعد؟ ارفع الراية وتمردا!»

«إن الكلام، يا أخي، أسهل كثيراً من التنفيذ. في زمن مختلف، لربما كان هذا ممكناً، ولكن قيادتنا اليوم باتت أكثر تعقيداً من

(*) سونغ جيانغ شخصية شهيرة في الرواية الصينية «هامش المياه» المعروفة أيضاً تحت عنوان «كل الناس أخوة». وقد استخدم ماو هذه الشخصية خلال الثورة الثقافية ليوجه من خلالها انقادات غير مباشرة للأحزاب السياسية المعارضة.
يان كانت زوجة شقيق سونغ جيانغ وقد قتلها هذا الأخير حين اكتشف أنها لم تكن وفية لأخيه الذي كان عاجزاً.

(*) يعني ذلك «الحكم المسالم». وكان يطلق إسم «كزوان هي» على مرحلة حكم إحدى السلالات الأمبراطورية ولم تتميز هذه المرحلة بشيء من السلم أو الطمأنينة.

الماضي. إن بعض قادتنا يحبون وطنهم بصدق ويحاولون مساعدة الشعب ويسعون جاهدين لإعادة الأمور إلى مسارها الصحيح. إن ما تفتعله الجماهير من أعمال متهورة وطائشة لن يساهم في تحسين الأمور.

«أنت فعلاً قصير البصر». صرخ سونغ جيانغ في وجهي قائلاً: «أنت تحتاج لتوحيد العلوي والسفلي، وأيضاً الداخلي والخارجي وتوحيد الوسط والحدود. إنها الطريقة الوحيدة لبلوغ ما تسميه المسار الصحيح وإلا فسوف يكون مواطنوك كمن يحاول التصفيق بيد واحدة.

وفي نهاية المطاف، سوف يتمكن النمور والذئاب من ترتيب الأمور على نحو أفضل مما كنتم ترغبون به أنتم. هيا أسرعوا، وتجمعوا أنتم المحاربين! ساندوا النخبة الصالحة من رجال الحكم. حرروا السلطة من الوزراء الأشرار! أسسوا لسلالة حاكمة نزيهة ومستقيمة!»

«أيها الأخ، إن «فرقة المحاربين» التي تطلب مني أن أنظمها، هي ما يمكن أن نسميه اليوم «فريقاً ثورياً». ولكني اؤكد لك أن رجال الشرطة في عهدك أنت مختلفون كلياً عن رجال الشرطة في أيامنا هذه. لقد أسسوا باسم البروليتاريا لديكتاتورية قائمة بحد ذاتها. وقبل أن يتسنى لك المباشرة بالتنظيم، سوف يطوقونك ويقبضون عليك. طوال السنوات العشر الأخيرة كانوا على استعداد تام لتوقيف آلاف الأبرياء على أمل القبض على مجرم حقيقي واحد، ومع ذلك لم يطلقوا سراح سجين واحد من بين كل هؤلاء الأبرياء.

عندما أُخرجت من مخيم العمل في العام ١٩٦٨، حسبت أن هناك مكاناً يطلق عليه اسم «مقر ليو ـ دينغ الرئيسي» ومثل الأبله

انطلقت للبحث عنه. بالطبع لم يكن ثمة وجود «للفريق الثوري» الذي كنت أبحث عنه، ليس هذا وحسب إنما أُكسبت «قبعة» ورُميت في السجن مجدداً! أو تعتقد أن الأمر بالسهولة التي تصورها أنت؟

أنت ياسونغ جيانغ على سبيل المثال، لم تبال بالعالم من حولك منذ مئات السنوات، ومع ذلك لا يزالون حتى اليوم يستخدمون اسمك «للنقد والنضال».

من حسن حظك أنك لا تظهر في وضح النهار وإلا كانوا أوقفوك على الفور!»

«آه، أنا» أجابني سونغ جيانغ قائلاً: «كل عصر وله مشاكله الخاصة. لو أن ما تقوله عن عجزكم أنتم الجداجد والنمل كان صحيحاً، عن تصحيح الأمور وإنقاذ إله الحبوب(*)، فأقل ما يمكنك فعله أنت هو التوجه إلى منزلك فوراً للقضاء على ذينك الكلبين النائمين هناك. بإمكانك على الأقل أن تعطي مثلاً عما قد يحصل لكل الأشرار في هذا العالم».

«إن ما تقوله هو وجهة نظر بالتأكيد لكنك أغفلت تفصيلاً صغيراً أيها الأخ سونغ، فنحن لسنا زوجين إلا بالاسم ولا أشعر بالتالي أنه عليّ أن أضيّع حياتي بسببهما، رغم أني في الواقع لست متمسكاً بهذه الأرض الترابية...»

لم أكن أنهيت كلماتي تلك حين صفرت ريح قوية بين الأغصان وراحت أوراق شجر الزيتون والحور ترتعش وترمي بظلالها الراقصة على الأرض. ومن وسط الريح انبعثت دائرة

(*) البلاد.

سميكة من الضباب القاتم وانطلق من العتمة الدامسة صوت فاجع يردد: «ذلك لأن القمر ليس في مساره! لقد اقترب من الأرض ولذلك أصيب الجميع بالجنون!» ظهر أمامي وجه داكن بان بعدها زي محارب فينيسي قديم وأشرقت عينا عُطَيل بينما راح يحوم حول المكان: «أنا أيضاً فقدت مملكتي! مطلق جبان كان قادراً على انتزاع السيف من يدي.

لقد انتصر الشر على الخير. هل بقي أثر للمجد في العالم؟ فليتحول كل شيء إلى النسيان!»

لقد كان يلاقي عذابات جهنم إلى أن أصيب بالجنون، وقد لعب ضميره دوراً هاماً في عذاباته تلك.

كان صوته المفجوع وكأنما يطلق تحذيراً لكل من يفكر في قتل زوجته ومن ثم قتل نفسه. تلاشى الضباب الأسود تدريجياً وتوارت معه الروحان من دون أن تتركا أثراً.

كان ضوء القمر لا يزال يسطع في السماء التي تتحول تدريجياً إلى إشراقة الفجر. شعرت وكأن جسدي يطوف أمامي بينما أعبر سماء الليل الزرقاء الداكنة وأتجول في كل زوايا الفضاء. من حيث كنت جالساً تحت شجرة الزيتون، كنت قادراً على التحادث مع أي جسم سماوي في الكون الشاسع. كنت بالكاد أرفع يدي أو رجلي فأصبح في قلب اتساع العالم.

رميت بنفسي في القبة الزرقاء ورحت أنادي السماوات: «ساعديني! يقول مينغ ـ تز إن من يتولى مسؤولية ما، يجب أن يتعذب ويجوع ويعمل حتى الإرهاق. لقد تعذبت وجعت وبالطبع عملت حتى الإرهاق. متى يا ترى سوف أرى نهاية لكل هذا الخواء؟ إذا لم يكن ثمة من جدوى لكل هذا، يجدر بي، وبكل

بساطة، أن أضع حداً لحياتي! هذا أفضل ما يمكنني فعله».

أجابني صوت جهوري من قبة السماء: «ليس بوسعك مناقشة أمور المحيطات الواسعة مع سمكة عاشت طوال حياتها في بئر، وليس بوسعك الكلام على الصقيع مع حشرة لم تعرف سوى الصيف.

إن الأولى قد قمعتها المسافات والثانية تحكّم بها الوقت. ليس بوسعك مناقشة الحقيقة المطلقة مع طالب قادم من الريف وذلك لأن هذا الأخير محدود بسبب قوانين الإقطاعية الكنفوشيوسية.

بيد أنك، انطلقت من منبع النهر، وتدفقت بكل اندفاعك لتلقي نظرة خاطفة على البحر. لقد رأيت بأم عينك مدى ضآلتك. إن الكلام على الحقيقة معك لهو أمر مستحيل».

لم أتمكن من رؤية شكله، ورغم ذلك عرفت أن المتحدث كان زوانغ ـ تز. «أيها المعلم، أطلب مشورتك». قلت له «سوف أصغي لكل كلمة تقولها».

«لقد أخطأ مينغ ـ لي(*) حين اعتقد أن لكل المخلوقات غاية محدودة مسبقاً». سمعت أن رجلاً قد قام بإنجازات كبيرة في الماضي، كان يردد: «أليس للأمور التي يتفاخر بها المرء جدارة تذكر؛ ما من جدوى في كل ما هو ذي صيت عظيم». لو تمكن الواحد منا أن يقدم للشعب خدماته من غير أن يطلب منه أي تقدير في المقابل، ويسلك الدرب الصحيح ولكنه مع ذلك لا يشعر بأي رضى ذاتي، فإنه في النهاية سوف يكف عن طلب أي شيء من أي كان ويرفض أيضاً أن يطلب منه الآخرون شيئاً. إن الأعمال

(*) اسم شعبي يطلق على مينغ ـ تز.

الشاقة التي قمت بها والجوع والعذابات التي لاقيتها والشواش الذي يغرقك هي نتيجة منطقية لاشتراكك في عملية إبداع العالم. ولأنك لا تبحث عن هدف لحياتك أو شهرة لنفسك لماذا لا تزال تهوى هذه العملية وتستمر في البحث؟»

«إن ما قاله المعلم عميق للغاية» قلت. «ولكني لست أكيداً بأنه يتناسب مع وضعي. لا أحسب أن الشهرة والصيت هما سبب عذاباتي. مع أني مدرك أن للشهرة مشاكلها العديدة. ماذا عساي أفعل؟ هذا كل ما أرغب في معرفته».

ضحك مني زوانغ ـ تز وقال: «عليك أولاً أن تدرك أن كل شيء قد يكون ممكناً، في حال لم نقم بشيء على الإطلاق.

«إن المساجين لا يأبهون لحياتهم. بوسعهم أن يتسلقوا أعلى الأماكن من دون شعور بالخشية. إنهم يتعرضون للتهديد والاضطهاد في كل لحظة، ومع ذلك لا يشعرون برغبة في الثأر والانتقام ولا يولون أهمية لواقع اختلافهم عني وعنك. إنهم قد تعالوا عن كل الخلافات الممكنة بين الناس وبلغوا المرحلة المثالية في وحدة الإنسان والطبيعة. إذا كنت ترغب في العيش بسلام ما عليك إلا أن تستسلم للعالم، فلا تحاربه أو تحاول السيطرة عليه. ما عليك إلا أن ترمي بكليتك إلى أحضانه تماماً كما تمّ خلقه، يوماً بعد يوم: في الخلق هذا، تجد الدرب الصحيح ولا يمكنك اكتشافه إلا حين تكون في حالة توحد مع الطبيعة، وبالتالي تتمكن من القيام بأشياء تتناغم وحالة اللاعمل. قد تختبر الغضب ولكنه غضب آتٍ من اللاوعي: أن تقنع نفسك بوجوب عدم المبالاة والتطواف مع كل ما يحصل على الأرض وفي السماوات، هذا هو طريق الحكماء».

كنت مرتعباً والعرق البارد يتصبب من كل أنحاء جسدي. «شكراً، أيها المعلم، لكل تعاليمك». قلت في العموم، أحسب أني فهمت ما تعنيه. أعتقد أن لدي بعضاً من المؤهلات التي ذكرت، وبوسعي أن أتسامح بشأن الأمور الثانوية لكي أتفادى تدمير الأمور الأساسية. ولكن يا معلمي، أو تستطيع أن تعلمني المزيد؟ أحتاج لمعرفة السبيل الحسي لتحقيق كل هذا!».

من وسط اتساع الكون، أجابني زوانغ ـ تز: «إن للسلحفاة المقدسة القدرة على تحقيق أحلام يوان جون وأمانيه. لكنها تعجز عن الهروب من شبكة السيد يو ـ لي. إن الدهاء البشري قادر على التنبؤ بالمستقبل لكنه لا يزال غير قادر على تفادي معدة خاوية في مجاعة كوارثية. حتى الناس الأكثر ذكاءً، تواجههم أوقات صعبة وكذلك فإن للأرواح نقاط ضعفها أيضاً.

إن السمكة لا تعرف أنَّ عليها أن تخاف من الشبكة مع أنها تعرف جيداً أنّ عليها أن تخشى البجع. يتوجب على الناس أن يتغاضوا قليلاً عن حكمهم ومعارفهم الصغيرة لكي يسمحوا للمعرفة الكبرى أن تتفوق وتصمد. إن طفلاً لا يحتاج إلى أستاذ يعلمه الكلام، إذ أنه يكتسب تلقائياً القدرة على ذلك. لكونه يترعرع بين أناس يتكلمون. لقد تعمقت في دراسة شؤون الجنة ولكني أهملت شؤون البشر. إذا كنت ترغب في الاطلاع على الأمور الحسية عليك أن تطلب المشورة من غيري».

في تلك اللحظة، ظهر ماركس من وسط البدر المستدير. «يا بني» قال بنبرة بالغة الرقة «لقد سمعت الصرخة الصادرة من أعماق قلبك» قال ذلك ودس يده داخل جيبة صدريته. «في هذه المسألة بالتحديد أراني عاجزاً عن مساعدتك. فإن «ابني»، كما تعرف،

كانت زوجتي المحبوبة، وكنت أنا في المقابل زوجها المحبوب أيضاً. أخشى بأن تكون تجربتي قليلة لتخولني معالجة المشاكل التي تعاني منها أنت».

«يا معلم، أنا لا أطلب المساعدة في هذه المسألة تحديداً، ذلك أني تأملت عميقاً فيها ووجدت لها الحل بنفسي، فقررت أن أعالجها بكل روية وطيبة قلب، فلا ألحق الأذى بأخلاقيتي الخاصة.

ما أوده منك هو المشورة بشأن بلادي. ماذا يا ترى سيكون مستقبل مجتمعنا؟»

أطلق ضحكة من أعماق قلبه وأجاب «يا بني، أنت تحسب أنك قد تأملت عميقاً في مشكلتك ووصلت إلى الحل المناسب، ولكنك في الحقيقة، لم تتوصل إلى شيء على الإطلاق.

إن أسس الفلسفة الشرقية تعتمد على تهذيب الجسد وتغذية الروح. وذلك يعني أن تفتش عن الكمال في جمالية الخلق وأن نتحد بروح الطبيعة فنبلغ الكمال في تحقيق توحيد السماء والإنسان. باعتقادي أنه عليك، قبل أي شيء آخر، أن ترى إلى الأمور من وجهة نظرها هي. عليك أن تبدأ بمعاملتها انطلاقاً من مبدأ المساواة والاحترام.

إن المبادىء الغربية الأساسية تقتضي الحرية والمساواة بينما تقتضي المبادىء الشرقية الأخلاق والسمعة الطيبة. لا أسعى هنا إلى المقارنة بين الاثنين وتقييمهما لأنهما ينتميان إلى مراحل تاريخية مختلفة، ويتطوران تماشياً مع حركة التاريخ اللولبية.

في المستقبل سوف تكبر أهمية فلسفتكم الشرقية في العالم. أنتما زوجان بالطبع، ولكني أود أن أشير لك بأنك أنت يا زانغ يونغلين، عاجز عن إتمام واجبات الزوج تجاه زوجته. فبأي حق تريد

منعها من سعادة مؤقتة؟ إنك تحسب بأن تسامحك معها هو فعل نبل وشهامة ولكنك في الواقع لا تملك حتى السلطة لمسامحتها. وعلاوة على ذلك، يراودني شعور بأن هذا التقدير الفائق لذاتك لا ينطبق مع مفاهيمكم الشرقية حول «طريق الحكماء».

شعرت وأنا أسمع كلماته بأن كل ما يقوله صحيح: «أجل، يا معلم، تابع أرجوك».

«حسناً». رفع ماركس ذيل معطفه وجلس على جذع شجرة قبالتي. «أولاً أتمنى عليك أن تكلمني بوصفي متساوياً معك. فلنتحادث كأصدقاء ينتمي كل منا إلى عصر مختلف عن الآخر. أنا أناديك «يا بني» لأني أكبر منك سناً وليس للأمر أي علاقة بلقب المعلم أو الأستاذ أو أي من كل هذه الأمور. لم يسبق لي أن أعلنت مرة عن عظمتي، ولكني لا أوافق كذلك على كمّ أفواه من أتوا من بعدي ورددوا، ولا يزالون أقوالي، وهذه مسألة تؤلمني كثيراً هنا في السماء، لا يكون الواحد منا عظيماً إلا حين يبادر الآخرون للركوع أمامه بملء إرادتهم وحرية خيارهم. أذكر أني كنت أردد هذه العبارة منذ زمن بعيد أما اليوم فلا أحد يصغي حقاً إلى ما قلته...»

بادرته مذهولاً: «صحيح أن هناك من يحرّفون تعاليمك ولا يرفعون رايتك إلا ليعززوا مخططاتهم المخادعة ولكن هناك، في المقابل، آخرين أكبر عدداً يحترمون تعاليمك ويجلّونها بكل صدق وإخلاص! فلماذا تقول إن لا أحد يصغي إلى ما قلته حقاً؟»

«يا بني»، أجابني ماركس «هذه نقطة أخرى تثير فيّ القلق والاضطراب. إن الفئة الأولى التي ذكرت تضم أولئك الذين يختارون عبارات من أعمالي ويستخدمونها كأسلحة نظرية. إنهم

يستخدمون مقاطع بكاملها لتحقيق مصلحتهم الخاصة، سواء في الصراع من أجل السلطة أو في اضطهاد الشعب.

ولذلك تجدني صرت أرتعب من فئات الشعب العادي. لقد حولوني إلى شيء يتعارض ومصالحهم. إنهم غرباء عن أفكاري الحقيقية وينتابهم الرعب لمجرد التفكير بي. لماذا يتوصل جميع الذين يسيئون استعمال أقوالي إلى إحراز انتصارات ولو مؤقتة؟

لأنهم يتصرفون كما يرونه ملائماً لمصالحهم الخاصة! أما الفئة الثانية من الناس الذين ذكرت، فإنهم يحاولون بسذاجة فائقة أن يتّبعوا أقوالي بحرفيتها. هؤلاء محكومون غالباً بالفشل. لماذا تترصد الهزيمة جميع من «يجلّون تعاليمي»؟ لأنهم على العكس، لا يتصرفون كما يرونه ملائماً».

«أنا مربك بعض الشيء». بادرته على الفور «هل تعني بما تقوله أن تعاليمك ليست صحيحة؟ لماذا ينجح الذين لا يتبعونها بينما يفشل من يتبعها؟»

«لا تكن متسرعاً. أصغ إلى المزيد الذي سوف أقوله». ألقى ماركس يده العريضة على ركبتي وأردف: «إن النقطتين الأهم في مجمل أعمالي قد أختصرهما صديقي الوفي أنغلز حين تكلم فوق قبري. أول النقطتين، ما يتعلق بالحقيقة الأساسية للمادية التاريخية. أما النقطة الثانية فهي المتعلقة بالقوانين الخاصة التي تحكم نظريات الرأسمالية الحديثة فيما يختص بالإنتاج،والمجتمع الذي تولّده هذه النظريات. أما بالنسبة إلى ميثولوجيا المادية الجدلية ونظرتها إلى العالم فإنها قادرة على إلقاء الضوء على مجمل أعمالي.

والفئتان الآنف ذكرهما، بغض النظر عن طيبة النوايا أو سوئها، لا تفتشان في أعمالي إلا عن حلول جاهزة لكل المعضلات.

لم تأخذ هاتان الفئتان بعين الاعتبار المنهجية التي تشكل الخيط الرفيع الجامع لكل ما فعلت.

أنا شديد الإعجاب بمثلكم الشرقي القائل: «انسَ الكلمات وانتزع منها معناها العميق وحسب». إذا توصل أحدهم إلى انتزاع «معنى» ما قلته، فبإمكانه أن ينسى «كلماتي» بكل بساطة.

أخشى أنه بعد رحيلنا، أنغلز وأنا إلى السماء،لم ينظر الناس إلا إلى «كلماتي» ونسوا «معناها».

«توضحت أمامي الأمور بعض الشيء» قلت «ولكنني مازلت أتساءل لماذا لا ينجح المرء إلا حين يعمل بما يراه مناسباً وما أهمية تعاليمك بالتحديد؟»

ابتسم لي ماركس من وراء لحيته الكثة وأجاب: «لو كانت لاكتشافاتي أي أهمية عند الناس فذلك لأنها تستخدم المادية التاريخية والجدلية. إذا ما أراد أحدهم أن ينجح في الأعمال الثورية. يتوجب عليه تطبيق الميتولوجيا ضمن إطار العمل الذي يعتبره أفضل ما يمكن فعله في المرحلة الزمنية التي يعيش فيها».

«في جميع الأحوال، سوف نعمل على مواصلة عملك العظيم...» قلت له وقد شعرت بوجوب طمأنة الشبح الشهير بطريقة من الطرق.

«ها. ها. ها!» انفجر ماركس ضاحكاً ضحكة مدوية ماكرة.

«أرجوك يا بني، لا تستخف بذكائي. أنا لست بغبي لأصدق أن من أتوا من بعدي يواصلون ما بدأت به. لقد انتهى كل ما بدأت به في العالم ١٨٨٣. إن أبناء كل جيل لا يمكنهم إلا إنجاز أعمال تتناسب والمرحلة التاريخية التي يعيشون فيها.

إن تحرير الجنس البشري لا يمكن إلا أن يكون نتيجة جهد أجيال عديدة متعاقبة. ما من بلاد واحدة أو جنس بشري واحد أو جيل واحد يستطيع أن يجد حلاً لكل شيء، فكيف لإنسان واحد أن يقوم بذلك؟ وحده مخبول جنسي عجوز يدّعي أنه كان قائد ثورة العالم ويطلب من الناس أن يكملوا ما يُدعى «بعمله». يا بني، تذكر ما قاله هيغيل، أن ما من جنس بشري وما من سلطة تعلمت من التاريخ كما ينبغي، كل مرحلة كانت مغايرة واستثنائية.

ما عناه هيغيل بهذا القول أن كل مرحلة يمكن أن نرى إليها ونقيّمها بالنظر إلى الظروف السائدة حينها ليس إلا. ولم ينجح أولئك الملوّحون بالراية الماركسية إلا أنهم أدركوا ذلك. بيد أني لو كنت لا أزال على قيد الحياة لقلت لهؤلاء: «ماذا لو تستخدمون كلماتكم الخاصة؟ إنكم، وعلى غفلة منكم، قبضتم على معنى أقوالي ولكنكم تتشبثون بشراسة بكلماتي القديمة وتحولونها في الغالب إلى عكس ما تعنيه. قد أبدو فظاً بعض الشيء، ولكني اؤكد لك أن كل الأعمال الثورية الناجحة كانت تستخدم، بوعي أو بلا وعي، قوانين المادية التاريخية والمادية الدياليكتية.

وقد يوازي استخدام كلماتي في غير محلها، موتي مرة ثانية. آه، يا بني إن الموت ليس بالأمر المفرح خصوصاً حين تكون مكرهاً على مراقبة الناس وهم يقتلون روحك مراراً وتكراراً وأنت عاجز عن القيام بأي شيء لردعهم».

«أجل» أجبته. «لقد فكرت مراراً بطريقة مماثلة، ولا شك أن المقارنة بيني وبينك هي مقارنة غير مجدية في الأساس. بالنسبة إلى مستقبل مجتمعنا، هل من مشورة يمكنك أن تقدمها لي؟ إن هذا السؤال لا يتعلق فقط بطريقة تعاملي مع الحياة بصورة عامة، إنما

أيضاً مع حياتي وموتي أنا».

«الاقتصاد» أجابني ماركس على الفور. «عليك أن ترى إلى كل مشكلة انطلاقاً من نقطة استشراف علم الاقتصاد. لقد وصفت بإيجاز النظرة التاريخية للمادية. حين تبلغ وسائل الانتاج المادي مرحلة معينة من التطور، يظهر جلياً تناقض وسائل الإنتاج الجديد مع موارده القديمة. فتبدو هذه الأخيرة أشبه بقيود تكبّل سير عملية الانتاج وتتمظهر عندها الحاجة إلى مرحلة جديدة تطلقها ثورة اجتماعية.

ومع تغيرات الأسس الاقتصادية، يطرأ على البنى الفوقية، بطريقة أو بأخرى تغيرات جديدة.

وبوسعنا أيضاً أن نرى إلى هذا من منظار مختلف: حين تنخفض وسائل الإنتاج حتى لا تعود تتوافق وحاجات المجتمع، تحاول عندها ثورة اجتماعية إنقاذ القوى الإنتاجية من براثن الموت، فيبدو وكأنما ينطلق هذا النوع من الثورات الاجتماعية بادىء ذي بدء من البنى الفوقية.

إن التحول الذي يطرأ على البنى الفوقية يحدث تغييراً جذرياً في صلات الإنتاج.

حالياً، إن قوة الإنتاج خاصتكم قد تمّ تحييدها وإبطال مفعولها. إنكم تنصرفون إلى الكلام الفارغ بدل أن تنصرفوا إلى التنفيذ العملي.

إنه لأمر مضحك كيف أن الأفواه هي التي تتطور في هذا الزمن بدل الأيادي أو الأجساد.

أو تعتقد فعلاً أن الأمر يمكن أن يستمر طويلاً على هذه الحال؟»

كان ماركس قد تفوه بالكلمة الأخيرة حين فتح باب منزلي. خرج كاو كزوي من الغرفة المعتمة وقد ألقى سترته على كتفه. في اللحظة عينها، خرج قطّنا الرماديّ ليعثّر خطواته المسرعة وهو يعدو باتجاه منزله. أطلق القط الرمادي مواءً عالياً وقفز على أفريز المنزل.

مجرد التفكير أن هذا الرجل، الذي كان واحداً من الذين أساءوا إلى روح الفقيد، كان عضواً في الحزب الشيوعي...!

الجزء الرابع

١

«بحق السماء، ما الذي تفعله جالساً هناك؟»

«أنظر إلى القمر. لقد كان البدر مكتملاً وها قد بدأ يميل إلى الشحوب مجدداً!»

«يا لك من مغفل. كيف لامرأة أن تتصرف يا ترى وهي قد تزوجت رجلاً مثلك؟»

كنت أبذل كل ما بوسعي لأتحاشى الدخول إلى الغرفة الداخلية ولا أتوجه إليها إلا للنوم. منذ تلك الحادثة، خيّل إليّ أن كاو كزوي قد اخترق كل زواياها وسكن برائحته وظله كافة أرجائها. لا بد أنهما في هذا المكان قد... هل حصل ذلك على هذه الجهة من السرير أو تلك؟ لا شك أنهما لم يستخدما الجهة التي أنام عليها. رحت أتخيل كل حركة قاما بها: هكذا دلف إلى المنزل، وهكذا اقتربت منه لتحييه قبل أن يتعانقا ويدخلا إلى الغرفة الداخلية.

من منهما يا ترى مدّ يده ليطفىء النور؟ كيف يا ترى راحا يتقلبان على السرير؟ كنت أدرك أنها بارعة في القيام بكل حركة،

بما فيها التأوه وإطلاق الأصوات الصغيرة. هل تراها أجادت أداء المشهد بين ذراعي كاو كزوي؟

كنت على يقين أن كل هذا مجرد هراء، بيد أني كنت عاجزاً عن وضع حد لكل الأفكار والتخيلات المتقلبة كالدوامة في رأسي.

حتى أني صرت أستيقظ فجأة في منتصف الليل لأتنشق بعض الهواء، فأجد أن رائحة غريبة قد امتزجت بكل الروائح الأخرى.

بعد أن أعود من الزرائب وأتناول طعام العشاء، كنت أمضي معظم الوقت المتبقي جالساً في حديقتي الصغيرة أراقب القمر وأستمتع برقة النسمات. أما بالنسبة إلى الكتابة، فماذا عساني أجرؤ على كتابته؟ إن هذه المرأة تشكل خطراً أكبر من ذلك الذي كان يشكله زو روتشينغ. على أية حال، لم أعد أبدي أي رغبة في الكتابة فأنا كنت «معاقاً» و«نصف رجل» ويجدر بي الاكتفاء بوجودي والمراقبة والانتظار. كانت حرارة الصيف تزداد ارتفاعاً. تمّ حصاد القمح وهبّ هواء ساخن فوق الحقول المحروثة حديثاً حاملاً معه رائحة الأرض الطيبة.

في البعيد، كانت جرارة تعمل في الأرض وتصدر صوتاً أشبه بصوت حيوان. الجرارة وبالرغم من أنها كانت مصنوعة من الفولاذ والحديد، بدت وكأن روحها امتزجت بالأرض.

في حديقتي، لم يكن ليحجب نظري أي شيء وكان بوسعي رؤية صفوف شجر الحور والزيتون البري التي كانت تنتصب شامخة وكأنما لتشهد بصدق على كل ما يحصل في الطبيعة.

لم تكن لتنسحب أو تختبىء وكان هواء الليل ينقل إليّ بين الفينة والأخرى، دمدمة سخطها واستيائها.

كنت أراقب القمر المحدودب الحزين يسطع في الجهة الجنوبية

عند حلول المساء، ومن ثم أراقبه وهو يغرب عند منتصف الليل.

كنت أرى إلى القلق المرتسم على حاجبي الهلال حين يظهر في السماء بينما الشمس إلى غياب، فيبدو وكأنه يطارد الشمس الغاربة ويكاد يقبض عليها قبل أن يتوارى الاثنان وراء التلال.

«انظر إلى نفسك. إنك متسخ ونحيل في هذه الأيام».

كانت تنزع الثياب عن حبل الغسيل وتبينت في نبرة صوتها ما يشير إلى مراعاتي والامتعاض مني في آن:

«لو رآك الناس بمظهرك هذا لسوف يحسبون أني أستبد بك استبداداً. هل تأكل جيداً؟ هل تشرب جيداً؟»

شعرت بأني أصبحت في أعين الآخرين مجرد مأكل ومشرب: «إذا كنت نحيلاً فبئس الأمر» قلت لها بهدوء: «أما بالنسبة لمظهري الوسخ فأنت تعرفين تماماً كم هي حادة أشعة الشمس في هذه الفترة».

«أولا تملك الفطنة الكافية لتتفادى الشمس وتبقى في ظل الشجر؟ يجدر براعٍ مثلك أولي مسؤولية كبيرة، أن يعرف كيف يتقي ضربات الشمس».

بدأت النجوم تومض واهنة في سماء الليل. لم تكن أشعة الشمس الحمراء غابت كلياً وراحت تسطع بصمت على التلال الغربية.

«اجلبي الكرسي الصغير وتعالي واجلسي إلى جانبي لتري بنفسك روعة هذه الأمسية».

«أنا مشغولة جداً. ومن ثم ما الذي يجعلك تظن بأني أرغب مثلك في قضاء الليل أعد النجوم؟»

كانت تحمل حملاً كبيراً من الغسيل وأزاحت ستارة القصب أمام الباب الأمامي ودلفت إلى الداخل. جلبت معي ستارة القصب بينما كنت أقوم بجولة مع القطيع في أرجاء البلدة، وسارعت هي إلى حَبْكِ حاشية بيضاء عليها وقالت لي: «بهذه الطريقة سوف تدوم لسنوات عديدة». كانت لا تزال تفكر بمنطق «السنوات».

حين دلفت أخيراً إلى الغرفة الداخلية، كانت تخيط النعال على بعض الأحذية: «لمن هذه؟» سألت بشيء من التهكم.

«لمن عساها تكون إلا لك؟ ما من أحد غيرنا في هذا المنزل فلمن تراها تكون؟» رفعت يدها وراحت، بطرف الأبرة العريضة تحك رأسها برفق. كانت حركاتها حاذقة، ومهارتها تغوي الناظر إليها. كل قطبة كانت أشبه بحركة في أوبرا بكينية. كانت النعال كبيرة الحجم وكانت لي أنا بلا أدنى شك.

خلعت ثيابي وتمددت على السرير. في أوقات الصيف الحارة، كان السرير الموضوع على المنصة الترابية يحتفظ ببرودته كمثل ضوء القمر.

بظهري العاري الممدد على الفراش القطني الرقيق، شعرت وكأني ورقة صغيرة أطوف على سطح مياه راكدة وأدع الهواء يحملني إلى حيث يشاء.

قبل ثلاثة أشهر، كنت أعتقد أني سوف أتوصل إلى فهمها وها قد انقضت ثلاثة أشهر وهي لا تزال عصية على الفهم. كانت الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين·على حق حين قالت له «إنه من المستحيل أن نتوصل إلى فهم كائن بشري غيرناخصوصاً إذا كان هذا الكائن امرأة».

* * *

في الصباح التالي لحادثة تعطل الجرارة، جرّها كزياو لي - تز عائداً بها إلى البلدة وجلست أنا في المقطورة الفارغة.

كنا ربطنا الحصانين خلف العربة ولما كانت الجرارة تتقدم ببطء، كان بوسعهما مواكبتها من دون جهد يذكر، بيد أنهما كانا يخطوان خطوات متثاقلة واهنة وهما يميلان برأسيهما بحسب وقع حوافرهما.

وصلنا إلى حيث كانت الفرقة بدأت عملها الصباحي واحتشد الناس على مفترق الطرقات للتفرّج على موكبنا الغريب.

قبل أن نصل إلى الحشد، واستباقاً لأي تعليقات محتملة قد تسبّب ورطة سارع كزياو لي - تز إلى الصياح قائلاً: «اللعنة! لم نتمكن من إصلاح المحرك! لقد تعطل بنا قبل أن نصل إلى المحطة وتركنا بلا حول ولا قوة هناك في العراء.

ولحسن الحظ أن لاو زانغ نجح في العودة عند منتصف الليل مصطحباً معه حصانين دفعنا بهما الجرارة فاشتغل محركها من جديد، وإلا لكانت أكلتنا الذئاب!

كل من يود أن يحاول إعادة تشغيل هذه الآلة اللعينة بشكل لائق أهلاً وسهلاً به، أما أنا فذاهب إلى بيتي لأحظى بقسط من النوم».

قفز كزياو لي - تز من الجرارة، وتوجه إلى منزله على دراجة هوائية لكي ينام في حضن والده، «الموظف الرسمي» الفاضل. رأيتها فجأة تحدق بي بعينين قلقتين من بين حشد المتفرجين: «هل حقاً عدت في الليلة الفائتة إلى البلدة لتجلب الحصانين؟»

ارتسمت على وجهها ابتسامة مفتعلة، قلقة.

«أجل» أجبتها وأنا أنحني لأفك حبال الجر التي كنت ربطتها إلى المقطورة.

«لماذا لم تمر بالمنزل؟» سألتني وهي تسير ورائي.

«ها»! أطلقت ضحكة باردة وكانت المرة الأولى التي أضحك فيها بهذا الشكل منذ يوم زفافنا.

«يبدو أنك لم تكوني لوحدك». أجبت بكل هدوء قبل أن أمتطي الحصان لأتوجه به إلى الزريبة. بعد تلك الحادثة صارت تكلمني بنبرة تحمل الكثير من المراعاة والامتعاض في آن، وكان ذلك أفضل بكثير من النبرة الساخرة التي كانت درجت على استخدامها معي في المدة الأخيرة.

راحت أيضاً تغسل ثيابي بعناية فائقة تصل إلى حد المبالغة أحياناً فأقول لها: «أنا معتاد على حياة العزوبية ولا أكترث إذا ما كانت ثيابي متسخة بعض الشيء. وفي جميع الأحوال لا أزال أكثر نظافة من كثيرين غيري».

«قد تكون أنت معتاداً على الوساخة أما أنا فلست كذلك». كانت تجيبني وهي تجبرني على خلع كل ثيابي. إن رائحة عرق الأحصنة تنبعث من أنحاء جسدك. لا شك وأنك حين تمر من أمام الناس يسارعون إلى سد أنوفهم.

على أية حال لا تعتمد على الآخرين وتتمثل بهم لاتخاذ قراراتك ـ إذا ما قرر أحدهم الذهاب إلى الموت، هل يعني ذلك أنه يتوجب عليك أن تموت أنت أيضاً؟»

«أجل، ربما!»

صارت أيضاً تصنع لي الأحذية ولم تعد تأتي على ذكر

حصص الطعام «التي قد لا تكفينا» إذا ما أفرطت مرة في الأكل.

كنت بالكاد أقوى على الاستمرار في حياة مماثلة ولكن هل كان عليّ أن أدمرّها معي هي الأخرى؟ كنت مستلقياً على السرير وعيناي تحدقان في الروافد فوق رأسي، حين قررت أن أفاتحها بموضوعنا: «كزيانغجيو... أنت تخافين من الطلاق لأنه لم يمض على زواجك الثالث سوى أشهر قليلة.

إنك تخشين أن يؤثر ذلك على سمعتك، إذاً فلننتظر، وبهدوء تام، أن تمضي سنة على الأقل. في العام المقبل سوف نتقدم بطلب الطلاق وسوف يكون الأمر سيان إذا ما تقدمت به أنا أو أنت. لقد تزوجنا بملء إرادتنا وسوف نفترق بملء إرادتنا كذلك.

أما بالنسبة إلى الأسباب، فسوف نردها إلى أننا لم ننسجم في العيش معاً بكل بساطة. فأحدنا شمالي والآخر جنوبي وعاداتنا تختلف اختلافاً كلياً، ما رأيك؟»

لم تجبني بكلمة واحدة وكان صوت الإبرة المنغرزة في النعال يملأ أرجاء الغرفة. ثم سمعت صوت ارتطام خنفساء بزجاج النافذة. كانت تحاول الوصول إلى القنديل ولكنها سقطت على حافة النافذة وانقلبت على ظهرها وراحت تتخبط وسط أزيز وأصوات غريبة. صاح مكبّر الصوت معلناً وجوب إطفاء كل الأنوار. إنها الساعة العاشرة وعلى الجميع أن يأووا إلى فراشهم. كان هذا أمراً يصدره «جيش تحرير الشعب» ويتوجب على الجميع الامتثال.

حتى في قريتنا النائية هذه، كان بوق الجيش يملي علينا برنامج حياتنا اليومية وكانت الأوامر مسجلة على آلة تسجيل: أوامر

للنهوض وأخرى للذهاب إلى العمل ونهاية دوام العمل وإطفاء الأنوار...

أحياناً كانت الصبايا الموكل إليهن مهمة إذاعة الأوامر، يخطئن في بثها فيروح المكبر يعلن عن انتهاء دوام العمل بدلاً من بدئه وعن موعد النهوض حين يكون الناس على أهبة العودة إلى منازلهم... في هذه الليلة أتى الأمر على نحو صائب حين أعلن البوق موعد إطفاء الأنوار.

سارعت لإنهاء ما كانت تخيطه ثم تناولت فرشاة لتنظف بها الفراش القطني بحركات رشيقة وسريعة وقبل أن تتمدد على السرير، مدت يدها وأطفأت النور، فتوارى الزمن في العتمة ومعه تلاشت الحياة أيضاً. لا تزال الخنفساء تصارع على حافة النافذة، عاجزة عن تقويم جسدها. قد لا تنجح في ذلك على الإطلاق ولكن يتوجب عليها الاستمرار في المحاولة. للحظة، خيّل إليّ أن أزيزها قد امتزج بالطنين المدوي في أذنيّ، حتى لم يعد بمقدوري التمييز بين الصوت الصادر من ذلك الأزيز ونبض الدماء المتسارع في شراييني. شعرت أني قد أكون أنا الخنفساء. سرى خدر في ظهري وشعرت بإرهاق شديد وثقل في أوصالي وعندما بدأ النعاس يغالبني، تكلّمت: «ماذا لو تذهب إلى المستشفى، لقد سمعت أن حالتك قابلة للشفاء».

لم أسمع صوتها إلا بعد هنيهة وبذلت جهداً كبيراً لأخرج من خدري وأحافظ في الوقت عينه على هدوء أعصابي. أردت أن أظهر لها تعقلي واستعدادي للكلام، ولكني حين سمعتها تلفظ كلمة «مستشفى» لم أقو على لجم نفسي من الضحك.

«أو تعتقدين أنهم سيولّون في المستشفى اهتمامهم لمرض مماثل؟

ترينهم حالياً يصبون كل اهتمامهم على حالات الاجهاض!»

«ولكن في حال قصدت مستشفى كبيراً أو لربما فتشت عن أحد من أطباء «النهر والبحيرة»... خيّل إلي أن صوتها يأتيني من مسافة بعيدة.

«لا بد وأنك تمزحين». أجبتها وكأني أكلم نفسي.

«إذا ما قصدت مستشفى كبيراً وأبرزت لهم بطاقة هويتي لسوف ينظرون إليها شذراً ويرفضون حتى تسجيل إسمي، هذا إذا ما أعطتني السلطات أصلاً، أذناً بالذهاب. أما بالنسبة إلى «طبيب النهر والبحيرة»(*) فأين عساي سأجد واحداً في أيامنا هذه؟ لقد تمّ إقصاؤهم جميعاً تماماً كما قطعت ذيول الرأسمالية.

شعرت بصفاء ذهني وأدركت أني قررت بأنه يستحيل علي الاستمرار في العيش معها. فقدت كل أمل في الشفاء من «مرضي»، حتى أنني كنت أرغب في توسيع الهوة بيننا، وإذا ما أمكن، جعل الأرض بكاملها تفصل بيني وبينها.

خيّم الصمت علينا لوقت طويل. «أجل، إن مايحكى في العتمة هو الأصدق» قلت لنفسي. كل شيء قد ولد في الظلام، وكل ما يحدث في الظلام هو صادق وحقيقي. بوسعك أن تتكلم بكل صراحة وسط العتمة وتقوم بكل ما ترغب به بكل صدق». إن الأكاذيب لا تخاف من الضوء أما الحقيقة فبلى.

«هذا هراء!» قالت أخيراً. لم أشعر يوماً بأني غير قادرة على الانسجام معك. ماذا تعني بأن أحدنا شمالي والآخر جنوبي؟

بعد كل هذه السنوات في المخيمات والأشغال الشاقة، كم يا

(*) طبيب يداوي بالأعشاب الطبيعية ويمارس الطب الصيني التقليدي.

ترى استبقيت من عاداتك الجنوبية تلك؟ أو تعني أنك لا تحب أكل العصائبية أو الخبز المستدير المسطح؟(*) على أية حال، مهما تكن عاداتك الجنوبية فأنا قادرة على التأقلم معها شرط أن تتحسن حالتك».

«هذا بالضبط ما لن يحصل إذ أن حالتي لن تتحسن أبداً». قلت هذا ولم أتردد لحظة في التعبير عن يأسي أمامها.

«إذاً، لا تضع اللوم عليّ!» أجابتني وفهمت للتو ما كانت تعنيه بقولها هذا.

«أنا لا ألومك: كل ما أرجوه أن نمضي السنة القادمة بأشدّ هدوء ممكن». شعرت أنها فهمت تماماً ما عنيته بكلمة «هدوء».

إذا كنت تشعرين بأن هذا غير ممكن أو غير ملائم، يمكننا تسريع الوقت وتقديم طلب الطلاق ابتداءً من الغد».

«إنس الأمر. هل لك أن تنسى الأمر!» أجابت وقد بدأ الغضب يشوب نبرتها.

«أنا أعجز عن مجاراتك في الكلام. إن بواطنكم، أنتم جماعة الكتب، محشوة بالأساليب الملتوية الغادرة».

«أنت تقرأين أيضاً. أولم تنهي المرحلة المدرسية المتوسطة؟ عليك أن تفهمي بالتالي المنافع التي تمليها المصالح المشتركة وتصغي إلى صوت المنطق. أو لا تخشين على سمعتك من الأقاويل؟»

«لا تكن متهكماً، أسمعت؟» اشتد غيظها، بيد أنه لم يبلغ الدرجة اللازمة لتدفعها إلى تغيير رأيها. «إذا كنت ترغب في التقدم بطلب للطلاق فلا تتأخر. أما أنا فلا أنوي ذلك. وعلى أية حال،

(*) يأكل الجنوبيون عادة الأرز فيما يفضّل الشماليون الخبز والعصائبية.

أنت من تولى أمر كتابة طلب الزواج في الأساس». هذه المرأة كانت فعلاً مجردة من الأخلاق!

لجمت غضبي وأنا أفكر كيف كانت تستغلني.

لقد فهمت صبري ورفقي على أنهما ضعفٌ وجبنٌ، وها هي الآن تستخدمني واجهة تخفي وراءها خياناتها. كانت تضيق عليّ الخناق وترفض إطلاق سراحي.

2

استمر هطول المطر غزيراً طوال النهار التالي وليله. كانت هذه العاصفة المطرية، وعلى عكس سابقاتها، عاصفة مفاجئة لم تعلن عن قدومها بقطرات متقطعة، وانهمر المطر غزيراً قبل أن يتحضّر الناس ويستعدوا لمفاجآته. لحسن الحظ، كان تمّ حصاد القمح وإلا لكانت أغرقته السيول الجارفة من غير أن تبقي منه على حبة واحدة. بدت الأرض وكأنها تتشتت في جميع الاتجاهات، بينما تنتشر المياه الموحلة لتملأ البقاع الممتدة. انتفخت الأشجار بالمياه وتدلت أغصانها ثقيلة، واهنة، وقد أنهكتها ضربات المطر المتواصلة.

نظرنا من النافذة وما رأيناه كان طبيعة ممتدة بدت لنا غير مألوفة على الإطلاق، وكأنما قد نقلتنا يد خفية إلى عالم آخر.

انتاب سكان القرية قلق هائل وقد شعروا وكأن الأرض تحت أقدامهم قد تنهار في أية لحظة.

كانت منازل القرية شيّدت على بقعة من الأرض مرتفعة بعض

الشيء، ولم تكن المياه قد غمرتها بعد. بيد أن القرية بدت وكأنها صحن صغير ممتلىء حتى حافته. حول المنازل، طاف الوحل ممتزجاً بنفايات حملها من المنازل الأخرى؛ نفايات المراحيض وزرائب الخنازير والخيل والمواشي، تسربت كلها إلى الخارج وها هي الآن تطوف حول منازلنا. لم يكن الفيضان غمرنا بعد، لكن منسوب المياه الموحلة كان يرتفع تدريجياً.

بانت شقوق على بعض الجدران وانهار عدد من المباني المهجورة. راحت الخنازير من كافة الأحجام، تصيح في الممرات الموحلة وهي تبحث عن مكان تختبيء فيه من المطر، ولم تجد سوى أفاريز المنازل المبتلة لتحتمي تحتها وهي تنظر إلى السماء نظرات بائسة تعيسة. سقت الأحصنة الأربعة والعشرين التي كنت مسؤولاً عنها إلى مستودع كبير كان يستخدم مكاناً للقاءات.

ولما أن القمح لم يكن قد درس بعد ولم يتم حصاد الأرز، كان المكان فارغاً إلا من الشعارات. وبينما كانت الحيوانات تتدافع إلى الداخل، راحت تجيل نظراتها في أرجاء المكان كما لو أنها تتأهب للاستماع، بكل احترام وتقدير، إلى تقرير طويل حول انتقاد «سونغ جيانغ».

عندما بدأ هطول المطر، جررتُ من الزريبة عمودين طويلين لأسند بهما واجهات منزلنا الخارجية. حين دخلت إلى المنزل، كانت قد حضّرت لي المياه الساخنة. مدّت إلي الصابونة والمنشفة قبل أن تساعدني على خلع ثيابي المبللة.

«إنه لأمر رائع أن يكون في البيت رجل!» قالت لي مبتسمة والسعادة بادية على وجهها.

«الرجال ـ من السهل إيجادهم في كل مكان» أجبتها مضيفاً

«إن المقتنيات المادية يصعب إيجادها بينما الرجال متواجدون بوفرة».

«ليس بالضرورة» وخلافاً لردات فعلها المعتادة، صفعتني على ظهري. «من الصعب إيجاد رجال مثلك». انكمش ظهري وقلت لها بلهجة غير مبالية: «بالنسبة إليك، إن أي رجل قد يفي بالغرض».

شعرت بذهولها وهي واقفة خلف ظهري ولم تتفوه بكلمة إضافية.

أمضت كل فترة بعد الظهر تخيط الأحذية وتحضر طعام العشاء وهي غارقة في صمتها، ولم أسمع صوتاً صادراً عنها إلا حين أوينا إلى الفراش وأطلقت تنهيدة عميقة.

انقطع التيار الكهربائي في تلك الليلة وقد ارتأت السلطات قطع المحوّل الرئيس خشية أن تغرق أعمدة الكهرباء بالمياه وتتداعى فتحدث أضراراً بالغة. غرق كل ما في الداخل والخارج في الظلام.

وتساءلت في وسط العتمة لماذا تراني أستمر في إيذائها بأقوال جارحة من ثم أطلقت أنا أيضاً تنهيدة عميقة.

حين انتصف النهار في اليوم التالي، وكان يخيّل للجميع أن انهمار المطر سوف يستمر إلى ما لا نهاية، توقف المطر بصورة مفاجئة تماماً كما بدأ، وكأن السماء أغلقت حنفية ما مركزية ضخمة لتوقف الفيضان الهائل في غضون ثوان. لم يبقَ أثر لنقطة واحدة في الجو. هبّ هواء رطب شرع يحرّك المياه مثل الأمواج على الأرض التي تحولت إلى مستنقعات هائلة. كانت غيومٌ سوداء عملاقة لا تزال تتسارع في السماء لكنها سرعان ما توارت مخلّفةً وراءها إشراقة وصفاء.

كنا جميعاً بدأنا نتنفس الصعداء حين انطلقت فجأة من كل أنحاء القرية، صفارة مدوية اخترقت آذاننا مثل قضيب حديدي مسنن.

«أسرعوا! أسرعوا! ثمة صدع في القناة! أحشدوا قواتكم وليتوجه الجميع إلى القناة واحملوا معكم الرفوش والسلال!»

انطلق قادة الفصائل والفرق يتسارعون في الطرقات الموحلة بأقدامهم العارية. احتشد الرجال والنساء يسألون عن الأخبار رغم أنه لم يكن ثمة حاجة للسؤال، فالأمر عينه كان يحدث سنوياً بعد أمطار الصيف الغزيرة، بيد أن هذه السنة كان أسوأ بكثير من السنوات الفائتة، مما أربك العمال ووضعهم في حيرة من أمرهم، لا يعرفون بالضبط ما يتوجب عليهم القيام به.

«اللعنة، لو ذهبنا جميعاً، من سيبقى هنا ليحرس المنازل؟»

«إن الأمر مضحك بالفعل! إنهم لا يعرفون حتى كيفية إصدار الأوامر!»

«فلننتظر لنرَ ما إذا كان الرؤساء سيذهبون. في حال لم يفعلوا، لسنا مضطرين للذهاب نحن كذلك».

«ماذا لو كان هناك صدع حقيقي في القناة ووصل فيضان المياه إلينا؟ لن يبقى في منازلنا صحن واحد».

«وماذا عن الأطفال؟» صاحت إحدى النساء... بيد أن الرؤساء تحركوا جميعاً وانطلقوا في الطرقات الغارقة في الوحول حاملين الرفوش على أكتافهم.

مر كاو كزوي راكضاً وهو يصرخ: «الرجال إلى الخارج جميعاً! أما النساء فيلازمن المنازل ويتولين حراستها. لا تنسين أن

المياه بلا رحمة. إذا ما وصل الفيضان إليكن، لا تضيعن الوقت في البحث بين الأشياء التي يحملها معه وإلا فلن نتمكن من النجاة».

تغيرت نبرة صوته فجأة، فأدرك الجميع أخيراً أن الأمر بمنتهى الخطورة. هرع رجال القرية باتجاه الجهة الغربية من القناة وهم يحملون الرفوش والسلال على أكتافهم، في حين أسرعت النساء إلى الداخل لحماية أطفالهن وقبعن هناك في الانتظار.

اصطحبنا نحن رعاة الخيل ورعاة الخنازير ورعاة البقر، قائد الفرقة المسؤول عنا إلى مستودع لنجلب أكياس الخيش التي يتوجب أن تملأ بالرمل لسد الصدوع بواسطتها.

كنا ما زلنا على بعد مسافة من القناة حين تناهت إلينا الأصوات والصراخ من على ضفافها.

وصلنا إلى مكان القناة وكان يعج بحشد كبير من الرجال، وقد توافد أيضاً رجال من البلدة المجاورة فاقونا عدداً. وراح كل فريق لا يولي اهتمامه لغير جانب القناة المواجه لقريته وحسب، كما لو أن المياه لا تفيض باتجاه القرية إلا من الجهة المقابلة لها. كان الرجال يتدافعون على ضفاف القناة كما النمل الزاحف خارج وكره في يوم ممطر. تبيّن لنا أنه ليس في القناة أي صدع.

بيد أن الأرض الممتدة غربي القناة تحولت إلى مستنقع هائل من المياه؛ وقفت على الضفة أنظر باتجاه سفح الجبل، فلم أرَ شجرة واحدة أو بقعة صغيرة واحدة جافة. كانت بقعات كبيرة من الزبد الضارب إلى الصفرة، تطوف على سطح المياه كما الجبال الجليدية ومعها أعشاب مختلفة وأخشاب متعفنة امتزجت مع روث الأغنام وراحت تدوّم في المياه وكأنها تفتش عن مخرج لها في الضفة المقابلة من القناة.

كانت عصفات الريح تضرب كالسوط سطح المياه فتحوّله إلى أمواج تروح تتلاطم بجانبي القناة. كان المنظر يشي برعب حقيقي بالنسبة إلى المزارعين الذين لم يشاهدوا البحر في حياتهم.

كانت المياه قد تدفقت من أعالي الجبال بيد أنها لم تكن وصلت بعد إلى داخل القناة. فيضان المياه كان خارج ضفاف القناة الممتدة على خط موازٍ لسلسلة الجبال الغربية، بيد أن الجهة الغربية لضفة القناة كانت تشكل، ولحسن الحظ، حاجزاً أمام الفيضان المتدفق ولكن منسوب المياه كان يرتفع تدريجياً وكاد يبلغ حافتها. وفيما لو انهارت هذه الضفة لتدفقت الفيضانات غزيرة من الضفة الشرقية لتدمر قرى عديدة واقعة إلى الجهة الشرقية من القناة.

لم يكن قد تمّ تشييد القناة مع نفق مخصص لتفريغ المياه الفائضة ولم يكن ثمة من وسيلة للتخفيف من الضغط المتزايد إلا عبر حفر مصارف للمياه في مكان آخر، لذلك فلم يكن أمامنا سوى نقل التراب إلى ضفاف القناة حتى نزيد من ارتفاعها. شرع الرجال في العمل بذعر وهلع بيد أنهم أخذوا ينظمون صفوفهم تدريجياً وتوزعت المهام بصورة تلقائية فتشكلت صفوف من رجال ينقلون التراب وآخرين يتولون تعبئتها في السلال وغيرهم ينقلونها إلى المكان المقصود وآخرين مسؤولين عن تدعيم السور المستحدث.

«سوف نصبح في مأمن إذا ما توقفت المياه عن الارتفاع».

«اللعنة عليها، سوف تقتلنا جميعاً إذا ارتفعت».

«هل تجيد العوم؟»

«ومن ذا الذي يجيده؟ نحن جميعاً هنا أشبه بأوزات المستنقعات الجافة».

«لا تقلق. عندما تموت سوف تعوم بطبيعة الأحوال».

حاول أحدهم أن يهدىء من روع الآخرين بشيء من الضحك.

«أو تعرف أن الرجال يغرقون وبطونهم نحو الأسفل أما النساء فيغرقن ووجوههن إلى الأعلى».

«هل ثمة فرق كبير بين النساء والرجال حتى في الغرق؟»

«أجل بالطبع، تماماً كما أثناء ممارستهم الجنس».

«علا فجأة صراخ أحد الرجال الواقفين على مقربة من ضفة القناة. «انظروا أوليست هذه جثة».

حوّل الجميع أنظارهم إلى حيث أشار بأصبعه إلى مكان في المياه حيث كانت الجثة تطوف ولا تزال في سترتها الخضراء.

«إن بطنه مقلوب إلى الأسفل. لا بدّ وأنه واحد من رعاة الخراف».

«لو كان ذلك صحيحاً فأين الخراف إذاً؟»

«، لا، إن هذا الرجل من قسم حراسة الغابات فوق في الجبال».

بعد ظهور الرجل الميت، تلونت وجوه الجميع بالرعب والهلع.

«اسرعوا! أسرعوا! اجلبوا التراب. في حال انهارت الضفة سوف نصبح جميعاً مثل ابن الزانية هذا»

كنت واحداً من المسؤولين عن تدعيم الضفة، وما إن كانت سلال التراب تصل إلى يدي حتى أسارع إلى تفريغها واحدة تلو الأخرى وأروح أدوس الأرض بقدمي لكي أجعلها متراصة صلبة.

في الريح الباردة كان العرق يتصبب من جسدي كما لو أن طاقة جديدة أضيفت إلى قوتي العادية ولم أنفك عن الصراخ أثناء العمل: «هيا تحركوا، أسرعوا إلى هنا، إلى هنا...»

من كان يعمل بجهد أكبر، كانت تولى إليه سلطة على

الآخرين، فاختفت بالتالي كل الفوارق ما بين قادة الفرق وأمين السر والعمال العاديين.

في وقت كهذا لم يكن الناس يطيعون سوى من يبدو الأكثر كفاءة وبراعة. كنا في وضع حياة أو موت يدفع إلى الانهيار كل مظاهر الهرمية المعتادة.

«حسناً» صرخت قائلاً: «لن يرتفع منسوب المياه أكثر مما هو عليه حالياً».

«وكيف لك أن تعرف ذلك؟»

«لقد وضعت عند وصولي علامة وقد مضت أكثر من ساعة ولم تتخط المياه هذه العلامة».

«هاي، إن صديقنا لاو زانغ هو الأذكى بيننا، نحن الذين لا نعمل إلا بتهور وعلى غير هدى».

ضحك المزارعون وقد وافقوا على ما قاله زميلهم. كان كاو كزوي يعمل في الصفوف الوسطى، تلك التي تتولى تمرير سلال التراب وراح يضحك هو الآخر.

«يمكننا إذاً أن نتنفس الصعداء. بوسع كل من في حوزته سيجارة أن يأخذ فترة من الراحة ليدخن».

«وأين ترانا نجد سيجارة؟ إننا مبللون حتى العظام».

«خذ واحدة من أمين السر. معه تبغ من الصنف الممتاز...»

«لا وقت للراحة» صرخت من موقع الآمر، ورمقت كاو كزوي بنظرة حادة. «يتهددنا حالياً خطر تسرب المياه من ضفة القناة الخارجية. لو ظهر فيها ثقب لا يتعدى حجم الأصبع فسوف ينهار كل شيء».

«هذا صحيح» قال كاو كزوي وهو يسارع إلى رمي سيجارته وأضاف «فليتفرق الجميع بحثاً عن وجود محتمل لأي ثقب».

بالكاد أنهى كلامه حتى صرخ أحد القرويين من بعيد: «ثمة ثقب هنا ـ أسرعوا في مساعدتي لوقف تسرب المياه».

«أجلبوا سلة».

«فليجلس أحد عليه».

«أيها القائد، هل نقرع جرس الإنذار؟»

انضم إلينا بعض القرويين وأسرعوا، بفوضى وهلع، إلى حيث الثقب ـ كان القلق بادياً على وجوههم وهم لا يجهلون ما العمل. هرع إلى المكان أيضاً رجال من فرقتنا. إن انهيار هذا القسم من الضفة لسوف يتسبب في دمار قريتنا أولاً والقرية التي في مواجهته هي الأخرى.

كان الثقب بحجم دلو صغير وكانت المياه الموحلة تتسرب منه إلى خارج القناة مصدرة صوتاً مرعباً وكأن المياه لم تكن جسماً سائلا إنما كرة معدنية حطّمت كل شيء في طريقها، وها هي الآن تتدحرج باتجاه الضفة، غير آبهة بما قد يعترضها. سلال التراب التي أفرغها القرويون تحولت إلى وحول وكانت السلال الفارغة تطوف فوق المياه المنتشرة في كل مكان.

ابتعد بعض القرويين الذين كانوا متمركزين على مقربة من الثقب بضعة أمتار وأخذوا يحاولون التسلق إلى أعلى الضفة.

«من غير المجدي أن تحاولوا سد الثقب من داخل ضفة القناة» صحت بهم: «سدّوه من الخارج!»

لم تختف الهرمية المعتادة وحسب، بل امحى معها ذلك الخط

الفاصل عادة بين القرويين والعاملين في المزارع الحكومية وراح الجميع يعملون يداً بيد وقد وحدّهم الرعب من ذلك الثقب.

واصلت الأرض تحت الثقب انهيارها، وبمرور كل ثانية كان حجم الثقب يتسع أكثر فأكثر. كانت المياه خارج ضفة القناة عميقة بحيث يستحيل تبين الثقب الصغير الذي تتسرب منه ومن كانت له خبرة في ري الحقول كان يدرك أن مدخل الصدع يكون أقل اتساعاً بكثير من مخرجه أو على الأقل لا يكون أكبر منه.

تقدم بعض القرويين في الوحول وراحوا، بواسطة رفوشهم وقضبانهم، يحاولون تبيّن مكان الصدع، بيد أنهم لم يجدوا أثراً له، وبدت الضفة وكأنها على أهبة الانهيار أمام أعيننا.

نظرت إلى الأرض الممتدة إلى الجهة الشرقية ورأيت أنابيب مداخن المواقد تعود إلى الحياة في أربع أو خمس قرى صغيرة. وتصاعد دخان الحطب الكثيف لينتشر في الأجواء الصافية.

«سوف أغوص إلى الأعماق». قررت قائلاً. «جدوا لي حبلاً لأربطه حول خصري».

لم يكن أي من القرويين يجيد السباحة، بل إن هلعهم كاد يشل أصابعهم عن العمل.

جمعوا الحبال التي على سلال القصب وربطوها إلى بعضها البعض وعقدوها حول خصري قبل أن أغطس في مياه الفيضان الموحلة التي بلغ عمقها أكثر مما يوازي طول ثلاثة رجال.

كنت مبللاً بالعرق ولم أشعر ببرودة المياه.

شرعت أتحسس بيدي الضفة محاولاً أن أجد الثقب. كنت غصت عدة أمتارٍ حين شعرت برجليّ تتأرجحان بفعل قوة

امتصاص هائلة لم تلبث أن امتصت إحدى رجليّ إلى داخل الثقب. صارعت ضد التيار ونجحت في العودة إلى السطح لأظهر بين الأغصان وما اجتمع من نفايات وحطام.

«ليس في الأمر ما يثير القلق» صرخت قائلاً: «لم يتعد اتساع الثقب بعد حجم حوض الغسيل. سارعوا إلى ملء كيس الخيش وارموه لي، وارموا لي أيضاً تلك القصبة».

سرعان ما طاف على سطح المياه كيس خيش مليء بالتراب ومعه رزمة من القصب. ضغطت على الكيس بواسطة القصبة وغطست مجدداً إلى الأعماق المظلمة. وقبل أن يتسنى لي أن أدفع به إلى داخل الثقب انتزعته من بين يديّ قوة جذب هائلة ودخل إلى الثقب بفعل قوة المياه.

حين عدت إلى السطح، تعالى صراخ المحتشدين على ضفاف القناة يهللون لنجاحي: «لقد سدّ الثقب. لقد سدّ الثقب!»

«أسرعوا، علينا أن نزيد كمية التراب. أرموا الأكياس إلى هذه الناحية».

«من هو هذا الرجل؟»

«إنه واحد من رعاة الخيل في المزرعة الحكومية. كنت أشاهده باستمرار في السهول الممتدة».

«كان يتولى رعي الخراف من قبل، أليس كذلك؟

«يتوجب عليهم أن يوجهوا له رسالة ثناء وشكر». سحبني أحدهم إلى الضفة بينما كنت أزحف لأخرج من الوحل رافعاً نظري، شاهدت وجه كاو كزوي.

3

كنت آخر العائدين إلى منازلهم.

أحضرت عائلات القرويين طعاماً وشراباً إلى الرجال في مكان «الطوارىء» وأصرّ الجميع على بقائي لمشاركتهم تناول الطعام. إن المزرعة الحكومية لم تكن يوماً بمثل هذا السخاء: كان طباخونا يقومون بإعداد ثلاث وجبات يومية يقدمونها في وقت محدد، وإذا ما اضطر أحدنا للمجازفة بحياته في إحدى حالات الطوارىء فإن أحداً لم يكن ليكترث له ويعوض عليه بوجبة أخرى.

«على الأقل، اشرب شيئاً إذا كنت لا ترغب في الأكل قال لي أحدهم وأضاف: «هذا يساعدك على محاربة البرد. أعرف بالطبع أن حياتكم هناك في المزرعة الحكومية أفضل بكثير من الحياة التي نعيشها نحن. فأنتم على الأقل تتقاضون راتباً شهرياً بصورة منتظمة، على عكسنا نحن الذين لا نتقاضى إلا بنسات قليلة مقابل يوم طويل من العمل المرهق...»

«هذا صحيح؛ لو رفضت منادمتنا فلسوف نحسب أنك مقتنع بكونك أعلى منا شأناً». قاطعه رجل كان جالساً إلى جانبه.

«ها هم العمال والمزارعون، يتحدثون في اجتماع واحد». قال آخر وكأنما عاجزاً عن إيجاد كلمات أخرى يتفوه بها.

«أنتم العمال بمثابة أشقائنا الكبار في السن...»

توجب عليَّ أن أقول هذا، وأن أمضي بصحبتهم بعض الوقت أتناول شيئاً من طعامهم وأشرب من كحولهم.

عند اقتراب الغسق، انطلقت عائداً إلى منزلي. كانت أشعة الشمس الغاربة تضيء الطريق أمامي وقد اندفعت جماعات الحشرات تطن في الهواء وكأن المطر لم يوهن من عزيمتها ولا أنقص أعدادها.

أحاط بي نقيق الضفادع من كل حدب وصوب وبدا جلياً أن نهار الغد سوف يكون مشرقاً.

باقترابي من القرية، لاحظت أن التيار الكهربائي قد عاد إليها وبدت كل عائلة وكأنما تتوق للتعويض عن ظلام الأمس والاحتفال بالنجاة من الكارثة. أثقل على معدتي طعام القرويين البارد وكحولهم الذي لم يصنعوه من الحبوب بل على الأرجح من الأعشاب أو حتى من اليقطين. كان شراباً مراً وقاسياً ولم «يحارب البرد» وحسب إنما أصاب جسدي بارتعاشة قوية هزت كل مفاصلي. لم يساعدني كذلك على التفكير بشكل أفضل أثناء سيري. لم أكن أكثر من معاق، من مجرد حصان خصي ـ كل ما فعلته كان هباء، بلا أي معنى. ومع ذلك، بقيت في أعماق روحي شذرات من الغرور.

إن المرء يعزي نفسه أحياناً «بالبطولة»، بغض النظر عما إذا كان قد توسلها لإنقاذ نفسه قبل إنقاذ الآخرين.

لعله عبر العزاء الذي كنت أحاول إقناع نفسي به، بقي لي

بعض الأمل؛ عله لا تزال أمامي فرصة لإنقاذ نفسي.

دفعت الباب بعنف وما إن دخلت منه حتى سقطت أيضاً مجمداً من الصقيع.

كانت تجلس أمام المدفأة، تحضر عجين العصائبية. في الضوء بدت مثل ميسم تمّ تسخينه إلى درجة التوهج.

ألقت ما كان بين يديها وأسرعت نحوي، وشعرت بقوة جسدها حين جرتني إلى الغرفة الداخلية. مددتني على السرير وراحت تنزع عني ثيابي بحركات رشيقة، ودستني بعدها تحت الجرارين.

«هل برهنت عما تجيد فعله؟... ولكن قل لي من هم هؤلاء الذين كنت تتباهى أمامهم وتتفاخر بقوتك؟» راحت تؤنبني من غير أن تتوقف عما تفعله.

«جميع أولئك ذوو «الخلفيات المتفوقة»(*) بأفكارهم المتغطرسة، لماذا لم ينزلوا هم إلى قعر المياه؟ لقد سمعت بما حصل هناك ممن عادوا قبلك ولم أنفك اؤنبك في سريّ. أيها الغبي. لا يقوم بما قمت به أنت إلا غبي مثلك. كان يجدر بك أن تقف على الضفة مكتوف اليدين وتتفرج.

فليأت أولئك الذين لا ينفكون عن الصراخ «ثورة» ويظهروا براعتهم».

ركضت إلى الغرفة الخارجية وعادت حاملة صحناً من شورباء الزنجبيل: «تناولها بينما لا تزال ساخنة. لقد حضرتها لك منذ ردح

(*) رجل ذو خلفية متفوقة يعني أنه ينتمي إلى طبقة المزارعين الفقراء. ورجل ذو خلفية سيئة يعني أنه ثري ومثقف.

من الزمن. كنت بانتظار عودتك. حسبتك قد غرقت بعد أن رحل الآخرون».

بينما أخذت تثرثر من دون توقف، لحظت قلقاً صادقاً في نبرة صوتها. يتعذر علينا فهم النساء. أكانت تبدي إزائي نوعاً من الشفقة أم تعاطفاً أم احتراماً؟

أكان ذلك حباً أو مجرد إحساس بالواجب إزاء شريكها في الغرفة؟

شعرت بشيء من الدفء في معدتي بعد أن تناولت صحن الشوربا الساخن والحار. وأخذ ذلك الصقيع المتجمد في داخلي يذوب تدريجياً.

بيد أن قشعريرة كانت تلازمني كما لو كنت لا أزال غارقاً في فيضانات المياه.

ركعت بالقرب من السرير وراحت تدلك ذراعي وصدري كما كانت تفعل منذ لحظات بعجينة العصائبية.

«لماذا فعلت ذلك. هل كنت تنوي إغراق نفسك؟ لو غرقت، لكانوا أقاموا لك احتفالاً تأبينياً مهيباً ولربما أيضاً جعلوك بعد وفاتك عضواً في الحزب. ولكن أن تخاطر بحياتك لكي تصير أهلاً للتقدير والإعجاب فهذا منتهى السخافة.

لن يذكرك أحد بالخير لا بل أن الناس سوف يقولون إنك لم تنزل إلى تحت المياه إلا لكي تعبث بالثقب وتزيد من اتساعه. ألم تتعلم من تجاربك السابقة؟ إنك كالخنزير، أو تعرف ذلك، تتذكر الأكل وليس الضرب».

شرع الدفء ينتشر في ذراعي وصدري وشعرت بالاسترخاء.

وبينما راح اللون يعود إلى بشرتي تدريجياً، شعرت بقشعريرة لذيذة تجتاحني. كان وجهها يتألق أمامي كمثل طائرة ورقية تحلق في السماء بألوانها الرائعة...

وقلت لنفسي إنه لأمر رائع أن تكون في البيت امرأة، بالرغم من كل شيء. ألم تقل هي الكلام عينه عن روعة وجود رجل في البيت؟ لربما قد يكون هذا ما عنته حين قالت يوماً «إن زواجنا ما هو إلا عبارة عن شخصين أعزيين قررا العيش معاً بغية تأسيس ما يشبه التعاونية». لا بدّ أني ابتسمت حين استرجعت قولها هذا وأنا مغمض العينين.

«ما الذي يضحكك؟ أو تعتقد أني مخطئة؟»

ربّتت على خدي وقالت: «آه، تحسس هذا! لا يزال وجهك بارداً. اقترب. ضعه بين ثديي. أمسكت بجانبي قميصها وفتحته بعنف حتى تقطعت أزراره وطار كل منها إلى جهة. وما سمعته لم يكن صوت تقطع الأزرار وحسب، إذ أن ما فتحته لم يكن قميصها وحده إنما كل جسدها. بان أمام عيني ثدياها الأبيضان كمثل زهرتي لوتس وفي وسط كل منهما مدقة حمراء اللون كمثل تلك التي في قلب زهرة الفاونيا.

بدا لي الثديان، بوسطهما الأحمر، أكبر مما أذكره وأكثر نضارة وإثارة.

راودني شعور لم أعرف مثيلاً له طوال حياتي. أكان هذا حباً؟ مددت ذراعي لأضمها إلي...

«لقد أصبحت على مايرام» طاف صوتها وكأنما من أعماق المياه.

«أجل، لقد شفيت. وكأني أصبحت إنساناً آخر...»

ورحت أضحك. انتابتني نوبة من الضحك المفعم بالحزن والفرح الوحشي في آن. أخذت قهقهتي تعلو أكثر فأكثر. وكان جسدي يهتز اهتزازاً عنيفاً وشرعت في البكاء.

«هل ما زلت قادراً...؟ مجدداً، تناهى إلى مسامعي الصوت القادم من الأعماق.

«أنا قادر...» قلت بنبرة متوحشة بدائية.

الجزء الخامس

١

ولّى حرّ الصيف لكن الصقيع لم يكن ألقى بجموده بعد على الأرض الممتدة. كانت السهول المغمورة بالطفالية بمثل نضارة وجمال ثديي كزيانغجيو. المياه في المستنقعات كانت ساكنة وصافية وكأنها صنعت من المرو. كان يطيب لي أن أطلق الخيل ليعدو فيها فأروح أتفرج على سطح المياه وهو يتشظى وتطير منه ملايين الشظايا الفضية البراقة.

أحياناً، كنت أطلق العنان لحصاني وأتركه يعدو على هواه في السهول الممتدة رغم إدراكي المسبق بصعوبة كبح جماحه لاحقاً.

في أوقات كهذه، كانت تتراءى لي جنة ميلتون الضائعة فأسمع كلماته تردد:

ملايين السيوف المتوهجة، تدلت من خصور الملائكة الجبابرة؛ بعنف انقضّوا إلى الأعلى، بأسلحتهم الضارية وصليل دروعهم أعلنوا الحرب، واندفعوا للتحدي نحو قبة الجنة».

كانت السماء شفافة. كانت الغيوم شفافة. كانت أشعة الشمس مشرقة ودافئة: وفيها كنت أنا أيضاً شفافاً.

«أيها الراعي العزيز، لقد شعرت بشيء ما قد تبدّل فيك» قال لي الفرس الأرقط العجوز. «إن قبضتك على العنان أضحت أقوى من ذي قبل وكذلك ردفيك. إن عصارة غريزة بدائية قد تدفقت في دمائك. أشعر بأنك على وشك أن تتحول إلى حيوان. لقد تطورت».

«أجل»، قلت ولهذا السبب أرغب في الرحيل. أتوق إلى الحركة. أتوق توقاً موجعاً لأن أرمي عني كل ما يقيدني. إن فويرباك تنسك لمدة زمنية طويلة ووضع حداً لإمكانية تطوره.

لا أريد لنفسي هذا المصير. أريد أن أرى العالم الواسع».

«أو تعني أن هذا الاتساع لا يكفيك؟»

قال الفرس هذا واستجمع قواه قبل أن يقفز فوق أخدود صغير. «انظر إلى هذه السماء، إلى هذه الحقول، إلى هذه السهول...»

«قد تعجز عن فهمي ولكن أريد أن أذهب إلى حيث الناس ـ إلى حيث أعداد كبيرة منهم. أريد أن أسمع أصواتاً بشرية وأتحادث مع البشر عن كل ما يجول في رأسي».

«وماذا عن زوجتك؟» رفع الفرس الأرقط رأسه. «كنت أفكر في الطلاق. فأنا أولاً، لا يمكنني أن أورطها في كل ما أنوي فعله. وثانياً أحسب أن أشباح الماضي سوف تظلّل علاقتنا إلى ما لا نهاية.

لا تقل شيئاً. دعنا نتنزه قليلاً. أريد أن أنصت إلى صوت الرياح. لو أغمضت عيني، لسوف أتخيلك تطير في الهواء ـ ها أنت تصير بيغاسوس!»

منذ أن زال عني طيف «المعاق» و«نصف الرجل»، أصبحت

تلازمني نار تشتعل في صدري. كل سلوكي السابق، بما فيه تسامحي وليني معها، لم يكن نتيجة تربيتي وثقافتي إنما كان جبن حصان خصي.

أدركت الآن أن دفء الأسرة الذي كانت تمدني به لم يكن إلا ليخنقني ويبتلعني. والآن كل ما أريده هو أن أسحقه وأفر هارباً. لقد حصلت على ما كنت أشتهيه والآن أرفضه رفضاً قاطعاً. أشعر بعطش إلى عالم أكبر. لطالما شعرت بنوع من الإثارة تستحوذ علي وتملأني غيظاً وامتعاضاً وأيضاً رغبات أعجز عن تحديدها.

وكل ذلك سرعان ما كان يذوب، في كل مرة كانت تشبع فيها رغباتي الجنسية.

بيد أني، وفي كل مرة، كنت أشعر برغبة ما تنمو في داخلي، من غير أن أتمكن من تحديدها. كانت تتلوى تحت جسدي وتداعبني بأظافرها.

هل يا ترى قامت بالشيء ذاته مع الرجال الآخرين؟ هل أن هؤلاء تمكنوا من إشباع رغباتهم وهم فوقها؟ حين كانت كل هذه الأمور تخطر ببالي، كنت أشعر فجأة بإثارة أكبر يتحول فيها سلوك الحب إلى رغبة عارمة بالثأر والانتقام.

«في حال كنت تحسب أنك مغبون، يمكنك أن تمارس الجنس مع أخريات من وقت لآخر، أنت أيضاً...» قالت ذات مساء بلهجة مترددة وخجل واضح.

«أنا لست مثلك»، أجبتها «إن أي رجل قد يناسبك أنت أما أنا فلا تناسبني أي امرأة».

«إذاً قل لي ما يتوجب علي فعله». راحت والخجل يرتسم على محياها تحاول أن تجد لها مخبأ بين أحضاني.

«لا شيء»، أجبتها ببرودة «أنا وأنت سوف ننفصل عاجلاً أم آجلاً».

حبي لها كان مزيجاً من العواطف الملونة بالنجاسة والقذارة. كان الانجذاب بيننا ممزوجاً بالنفور. كنت أرغب في طمأنتها وتعذيبها، في آن، أن أحبها وأكرهها في آن».

كانت جميع التناقضات متلاصقة إلى حد يستحيل فصلها أو حتى فهمها. حبي لها كان أشبه بأفعى برأسين تقرض قلبي شيئاً فشيئاً.

«ابتعدي عني» كنت أحياناً أدفعها خارج الغطاء وألف به جسدي لأعود إلى وحدتي في هذه اللحظة. «بوسعي أن أشتم رائحة كل الآخرين فيك».

كانت تصدر أنيناً من أعماق قلبها. عتمة الغرفة كانت أشبه بالقبر، والصقيع في الخارج كان صقيع الجحيم. كنا معاً وكأنما نستلقي في النسيان، على حدود عالم البشرية، بلا ماضٍ ولا مستقبل، بلا أفكار. كنا كائنين حيين قد توفيا، أو ميتين لا يزالان على قيد الحياة. ها نحن نستلقي، على غفلة منا، في المشاعر التي تلفنا.

وهذه المشاعر هي نتيجة الشعور الآني، المتأجج في حواسنا، والرسائل التي تبعتها هذه المشاعر قادرة على أن تتحول وتتبدل ملايين المرات في الدقيقة الواحدة.

«لا تبكي. إن لبكائك القدرة على دفع المرء إلى الجنون. عودي إلى الفراش واخلدي للنوم».

«ما قلته لتوك، هل كان نتيجة غضبك؟» سألتني بحذر.

«إن طبيعتنا البشرية تثير غضباً من وقت لآخر».

كانت الأعصاب ترتعش، كما يومض بيت العنكبوت في الهواء. استجمعت شجاعتها وقالت لي بلطف «ألم نتفق على عدم إثارة الكلام علي الماضي؟»

«نحن لا نثير الكلام على الماضي! لقد اشتد غضبي وانفجر في كلمات. ماذا عن فترة ما بعد زواجنا؟

لكم أنا نادم لأني لم أرفع ضدكما شكوى و...» لقد انهار بيت العنكبوت.

«لا تكن هكذا. أرجوك لا تكن هكذا».

نزلت مرتعبة من السرير وركعت على الأرض إلى جانبه.

«يجدر بي أن أموت. أنا شريرة. كانت تلك هي المرة الوحيدة. صدقني. «أقول لك الحقيقة ويجب أن تكون متساهلاً معي. ما عساني أقول لك بعد؟»

«ها! هذا صحيح ـ باستثناء كلمات المجرمين والمستنطقين ما عساك تقولين أكثر؟»

ما إن تفوهت بذلك حتى عاودتني كل الذكريات وراح الماضي يعرض صوره أمامي الواحدة بعد الأخرى كمثل فيلم يروي كل ما حصل.

تدلى بيت العنكبوت وراح يترنح في الهواء. أصابني الكرب في أعماق روحي. مسدت الوسادة إلى جانبي ودعوتها لتعود...

«تعالي ونامي». قلت.

«لقد استشطت غيظاً حين تخيلتك معه... أي نوع من الرجال هو؟ إنه لا يشبهنا».

«يجدر بي أن أموت» عادت إلى السرير «ولكن يجب أن تعرف بأني مهما فعلت مع كل هؤلاء الرجال لم أشعر إلا معك... إن كل مشاعري مختلفة معك».

لطالما كانت مشاعرك سريعة التقلب».

«هذا صحيح». شعرت بتوقها لأن تخبرني بكل مكنونات قلبها «استمع لما سوف أقوله لك...»

«لا أريد أن أسمع شيئاً. لا أريد أن أعرف عن أي من كل هذه الأمور». أدرت ظهري لها. «سمعت الناس يرددون مراراً: لا تتزوج ابداً من امرأة سبق أن تزوجت. لسوف لن تكف عن مقارنتك بمن سبقوك إليها».

«هذا لأني أدرك تماماً ما هي أسس المقارنة تلك...»

راحت ترسم بأصابعها الصغيرة دوائر على ظهري.

«يجب أن تعرف بأنك أنت رجل حياتي».

«ليس بالضرورة. سوف تستمرين في مقارنتي مع الرجل التالي في صف الانتظار».

«حتى قبل تسع سنوات من اليوم، شعرت بأنك مختلف عن الآخرين، هناك بين القصب، في مخيم العمل». كان نفسها الدافىء يلفح ظهري العاري.

«من حسن حظي أني مختلف عن الآخرين وإلا لكانت أضيفت على عقوبتي ثلاث سنوات جديدة». أجبتها بشيء من الغضب «يبدو أنك نسيت ما قلته لي».

«كنت أكذب حين قلت ذلك...»

«وكيف لي أن أعرف متى تقولين الحقيقة؟ أود أن أسألك أياً من

أقوالك هي أكاذيب. أنسي الأمر ولنتفاد الشجار. اخلدي إلى النوم».

شرعت تشهق بالبكاء من وراء ظهري وعادت الشفقة إلى قلبي. إن دموع المرأة كمثل قطرات المياه المتساقطة إذ أن إصرارها الرقيق قادر على النفاذ إلى أكثر الصخور قساوة.

«تعالي» قلت لها واستدارت أخيراً لأنظر إليها.

* * *

أي مؤامرات كانت تخبئها العتمة في تلك اللحظات؟ أي حيل كانت تُدبر، وما هي المخططات الممكنة لإحباطها؟ كم من الملفات وكم من الناس يدقق في أمرهم تحت ضوء القناديل الكهربائية البيضاء؟ كم من السجناء يقبعون وراء القضبان الحديدية بانتظار أن يتلقوا عقوبتهم؟ في كل أنحاء الصين، كانت الملصقات بأحرفها الضخمة تنتشر أكثر فأكثر، من ذا الذي سيبيض شعره فجأة عند رؤيتها؟

* * *

قَدِمَت الأمطار.

كانت الغيوم الحاملة مياهها تتقدم بسرعة غريبة فوق الأرض الممتدة وما من شيء يسد طريقها. الخريف فصل الأمطار وحين تتبدل حال السماء فإنه يتبدل بشكل مفاجىء.

لم تكن الغيوم تنتظر لكي تحجب الشمس بشكل كلي، فتروح تطلق قطرات ضخمة من المطر كما زخات الرصاص على الأرض. كانت البقع تظهر على سطح الأرض الرملي وبلحظة يتحول الغبار والمياه إلى ضباب كثيف، يروح ينقشع تدريجياً عن مشهد رائع

الجمال في السهول الممتدة: كانت أشعة الشمس تتسلل من بين الغيوم الداكنة فيبدو وكأنما كل قطرة من المطر كانت تحمل معها إلى الأرض ألواناً رائعة وتروح كل عشبة ترتعش بلونها الذهبي الرائع.

كان المطر يستثير الخيل.

فتبدأ الأحصنة تتدافع في صخب وفوضى وقد لدغتها الجلدات الباردة على ظهرها الذي دفأته حرارة الشمس، وكنت أنا ودامبو نسارع إلى تطويقها من الجانبين للحؤول دون تفرقها ونحاول أن ندفعها إلى تحت الأشجار. ومع ذلك كان الذعر يأخذ منها مأخذاً. كانت الحوافز الخلفية تنثر الوحول في أعين الأحصنة التي وراءها فتروح هذه بدورها تتعثر على غير هدى بالتي أمامها.

وفجأة في وسط هذا الصخب المجنون، تفلّت أحد المهار من القطيع لينطلق على غير هدى في جميع الاتجاهات. كان مهراً عنيداً اشتد جموحه بسبب قطعة خشبية علقت إلى الحبل المربوط حول عنقه. كانت قائمتاه الأماميتان تضربان قطعة الخشب أثناء عدوه المرتعب فيصدر عن تلاقي العظام بالخشب صوت أليم، حاد يماثله صهيله أثناء العدو. أطلقت عنان الفرس الأرقط محاولاً اللحاق بالمهر والإمساك به ورحت أصرخ له وأناديه بأعلى صوتي، بيد أنه لم يكن ليصغي إلى أي أوامر ويتابع عدوه العنيد باتجاه الزريبة.

ستكون كارثة حقيقية لو توجه إلى حيث تتكدس الحبوب غير المدروسة، إذ كان بمقدوره أن ينثرها في الهواء ويسحقها سحقاً بحوافره.

«هذا لأنه غير خصي» ذكّرني الفرس الأرقط.

«لو تم خصيه، لكان مطيعاً إلى أقصى حدود».

«لا تضيع الوقت بالكلام» قلت له وأنا أضربه بالسوط.

«أو نسيت نقاشنا الفلسفي؟» سألني بامتعاض. «لا شك أنك تغيرت كثيراً».

كان المهر لا يزال يعدو ويقفز بلا أي رادع.

بالفعل لم يكن خصياً، وكان يانعاً وهذان السببان كافيان لجعله يعدو بسرعة أكبر بكثير من الفرس العجوز.

ها هو يقترب من أشجار الحور والزيتون البري القريبة من المكان المعد لدرس الحبوب.

«بسرعة» قلت للفرس الأرقط.

قبل وصوله بلحظات إلى حيث الأشجار، بانَ ظِلٌّ أبيض ورفع يديه ليسد له طريقه:

«لا تحاول إيقافه بهذه الطريقة» صرخت قائلاً: «حاول أن تمسك بالقطعة الخشبية».

اندفع المهر باتجاه الظل الأبيض القصير القامة غير آبه بما يقف في طريقه. لم يتحرك الظل من مكانه. وبقي صامداً في مواجهة المهر المندفع نحو، وقام بحركة مفاجئة وتمكن من الإمساك بالقطعة الخشبية. تباطأ المهر لوهلة بيد أنه هزّ عنقه وانطلق يعدو من جديد ولم يلبث أن غيّر اتجاهه نحو المرعى الممتد.

بقي الظل متشبثاً بالحبل حول عنق المهر بعد أن سقط أرضاً وجره المهر مسافة بعيدة. تمزقت ملاءة البلاستيك البيضاء التي كان الظل يستخدمها كمعطف واقٍ من المطر وعندها فقط لمحت وجه كزيانغجيو.

«أسرع» ضغطت برجلي حول ردفي الفرس الأرقط وانطلقنا في اتجاه المهر، وباقترابنا منه أمسكت بالقطعة الخشبية والحبل ونجحت في إيقافه أخيراً».

«ماذا تفعلين هنا؟» سألتها وأنا أقفز من على صهوة الحصان الأرقط ورحت أربت على جانب المهر لأهدىء من روعه.

انتصبت أمامي بجسدها المغطى بالوحل. راحت تصلح ما أمكن من ملاءة البلاستيك الممزقة وقالت لاهثة: «لقد أطلقوا صفارة الإنذار داعين الجميع إلى المكان المعد لدرس القمح لتغطية الحبوب وحمايتها.

وحين أدركت أنها سوف تمطر جمعت بعض الملابس الواقية من المطر وهرعت إليك. لقد رآني ابن الزانية كاو كزوي بيد أنه لم يتوجه إلي بكلمة واحدة. إن الجميع منكبون الآن على العمل في الساحة...»

نظرت إلي بكل فخر واعتزاز وسألتني: «ألم أبل حسناً!؟»

«كنت رائعة. أنت بطلة».

ربطت حبل المهر إلى رسن الفرس الأرقط.

استمر هطول المطر غزيراً وكانت القطرات تتساقط بشكل منتظم وسريع.

تبلت كل ثيابنا. «اصعدي» قلت لها وأنا أتناول حزمة الثياب التي كانت لا تزال تتشبث بها وأساعدها باليد الأخرى على امتطاء الفرس الأرقط.

«إلى أين؟ ألا تريد العودة إلى البيت؟»

طوقت خصري من الوراء بذراعيها.

«قد يتوقف المطر قريباً. لا يزال دامبو مع الأحصنة في الغابات والجميع منكبون على العمل في المكان المعد لدرس الحبوب. من غير الملائم أن نعود إلى المنزل الآن».

أدرت رأس الفرس الأرقط قائلاً: «سوف نلجأ إلى الغابة لبعض الوقت بانتظار توقف هطول المطر».

لم تكن الزخات المفاجئة بللت وسط حزام الأشجار.

تسلل النور إلى داخل الغابة وتوزعت الظلال والأضواء بين الأشجار الملتفة والهواء المتخم بشذا الأوراق المتساقطة. كانت أغصان شجرات الحور والزيتون البري متشابكة وملتفة وشكلت قبة الغابة الكثيفة؛ تحتها احتفظت الأعشاب بنضارتها وطراوتها كما لو كانت متيقنة من أنها في مخبئها ذلك لن يطالها الريح أو المطر.

تجمعت الغربان على أطراف الأغصان وراحت تتنادى بهياج وارتقاب، أثناء تنقلها من غصن إلى آخر، فتزداد الغابة اخضراراً ونضارة.

«سارعي إلى تبديل ثيابك». رميت لها حزمة الثياب التي كانت جلبتها من أجلي، وربطت الحصانين إلى شجرة حور قريبة.

كانت الثياب ملفوفة في كيس بلاستيكي يستخدم عادة لتوضيب السماد الكيميائي.

«وماذا عنك أنت؟» بدت وهي منتصبة أمامي بشعرها الأشعث ويديها حول خصرها، وكأنها امرأة مجنونة تنظر إلي بتحد وجرأة.

«لست مكسواً بالوحل مثلك أنت. انظري أوترين، أن ثيابي لا تزال جافة من الداخل. أسرعي قبل أن تصابي بزكام».

«هل أحد في الجوار؟ أين دامبو؟»

«ما من أحد سواي أنا والأشباح» قلت «إن دامبو في جهة بعيدة عن الغابة».

«أخرجت قميصي من الكيس البلاستيكي وابتسمت لي قبل أن تدير ظهرها. ومن غير أن تحاول إخفاء جسدها، راحت تنزع عنه كل قطعة ثياب كانت تكسوه، ووقفت هناك في عريها الكامل.

جلست على رقعة مكسوة بالأوراق وأشعلت سيجارة لأتمتع بالمشهد الذي أمامي.

«إنك لا تزالين رائعة الجمال» قلت لها.

راحت تتباطأ في ارتداء قميصها ثم اقتربت مني ووقفت أمامي. فتحت ذراعيها وركعت لتحوطني بهما بكل حنان ولطف. «وأنت مازلت تفكر في هجري».

كانت تدرك جيداً مدى جاذبيتها.

لم ترزق أولاداً وأمضت سنوات طوالاً من العمل الشاق في المخيمات، ورغم ذلك احتفظ وجهها بنضارة وجمال صبية في ربيع عمرها.

كان القميص الفضفاض يزيد من هزالة جسدها. رفعت شعرها المبلل إلى الوراء وربطته بمنديل صغير فبدت وكأنها خارجة لتوها من الحمام. كان وجهها المشرق يتألق صحة وجمالاً وارتسمت فوق شفتيها ابتسامة غوى. لم أجبها ولكني رميت السيجارة وسارعت إلى احتضانها. حسبت لوهلة أن ما احتضنه هو رقعة من السحاب أو دوامة من الضباب أو بقعة من البخار الدافىء إنما عديم الشكل. ولّد القميص الفضفاض إحساساً لذيذاً بالذوبان، فاستسلمت لي بكليتها وتمددت بحذر على الأعشاب. دفنت رأسي بين عنقها وكتفيها. شعرت ببطنها الصغير دافئاً وصلباً.

شعرها، بشرتها، الأوراق، شذا الأرض، امتزجت كل هذه التفاصيل واختلطت في عطر مسكر.

من مخبئها راحت حشرة تطن. سقطت بعض الأوراق الصفراء من الأشجار. طقطق الحصانان بحوافرهما وتنفسا الهواء بصوت مسموع.

كل الأصوات البعيدة بدت وكأنها أمواج من الايقاعات راحت تعلو تدريجياً كمثل مقطوعة البوليرو لرافيل. ومع خلفية الايقاعات تلك، شرعت نغمتان تعزفان لحنهما عالياً حيناً وخفيضاً حيناً آخر...

سامحيني! آه، افهميني. هل بمقدورك أن تغفري لي؟ هل بوسعك أن تفهميني في يوم من الأيام؟ إن روحي تائهة وأسمع أصواتاً تناديني.

هذا المكان يخنقني ـ إن القرية تقيدني وتربكني.

تماماً كما يغوي عنقك الرجال.

لقد منحتني الحياة، وجعلت الربيع يزهر فيّ من جديد. ولكن تلك الحياة هي التي تدفعني الآن إلى هجرك. لا يمكن لهذا الربيع أن يكون ملكاً لك...

بعد فترة، تمددنا على العشب منهكين صامتين،

«بماذا تفكر؟»

«لا شيء يذكر».

«ألا تفكر في شيء؟»

«هذا صحيح».

«هل فكرت يوماً في إنجاب الأولاد؟»

استدارت صوبي واتكأت على مرفقها.

فكرت بما قالته لي هي - ليفانغ وأجبتها:

«أجل».

«ما رأيك لو نتبنّى طفلاً؟»

«ولم التبنّي؟ الأفضل لنا أن ننجب واحداً؟»

«وأنت بهذا السن؟ إذا تبنينا طفلاً سوف نوفر على أنفسنا سنوات عديدة من العمل. إن بعض الناس في القرى هنالك معدومون وعاجزون عن تربية أطفالهم بأنفسهم. لن يكون علينا على أبعد تقدير سوى دفع مبلغ من المال لنحصل على واحد».

«ومن أين نأتي بالمال».

«إنه بحوزتي»! ضحكت بسعادة.

«أنسي الأمر» لم أشأ أن أصعّب عليها الأمور. «يجدر بنا أن ننسى مسألة الأولاد».

«لماذا؟» سألتني وهي تشدني من كتفي وتجبرني على النظر إليها.

«ما زلت تفكر في هجري. باعتقادك أنك بلا أولاد سوف تضمن حريتك أليس كذلك؟»

لذت في صمتي. راحت عيناها السوداوان تبحثان عن عيني بذعر ولكني كنت عاجزاً عن النظر إليها. شحب ضوء الغابة كما تنتزع من أوراق الشاي نكهتها شيئاً فشيئاً: سمعت الطيور تصفق بأجنحتها فوق رأسي وسمعت زقزقاتها بوضوح كما لو كان ينقلها المدى الفسيح.

«كزيانغجيو، نحن نعيش في أوقات حرجة». قلت «لا يمكنني

الشروع بتحمل مسؤولياتي كأب. سواء كان الطفل ابني أم لا. حتى أفضل العائلات تستيقظ في ليلة ليلاء لتجد أن أفرادها تشتتوا ـ الإخوة والأخوات في جهة والوالدان في جهة أخرى.

لقد شاهدت ذلك مراراً حتى في صفوف القادة والمسؤولين. لقد شاهدت الكثير» أمسكت يدها قائلاً: «إن الوقت ليس ملائماً للشروع ببناء عشنا الصغير». ابتعدت عني وتمددت على بطنها واضعة ذقنها بين يديها ورافعة رجليها المرتعشين إلى الأعلى.

«لماذا؟» سألتني «لماذا أنت مختلف عن كل الآخرين؟ قد تكون الأوضاع بالفعل سيئة ولكنها كذلك بالنسبة إلى الآخرين أيضاً. ألسنا نأكل ونلبس مثل كل الآخرين؟ لماذا لا نربي طفلاً مثلهم كذلك؟ حتى دامبو يربي طفلاً صغيراً».

«إن المسألة لا تتعلق بقدرتنا على تربية الأولاد أو عدمها. إنها مسألة تتعلق بي أنا. لست بمأمن عن المشاكل. من يعرف متى تنشأ حركة جديدة ويسارعون إلى توقيفي ورميي في السجن مجدداً؟»

«إذا أرسلوك إلى السجن، فسوف ننتظرك!»

«ها!» لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك. أو نسيت أنك أنت أيضاً قادمة من هناك؟ حسناً دعينا نتفادى الشجار. عندما يحين الوقت لننجب طفلاً، سوف أخبرك بذلك».

راحت الأغصان تتأرجح فوقنا وكنت من بين شقوقها ألحظ من وقت لآخر، السماء الرمادية القاتمة.

تدلت الثمار بلونها البرتقالي من أغصان شجر الزيتون البري ومجرد النظر إليها أشعرني بطعمها الحلو في فمي. تساقطت نقاط المياه على الملاءة البلاستيكية التي تغطينا فبدت وكأنها قطع من البلور راحت تتدحرج كما لو كانت حية.

كان جسدانا متلاصقين. إن حياتك تستند إلى حياتي وحياتي تتكيء إلى حياتك، إن شغفي وشغفك يتأججان اشتعالاً فنشعر وكأننا انتقلنا إلى عالم آخر: لوهلة، نسينا نفسينا ولم يبقَ سوى نحن، متحدين في حياة واحدة. هذا هو معنى الحب الحقيقي وسعادته وماديته.

ولكن ما إن تمضي تلك اللحظة حتى يبدأ نمو صدع صغير بيننا: ثمة أفكار غامضة، ثمة مراوغة ورغبة في الرحيل. أنت تريدين ابتلاعي؛ أنا أريد الهروب.

شرع العقل يصارع الجسد من جديد.

إن الحب عش يتطلب صبراً لنبنيه. ولكن قلبي يشبه ذلك الدوري ـ ها هو هنالك يتنقل من مكان إلى آخر. تتدافع الغيوم السوداء بعنف في السماء بينما نحن هنا على الأرض نتطارح الغرام.

هل نحن يا ترى مجرد شبحين هربا من الجحيم؟

«لقد عاد هاي ـ تز إلى البلدة» قالت.

«حقاً؟»

«لقد أحضر معه شيئاً طلبت منه أن يشتريه لك، ولكني لن أقول لك الآن ما هو». زحفت حتى بلغت صدري وراحت الحياة تعود إليها مجدداً.

«ما هو؟» سألت مع أني لم أكن أتشوق لمعرفة الجواب.

«إحزر. لطالما رغبت في اقتنائه!»

«لا يمكنني أن أحزر. حتى أني لا أذكر أني رغبت يوماً في اقتناء أي شيء».

حط عقعق على غصن فوقنا وراح ينادي، وهو يدير رأسه يمنة ويسرة يتفحصنا وكأنه عالم حيواني يقوم ببحث علمي حول الحيوانين المستلقيين تحته.

«يبدو أننا من ذوي الحظوة» قالت بدون حماسة ظاهرة.

صمتنا لبرهة. ثم سألتني: «ما الذي تكتبه كل مساء؟»

«لا شيء».

«أهي مذكراتك؟»

أجل هذا صحيح».

«وما الذي يستحق تذكّره في هذه الأيام التي يشبه كل منها الآخر. ومع ذلك أراك بكل يوم تكتب الصفحة تلو الأخرى».

أبعدتها عني وجلست. «اسمعي يا كزريانغجيو، إياك أن تخبري أحداً بأني أكتب أو حتى أن تلمحي لأحد بذلك. أفهمت؟»

جلست على العشب وانحنت قليلاً وبحركة مغناج رفعت شعرها إلى الوراء.

«فهمت، لن أبوح بكلمة لأي كان. ولكن أوليس من الأجدى لك أن تقلل من كتابة هذه الأمور المحبطة.

ما همك لو كانت هناك «حقوق للطبقة الرأسمالية»... أم لا. ما شأننا نحن بحقوق الطبقة الرأسمالية؟»

«وهل تقرأين ما أكتب؟»

«لا». قالت «حتى ولو قرأت ما تكتب، فإني لن أفقه شيئاً. ولكني لمحت سطراً ورد فيه شيء عن «حقوق الطبقة الرأسمالية التي تتخطى الاقطاعية...» أو شيئاً من هذا القبيل.

«لا تقرأي إذا كنت لا تفهمين ما تقرأينه». قلت لها هذا

وانتصبت واقفاً: «حسناً، فلنرتد ثيابنا ـ لقد توقف هطول المطر». خرجنا من بين الشجر نجر حصانينا وراءنا ـ خلّف المطر المفاجىء وراءه هواءً منعشاً وسماء صافية ـ إلى الغرب، لا تزال أشعة الضوء تشرق من بين قمم الجبال الخضراء الداكنة وبعض الغيوم الرمادية.

كان دامبو حكيماً وغبياً في آن، وكان ساق الحيوانات إلى حقل بعيد لترعى بعض العشب.

«اللعنة» امتطيت صهوة الفرس الأرقط «لو أكلت الحيوانات من هذه الأعشاب المبللة لانتفخت بطونها وتسببت لنا بمشاكل كثيرة. هيا بنا لنذهب».

«أريد أن أجلس أمامك» قالت مشاكسة.

«وماذا سيقول الناس عندها. اركبي ورائي».

«ومن يكترث لأقوال الناس؟ ثم إني أريدهم أن ينظروا...» رفعتها إلى مكانها المعتاد ورائي.

«عندما عاد هاي ـ تز، سارع إلى تقبيل هي ـ ليفانغ على فمها وعلى مرأى من الجميع». قالت.

«ماالذي يضحككم جيمعاً»؟ في شوارع بكين كل الأجانب يتصرفون بهذه الطريقة» وأردفت وهي تؤنبني: «أنت الوحيد الذي يخاف من كل شيء».

«إن الأجانب هم أجانب» قلت لها.

كنا نعبر بمحاذاة حقول القمح، ومن دون أن تغترض على ما قلته لتوي، أطلقت تنهيدة عميقة: «لقد قال هاي ـ تز إنه سيعود بعد اليوم الوطني، بيد أنه بقي عشرين يوماً إضافياً رغم انتهاء المدة المحددة لعطلته ولم يجرؤ أحد على تغريمه بقرش واحد أو حتى

توجيه كلمة واحدة له. لو قمنا نحن بشيء مماثل...»

«هذا صحيح». قلت «تذكري فقط ما نحن عليه».

فنحن لا نستطيع أن نتصرف مثل الأجانب ليس هذا وحسب وإنما لا نستطيع أن نتصرف مثل الصينيين كذلك. هذا هو قدرنا.

عليك أن تفهمي ذلك! رفست الفرس الأرقط وخبّ متقدماً بنا.

2

عندما وصلت إلى باب الزريبة، رأيت أن كاو كزوي كان في الداخل برفقة رجل غريب بدا أنه كادر حكومي، كانت تتدلى من كتفه سترة مبللة.

وقد اتكأ الرجلان إلى السياج منتظرين.

«لقد عدت ـ تبللت أليس كذلك؟» ابتسم لي كاوكزوي وهو يلقي علي التحية.

من دون أن أجيبه، سقت الخيل إلى الزريبة الموحلة وجعلنا، دامبو وأنا، نربط الحصان بعد الآخر إلى المعالف. تقدم مني كاو كزوي والرجل الآخر. «ها هي الأحصنة قد أصبحت كلها هنا. أربعة وعشرون رأساً» قال له كاو كزوي. شرع الرجل يتفحصها بدقة متناهية كما لو كان خبيراً، ثم هزّ رأسه وقال مدمدماً: «إنها في حالة ممتازة».

«ما الذي تفعله هنا؟» سألته «هل تشتري الأحصنة؟»

«أجل» رفع الرجل عينيه ليرمقني بنظرة سريعة.

«إنسَ الأمر» قلت له «أوتعتقد أن في مزرعتكم مواشي شبيهة

بهذه؟ كل الأحصنة التي في القرى بليدة وغبية. إنها تؤثر الاستلقاء على الوقوف، وتفضل أن تتغوط بدل أن تنطلق إلى العمل. وعمودها الفقري لا يقل قساوة عن دماغها. أو ترى هذا الحصان ههنا؟» رحت أربت على عنق الفرس الأرقط «إنه ليس معروضاً للبيع، حتى ولو دفعت لي مقابله مبلغاً ضخماً من المال».

«بلى إنه للبيع». قال كاو كزوي مقاطعاً «يمكنه الحصول على أي حصان يختاره. وإذا أعجبته جميعها، فإنها ملك له».

سألته والدهشة تملأني: «ألم تعد المزرعة بحاجة إلى الخيل؟»

«دعني أشرح لك: «لقد قال الرؤساء إن البلاد بكاملها سوف تتحول إلى المكننة عند حلول العام ١٩٨٠. ومن أدنى منهم مرتبة لا يقلون عنهم حماسة لا بل إنهم حرصوا على تقديم هذا الموعد ثلاثة أعوام.

وقبل أن يجف الحبر، شرع الجميع يبحثون عن أي وسيلة ممكنة للتخلص من مواشيهم.

يبدو لي أن هذه «المكننة» لن تتحقق قبل خمس سنوات على الأقل ـ وإذا ما عدنا واحتجنا إلى المواشي فسوف نعود ونشتريها من جديد. على أية حال، إن المال ملك للحكومة ومن ذا الذي يكترث له».

قصرّت هذه الكلمات المسافة بيننا فوافقت على ما قاله.

ما إن وصلت إلى البيت، حتى شرع الضيوف يتوافدون الواحد بعد الآخر: هاي ـ تز وزوجته والفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين: «اللعنة على كل شيء يا لاو زانغ، ما إن وصلت عائداً من رحلتي حتى طلبوا مني أن أكتب «انتقاداً» ـ وما من وسيلة للتملص من هذا الأمر. هل لك أن تكتبه بالنيابة عني؟»

«أنا أيضاً»! دلفت الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين وأضافت:

«ما الأمر بحق الجحيم؟ لقد طلبوا من دامبو حتى، أن ينتقد سونغ جيانغ. من هو سونغ جيانغ هذا على أية حال؟ وما الذي ارتكبه يا ترى حتى يستحق كل هذه الضجة؟»

«إن سونغ جيانغ هو نائب رئيس مجلس إدارة لجنة الحزب المركزية». أجابها هاي ـ تز وهو يربّت على كتفها: «إن الجريمة التي ارتكبها هي نفسها التي ارتكبها دامبو: «إنه يرفض الكلام».

«وهل هذا جريمة؟» كانت تحمل لفافة ورق وزّعها عليهم رئيس «فريق المواشي»: كانت الأوراق المخصصة للانتقادات ذات حجم موحّد ويتوجب تسليمها في وقت محدد تماماً مثل دفع ضريبة الحبوب العامة.

«هكذا إذاً!» قال هاي ـ تز بجدية فائقة «إن كثرة الكلام وعدمه يعتبران جريمة على حد سواء. لحسن الحظ، إن دامبو ليس إلا مجرد راعٍ بسيط. لو كان موظفاً رسمياً لتوجب علينا انتقاده هو الآخر».

بدا على الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين أنها تتردد بين تصديق ما سمعته وعدمه وراحت تدمدم قائلة: «إن هذا العالم وبكل بساطة، لن يدع أناسه يعيشون في سلام...»

كانت هي ليفانغ سرحت شعرها واعتنت بنظافتها على غير عادتها. بدت اليوم مشرقة صحة وحيوية وراحت تضحك قائلة: «هاي ـ تز كف عن ممازحة هذه المرأة العجوز الطيبة. أيتها الأخت، هبي أوراقك من أجل القضية ـ ورقة لكل منا». انتزعت الورقة من بين يدي الفيلسوفة ذات القدمين الضخمتين.

«هل بقي لدي ما يكفي من الأوراق؟» لم تكن ترغب في التخلي عن أوراقها.

«ماذا، هل تفكرين في كتابة أطروحة كمثل ياو وينويان؟»

سألها هاي - تز: «إن ورقة واحدة لكل منا لهي كافية لأن تخدعهم».

«دعوا ورقة لي أنا أيضاً». كانت كزيا نغجيو منشغلة بإعداد طعام العشاء حين قالت ذلك: «لقد طلبوا مني أن أكتب انتقاداً أنا أيضاً. نسيت أن أذكر هذا أمام لاوزانغ.

في النهاية، لا شك أن السيدة العجوز «ما» ولاو زانغ هما الأوفر حظاً، إذ إن كل الذين «اعتُمروا قبعات» لم يطلب منهم أن ينتقدوا سونغ جيانغ».

غسلت وجهي وتوجهت إلى الطاولة. «يتوجب انتقاد سونغ جيانغ لأنه قتل زوجته بوحشية حين اكتشف أنها تعاشر رجالاً آخرين».

قرصتني كزيانغجيو حين مرت بجانبي ونظرت هي - ليفانغ إلى هاي - تز نظرة جانبية.

بعد عودته من بكين، تحول هاي - تز من رجل ودود إلى رجل أكثر جرأة وصراحة. جلس إلى الطاولة بجانبي وبدأ يتكلم بصوت خفيض:

«إن كل الأزقة في بكين تعج بالإشاعات.

الجميع يتكلمون عن «انتقاد السيد زو»، «وانتقاد سونغ جيانغ»؛ الجميع يصوبون بنادقهم إليهما».

«آه»، رفعت عيني.

«إن هذه الثورة الثقافية العظيمة لم تنته بعد.

لسوف أتفاجأ إذا لم يمضوا بها إلى النهاية، إلى أن يحدثوا خراباً كاملاً».

تناولت ورقة بيضاء. وضعتها بحذر أمامي على الطاولة.

«فلنبدأ الكتابة» قلت بهدوء. «بما أنها لم تنته بعد، من الأفضل لنا أن ننفذ ما يقولونه ونسارع إلى الانتقاد».

«هذا صحيح». سحب هاي تز ورقة من جيبه.

«لقد جئتك بهذه لتستخدمها كمرجع يمكنك أن تستعين بما كتب هنا على الصفحة الأولى ولكن لا تنسخها حرفياً. بدّل تركيبة الجمل وما شابه...

أنت تجيد ذلك على أية حال. اللعنة، انظر إلى هذه العبارة الاستشهادية: «لقد استسلم سونغ جيانغ وصار مناصراً للحركة التعديلية». إني لأسألك أي نوع من الغباء هذا؟

إن سونغ جيانغ لم يكن ماركسياً حتى فكيف به تعديلياً؟ هذا ما نسميه الإشارة إلى الدجاجة وتأنيب الكلب».

أطلقت ضحكة قوية وقلت له «إنك حقاً نافذ البصيرة. سوف أدوّن ما قلته لتوك واؤكد لك أنها ستكون مقالة انتقادية رائعة».

«لا. إياك أن تفعل ذلك». وراح يمثّل علينا أنه مرتعب حتى الموت ثم انفجر ضاحكاً». إن الناس في بكين يرددون أن القادة يطبقّون سياسة غش الناس ونحن ههنا نطبّق أيضاً سياسة لخداع الناس. إن الرؤساء يخدعوننا ونحن نخدعهم. ما من أحد ينطق بالحقيقة».

تناولت القلم وهممت بالكتابة قائلاً: «إنَّ ما دمرته الثورة

الثقافية العظيمة، بادىء ذي بدء، ليس البلاد إنما نزاهتنا نحن الصينيين. وإن ميراثنا هذا سوف يكون السبب في إعاقتنا لردح طويل من الزمن، ردح طويل جداً».

رفع هاي ـ تز إحدى رجليه إلى كرسي صغير وأعلن وهو مأخوذ بنفسه: «من السهل أن نعيش بلا نزاهة أما العيش معها فهو أصعب بكثير». كان هذا صحيحاً.

كتبت بسرعة خمس ورقات لانتقاد سونغ جيانغ.

مفعماً بالبهجة، أخذ هاي ـ تز ورقته وورقة هي ـ ليفانغ وقال «حسناً. حسناً، اسمعوا هذا: بعزم وتصميم وبعد دراسة من قبل طبقتي المزارعين الفقراء الوسطى والدنيا!...» اللعنة إن هذا رائع حقاً يا لاو زانغ. هاك أيتها الأخت العزيزة هذه واحدة لك وأخرى لابنك».

غادر جميع الضيوف مبتهجين. حمَلت طعام العشاء إلى الطاولة وقالت لي بفخر: «أنت سريع في الكتابة! لكان لزمهم وقت طويل، سنوات ولربما قرون، لكتابة بضع كلمات كهذه!»

هززت رأسي وابتسمت لها بشيء من المرارة:

«قد تكون حياتنا صعبة بيد أن لها إيجابياتها، إذ أن كل شيء قد سويّ من أجلنا ولسنا مضطرين حتى لاستعمال أدمغتنا».

تبيّن أن ماطلبته من هاي ـ تز ليشتريه لي من بكين كان راديو ترانزيستور.

أصرّت على أن أحزر بنفسي وظلت على عنادها أكثر من نصف النهار، ولكنها في النهاية اضطرت للاستسلام. لم يكن ليخطر ببالي أنها اشترت لي راديو وحاولت من دون جدوى أن

أتخيل السبب الذي دفعها إلى ذلك. من يا ترى قادر على التكهن بما يدور في رأس امرأة. حين بدأت أسأم من لعبتها، سحبته من العلبة.

«انظر، ما هذا؟» ضحكت وهي تحمل علبة الكرتون.

«يقول هاي ـ تز إن ثمنه مئة دولار. أوتعتقد أنه يساوي هذا المبلغ؟ إياك أن تدعه يغشنا».

«بالطبع إنه يساوي هذا المبلغ ويستحق كل قرش ندفعه». ما فعلته هذا كان، ولأول مرة، قد فاق كل آمالي وتوقعاتي. سارعت إلى تمزيق الورقة:

«انظري، إن له ثلاث موجات وهوائي ومسماع أيضاً... هذا بمنتهى الروعة. كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟»

«لقد ذكرتها مرة أمامي» انحنت على كتفي وراحت تراقبني: «قد تنسى أنت ما تقوله ولكني أذكر كل كلمة تتفوه بها».

«حسناً، حسناً» قلت وأنا أدفعها جانباً. «اذهبي قرب النافذة».

لا أدري كيف وأين بدأت فكرة الخوف من أجهزة الراديو، بيد أن هذه الأخيرة كانت في الغالب مربوطة بالجواسيس، والعملاء ومعارضي الثورة. وقد تسللت إلى وعي كل فرد، فصار كل من يحمل راديو مثار شك وإنذار بالخطر. كانت العلب الصغيرة السوداء تحمل أعماقاً غير معروفة وتخفي عوالم كريهة مُفسدة.

إن عالم الثورة المشرق كان مسموحاً له أن يوجد فقط في ما تبثه مكبرات الصوت ثلاث مرات يومياً.

وكل ما كان المرء قادراً على سماعه، باستثناء مكبرات الصوت، كان يعتبر كذباً: «صراخ الأبالسة والأشباح». بيد أن

التكنولوجيا لم تكن لتتوقف عند حدود بلادنا التي يشددون الحراسة عليها. بل كانت تخترق على مهل قضبان الأيدولوجيا الفولاذية لتوحّد العالم في شبكتها، عبر موجات الكترونية غير مرئية، وتعيد جمع الأجزاء الداخلية التي انفصلت عن غيرها.

بحماسة وإثارة كبيرتين وضعت البطاريتين في مكانهما ومددت الهوائي وركزت المسماع في أذني. كنت طوال الوقت أشعر وكأني أرتكب جريمة ـ شخصياً، لم أكن أعتبر أن الاستماع إلى المذياع جريمة فإذا كان الواحد مقتنعاً بأنه يقبض على الحقيقة فلماذا عليه أن يقلق بشأن الأكاذيب التي يستمع إليها الناس ؟ ـ ورغم ذلك راحت يداي ترتعشان بينما كنت أنقّل الإبرة بين المحطات. كانت الموجات تعبر المحيط الهادىء، البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وفوق قمم الهملايا الشاهقة، حاملة إلى أذني سكون رياح تخبىء عاصفة هوجاء.

في تلك الليلة، لم أتوقف عن الاستماع إلى الراديو إلا بعد أن توقف بث جميع المحطات الناطقة باللغة الصينية. ولم تكن النتيجة سوى خيبة أمل مطلقة.

بدا لي أن الأجانب في الغرب لم يحرزوا أي تطور يذكر خلال السنوات الثلاثين الفائتة. في وفرة الأكل والشرب والملبس، لم يتسن لهم بلوغ النضج اللازم.

نحن تربيّنا على الشدة واختبرنا كل أنواع العذاب. ومقارنة مع الرجال العظام الذين ولدتهم هذه التجارب والمحن ـ بدا رجالهم الممكننون يانعين، ينقصهم النضج، فهم لا يملكون أي تصور لما يمكن أن تنجزه السياسة وإدراكهم لسلطتها وقوة فعلها لم يتعد مرحلة الحضانة.

كانوا يجهلون السياسة الصوفية التي تبشر بها حالياً الميتافيزيقيا الشرقية خاصتنا.

كانوا يجهلون الأساليب المعذِّبة التي لا تعبّر إلا عن نفسها ويجهلون أيضاً ماهية العقول المعذَّبة التي تولدها ممارسة هذه الأساليب.

في الواقع، كانوا عاجزين عن فهم ما يحصل عندنا، تماماً مثلما قيل للصينيين مرة إن رئيساً أميركياً طرد من منصبه لأنه كان يسترق السمع إلى الأحاديث.

إن تحليلهم للوضع في الصين لم يكن ناتجاً إلا عن التقارير المتوافرة لديهم؛ ولما كانت هذه التقارير يصدرها الحكم القائم، فإنها كانت تقارير ذات طبيعة خارجية، سطحية، هشة إلى أبعد الحدود الممكنة. حتى كاو كزوي وهاي ـ تز كانا يملكان معلومات أكثر مما كانت توفره هذه التقارير.

ولكن في تلك الليلة، بثت محطة بكين المركزية للإرسال خبراً يعتبر في منتهى الأهمية. كان عبارة عن مقالة من توقيع شي هينغ(*) بعنوان «توحدوا لانتقاد الهامش المائي؛ دراسة معمقة للنظرية». وفيها مقاربة «للشقاق والاستسلام والطريق إليه التي كانت معروفة في الماضي ولا تزال موجودة إلى اليوم، وقد تستمر في المستقبل».

وعبارة «في المستقبل» تلك لم تكن مجانية بل مقصودة ومتعمدة وتستهدف غاية محددة...

(*) شي هانغ كان الاسم المستعار لمجموعة من الأساتذة والكتّاب الذين وضعوا نصوص البلاغات السياسية وكل كتابات «عصابة الأربعة».

«اللعنة!» انتزعت المسماع ورميت الراديو على السرير وأنا أشعر بإرهاق شديد.

راحت تتقلب إلى جانبي، ومن غمرة غفوتها المشوشة، سألتني ما الأمر فأجبت:

«في النهاية، لا يستحق الراديو ثمنه..»

3

بيع الفرس الأرقط أخيراً، ليس إلى ملاك داخل الكوميون إنما إلى كوميون في الجنوب، بين الجبال البعيدة الشاهقة. قدم أربعة مزارعين واشتروا كل رؤوس الماشية واقتادوها بعيداً.

ذلك النهار، كان أول يوم غائم منذ بداية الشتاء، بيد أنه لم يكن لينذر بتساقط الثلوج.

هبت رياح باردة جافة حملت معها الرمال والأوراق الصفراء وبقايا روث الخيل وراحت تتلاعب بها في الفضاء قبل أن ترمي بها عند أسفل جدران المنازل.

بين الفينة والأخرى، كانت تظهر بعض الغربان تروح تنعب تائهة مرتعبة في الفضاء الداكن.

بدأت الحقول التي رُويت لفصل الشتاء تتجمد فيتقلص سطحها كمثل بشرة متشققة شاحبة. شاخت الأشجار فجأة وقد تعرت كل أغصانها. وحدها أشجار الزيتون البري، تشبثت بأغصانها بعض الثمار الجافة العنيدة التي راحت ترتعش في مهب الرياح.

بدا ذلك النهار وكأن له القدرة على نشر الجماد في كل شيء، حتى في الذكريات والأماني؛ وكأن الأرض كانت على هذه الحال قبل أن يصل إليها الإنسان، وهذه هي الحال التي يجب أن تكون عليها من الآن وصاعداً».

في ذلك النهار، سيق الحصان الأرقط العجوز ورفاقه خارج الزريبة. اجتازت الماشية الدرب المألوف بعد أن عبرت البوابة الكبيرة ومن ثم سلكت الطريق الفرعي المتصل بالطريق الرئيس.

توقف الفرس الأرقط لوهلة وأدار رأسه لينظر إليّ وكأنما معترضاً على عدم مرافقتي له.

عاجله أحد المزارعين بجلدة سوط مفاجئة جعلته يغيّر وجهته، جافلاً إلى حيث أمره المزارع. هزّ رأسه وكأنما ممتعضاً بيد أنه أطاع أوامر سيده الجديد.

كان الأفق الضبابي الرمادي اللون يمتد إلى آخر ما يمكن للمرء أن يراه على الطريق الرئيس. بينما كانت الأحصنة تسير باتجاهه كان يرتفع وراءها غبار كثيف أصفر اللون.

ها قد رحلت يا فرسي الأرقط العزيز. كم من الأسرار ناقشتها معك، كم من الأوقات الحرجة قد ساعدتني على مواجهتها. لقد شهدت أيضاً إعادة إحياء رجولتي. أخشى أني سأرحل عما قريب تماماً كما رحلت أنت. بيد أني، وعلى عكسك أنت، لن أنتظر من يأتي ليسوقني إلى السجن. ثمة إشارات تنبئني بأن اليوم الذي سيشهد نهاية حريتي يقترب بسرعة. هذه الفترة الانتقالية القصيرة الموسومة باللين والتساهل أوشكت نهايتها.

بعد أن ألقيت تحية الوداع على الفرس الأرقط العجوز، رجعت عائداً إلى الفرقة ومررت في طريقي بحظيرة الخراف وكانت هذه

تتأهب للصعود إلى الجبال لتمضية فصل الشتاء.

كان زو رويشينغ هناك.

«لقد بيعت الأحصنة ـ هوّن عليك».

ضحك وهو يلقي عليّ التحية، ولكن ضحكته شابها الكثير من المرارة وشيء من نبرة المتسولين، نبرة من يريد طلب شيء ما.

لم أكن أوليت زو رويشينغ أي اهتمام منذ ردح طويل من الزمن ولاحظت فجأة أنه قد هرم. تدلى على كتفيه معطف قديم من جلد الغنم ما زاد من تقوس ظهره. بدا جسده وكأنه تقلص حتى ليكاد يلامس الأرض. تقدمت نحوه وجلسنا بمحاذاة حائط الحظيرة لنحتمي من الرياح.

«أوليس هذا هو المعطف الذي كنت أرتديه في العام الفائت؟»

انتزعت المعطف من على كتفيه ورحت أتفحصه.

«لقد تأخرت الخراف في صعودها إلى الجبال هذه السنة. في مثل هذا الوقت من العام الفائت كان انقضى أكثر من شهر على صعودها».

«لم يجدوا من يتولى سوقها إلى هناك. لم يوافق أحد على الصعود إلى الجبال. أنت أيضاً نجحت هذه السنة في التملص من المهمة. لقد أصبح لديك عائلة، لذلك سوف أتولى أنا أداء المهمة بمساعدة دامبو».

«لا تقلق» قلت وأنا أحاول أن أهدىء من روعه.

«لسوف تشعر بشيء من الوحدة هناك، ولكن صدقني إن الحياة لن تكون بالصعوبة التي تحسبها. بمقدورك أن تأكل لحم الضأن متى تشاء».

«ها! وهل أن الحياة مجرد أكل لحم الضأن؟»

كان يكلمني بفمه المحدد الصغير فيبدو وكأنه يبتسم.

عجز لساني عن الكلام لبضع لحظات ـ لم تكن تلك طريقة زو رويشينغ المألوفة بالكلام. وضعت يدي على ركبته وقلت له: «احمل معك آلة العزف لتروّح عن نفسك في أوقات الملل. صدقني سوف ينقضي فصل الشتاء بسرعة تفوق ما تتصور».

«أجل إن فصل الشتاء سوف يمضي بسرعة ولكن فصل الربيع لن يعود».

نظرت إليه بانشداه وفهمت فجأة معنى المرارة في ضحكته المتسولة: «كان يرغب من كل قلبه أن آتي إليه وأكلمه. سحبت سيجارة وأشعلتها. دخنت قليلاً قبل أن أسأله: «ماذا عن استئنافك؟»

«اللعنة عليه!» أجابني وقد تغيّر سلوكه كلياً وأطلق شتيمة، ثم أردف: «وما الذي يستحق أن استأنف من أجله؟ أقول لك إني فعلاً أشعر الآن بأني نادم على كل شيء. ألم تسمع بالخبر الجديد؟ لقد انطلقت حركة جديدة في بكين تحت اسم «مقاومة اليمينيين وإبطال تحركاتهم القضائية»(*) لقد بدأوا في الدوائر التعليمية وأنا لا أقول لك جديداً إذ سبق أن مررت في تجارب مماثلة. كل الحركات تبدأ في غرز السكينة وفتلها في وحدات الثقافة والتعليم أولاً، حتى ينطلقوا بعد ذلك إلى الذبح على نحو شامل أعمى».

ذبح! فاجأتني قدرة زو رويشينغ على استخدام هذه العبارة الدموية الدقيقة. من غير وعي مني، اقتربت منه خشية أن يبدأ

(*) هذه الحركة كانت تستهدف إحباط كل الجهود المبذولة «لإعادة تأهيل» اليمينيين.

الصراخ والتعبير عن حنقه بأعلى صوته.

«على أية حال، أنت أفضل حالاً مني. لقد دُفعت إلى الحضيض وأُرسلت إلى مخيمات العمل الشاق و«ألبست قبعة» ورغم انعدام الأمل والرجاء، احتفظ ذهنك على الأقل، بالسكينة والهدوء. أما أنا فلا أزال أتأرجح ولا أعرف مكاناً أثبت فيه. أمامي الجزرة والعصا في آن معاً. أدركت الآن فقط أن كل شيء كان هباء. أو لا تعتقد أنه من المستحيل أن يتحمل المرء أمراً مماثلاً؟ لقد عرفت الآن ماذا تعني كلمة «التعليق»، تلك العبارة السياسية التي اخترعوها. تعني ببساطة دفع المرء إلى تعليق أو بالأحرى شنق نفسه».

إنه لأمر مدهش حقاً. أيا يكن وضعك فإن ثمة دائماً من يحسدك عليه. تلك كانت ميزة العصر الذي نعيش فيه. لم أشأ أن أغير رأيه الذي كوّنه عني بأني كنت بلا أمل ولا رجاء ولم أشعر بحاجة لأبوح له في تلك اللحظة بمكنونات قلبي.

«لا تفكر بهذه الطريقة» قلت له ببلاهة جادة.

«لقد قمت بإنجازات تستحق التقدير أليس كذلك؟

لن ينسوا أبداً إنجازاتك هذه وسوف يحاولون مساعدتك على إيجاد حل لمشاكلك؟»

بصق على الأرض بعنف. لقد تغيّر هذا الرجل تغيراً جذرياً وكأنما ارتكب خيانة كاملة بحق ذاته الماضية.

«أي إنجازات؟» قال. «وحده مغفل مثلي كان سيقوم بما قمت به أنا. لقد سحبوا مني كل شيء واعتصروني حتى آخر نقطة. وما إن أثرت استياء أحدهم حتى رموني خارجاً وأقصوني إلى هنا ونسوا كل ما يتعلق بشأني».

حين لم تشعر الخراف بأن أحداً يحثها على التقدم، استلقى بعضها على الأرض بكسل وتوجه بعضها الآخر إلى الزوايا ليحتمي من الرياح وتعيد النظر بكافة الأمور. لقد أُطعمت حتى التخمة تقريباً، تحضيراً لرحيلها إلى الجبال فلم تكن تتوق للتفتيش عما تأكله. نظر إليّ أحد الخراف نظرة حنونة ـ لعله تذكّرني.

صمت فم زو رويشينغ الصغير وتقارب حاجباه. بدت عيناه داكنتين وحزينتين وهو مستغرق في ذكرياته.

«أوتعتقد أن تلك الأوقات كانت سهلة بالنسبة إليّ؟» أردف قائلاً: «منذ زمن «حركة الولاء والإخلاص» التي بدأت عام ١٩٥١، وأنا أبوح بكل ما أعرفه ولم تكن ثمة من نهاية لما أبوح به: وصولاً إلى زمن الثورة الثقافية كانت هناك دوماً ثمة«جاينجيو» و«جييغا»(*).

في البداية، كنت أسلم تقاريري إلى القادة وصرت في ما بعد أسلمها إلى «حزب الثورة»! بيد أني اؤكد أن جميع الذين يوشى بهم يعانون أقل بكثير من الوشاة أنفسهم».

«لا أوافقك أبداً على هذه النقطة». لم يكن بمقدوري أن أتظاهر بالغباء حول هذا الموضوع بالذات.

«أصغ إليّ». قال وهو يضع يده على يدي التي كانت لا تزال تحمل سيجارة وأحسست للتو بارتعاشة جسده».

«إن الذين يوشى بهم يلاقون عذابات لحظة موجعة واحدة، وذلك حين تفضح جريمتهم أمام أعينهم. أما الوشاة فتراهم لا

(*) «جيانجيو»: الوشاية بالآخرين بتقديم تقارير عنهم إلى السلطة.
«جييغا»: «كشف القناع» عن الآخرين في لقاءات الإنتقاد.

يجدون طعماً للراحة بدءاً من اللحظة التي يخطّون فيها أول كلمة في تقاريرهم. كنت أكتب التقارير واحداً بعد الآخر وأنا عاجز اليوم حتى عن إحصائها. كان القادة واثقين من امتثالي لأوامرهم وفهمي للأمور كافة. كان بمقدوري أن أكتب خمسين تقريراً على الأقل في حركة سياسية واحدة. وقد بلغ مجموع ما كتبته أكثر من خمسمئة تقرير على الأرجح، وكان قلبي وكأنما يعتصر اعتصاراً كلما كتبت أحدها. لو تدري يا لاو زانغ أي نوع من الرجال كنت في شبابي. كنت مفعماً بالحياة والمرح. كنت أجيد العزف على آلات موسيقية مختلفة وأمارس رياضات عدة حتى أني كنت أجيد أنواعاً عديدة من الرقص. ومع كل تقرير كنت أعده، كنت أقتطع جزءاً من حياتي. لم أفعل ذلك إلا لكي أحمي نفسي وأعيش بأكبر قدر ممكن من الأمان، وبسبب ذلك تخليت عن أجمل الأشياء في حياتي. اليوم أصبحت إنساناً وحشياً أو عفريتاً مع بعض العيوب البشرية. كان يجدر بي أن أدرك أن كل ما فعلته ليس جديراً إلا بأولاد العاهرات... وفي نهاية المطاف، سقطت في الحفرة التي تخلى عنها الله...»

بانت على زاوية فمه جعدة صغيرة أشبه بخط بالغ القساوة حفرته سكّين وانحدر إلى أسفل فكه. كان يطلق العنان لغضبه المكبوت ولم يكن يستجدي الشفقة، بيد أني سحبت يدي من تحت يده وأمسكت بيده النحيلة الجافة: «لا تفكر بهذه الطريقة. ما مضى قد مضى» قلت له «لقد سمعت أن بعض الناس اتهموا غيرهم زوراً وتسببوا في إرسالهم إلى السجن أو حتى إلى الإعدام، ومع ذلك يعيش هؤلاء حياة سعيدة هانئة».

«أنت مخطىء» سحب يده من يدي ليشير بها بحركة عنيفة

تؤكد على شجبه لقولي: «أي حياة هانئة تلك التي يعيشون برأيك؟ اؤكد لك أن هؤلاء الرجال لا يختلفون عني بشيء. مستحيل أن يشعروا ولو للحظة واحدة براحة ضمير. يصعب علينا أن نكمل حياتنا من غير همّ أو قلق. ربما قد يشعر البعض بشيء من الرضى الذاتي، بيد أنهم يعيشون كما أعيش أنا، حياة أشبه بحياة الفئران. قد يشعر الفأر أيضاً بشيء من الرضى الذاتي قبل أن يمسك به القط...»

بان دامبو على سفح التلة مرتدياً، هو الآخر، معطفاً من جلد الغنم وحاملاً صرة. كان يتعثر في صعوده التلة في مواجهة هبوب الرياح. كان دامبو نحل كثيراً خلال هذا العام، وحتى أثناء عمله معي لم أكن لأدعه يقوم بأي عمل مرهق وكنت أحرص على أن يسير ورائي باستمرار. ليته كان يستطيع البوح بمكنونات قلبه كمثل زو رويشينغ. لربما كانت تحسنت حالته. بيد أن دامبو لم يكن تلقى أي تعليم ولم يكن يعرف إلا أن يسير بحياته قدماً وعلى غير هدى.

وقف زو رويشينغ وجلّس كتفيه بحركة عسكرية جعلتني أتخيّل الشاب الذي كان عليه منذ عشرين أو ثلاثين سنة، الشاب الوسيم الموهوب المفعم حيوية ونشاطاً.

«لقد طلبوا مني الذهاب إلى الجبال هذه المرة وأنا مستعد لتنفيذ أوامرهم وأشعر بشيء من السعادة أيضاً. من يدري، لعل العالم، بعد عودتي من الجبال، يكون تغيّر».

«وأي عالم سوف يصير عليه برأيك؟»

سألته وأنا أنظر إليه شزراً.

«أوتعرف من هو الهدف الجديد لرمية رمحهم هذه المرة؟»

سألني. «لا». أجبته وقد ارتأيت أن أدعه يسبقني إلى الإجابة.

«زو ودينغ!» دمدم قائلاً وسارع إلى كم فمه بيديه.

ثم صرخ في ثورة غضب شديد والتمعت في عينيه الصغيرتين شرارة مرعبة: «لو سقط هذان الاثنان لانطفأ آخر شعاع من الأمل أمام الحزب الشيوعي. ومن ثم سوف نصير جميعاً كما في أحلام الغرفة الحمراء. سوف يتوجب على كل منا أن يجد لنفسه طريقاً للهروب».

«وماذا ستفعل حينذاك؟» سألته بحشرية.

لن يكون للأمر شأن يذكر، لأنهم لن يولوني أية أهمية لفترة من الزمن». نظر إلى عيني وقال لي بصراحة متناهية: «أنا لست مثلك: أولاً لم أقم يوماً بالأعمال الشاقة؛ ثانياً لم «ألبس قبعة» وثالثاً أنا أنتمي إلى عائلة مدينية معدمة في حين أنك تنتمي إلى الطبقة الرأسمالية. رابعاً لم ينتزعوا مني بعد وظيفتي الرسمية في حين أنك صرت تنتمي إلى الطبقة الدنيا من المزارعين المعدمين. إضافة إلى أني درست الشؤون العسكرية ومن يدري قد يضطرون إلى إعادة استخدام السلاح في المستقبل القريب. في حين أنك...»

عاد إلى سلوكه المتملق الذليل وراح يربت على صدري بأصابعه قائلاً: «أو تذكر يا لاو زانغ حين أمضينا فترة معاً في سجن واحد. كان القائد يشير إليك ويصرخ قائلاً: «لا تعتقد يا زانغ يونغلين أن بمقدورك قلب الجنة رأساً على عقب. لن يقتضي الأمر سوى هبة هواء خارجية على العشب الطري حتى يصير رأسك المقطوع قدوة للجماهير!» بالطبع لم يكن يقول ذلك إلا لبث الرعب في قلبك. كان يدفعك للانصياع إلى الأوامر، بيد أن في أقواله تلك كان ثمة جزءٌ كبير من الحقيقة. الأجدر بك أن تحترس يا زانغ يونغلين. إن

قتلك لن يكون أكبر شأناً من سحق حشرة صغيرة لن يضطروا حتى إلى رفع تقرير لأيِّ منظمة أو لأي كان على الإطلاق».

كان دامبو لا يزال يبذل جهداً كبيراً ليتسلق التلة، كانت الريح تصفق في معطفه الطويل. نظر زو رويشينغ صوبه للحظات ثم التفت إليّ قائلاً: «أولا تعتقد أن ما أقوله صحيح؟ لعل «هو شيمين» و«لي يجون» هما خير مثال على صحة ما أقوله.

و«هوشيمين» كان رئيس قسم البروباغندا في المقر الرئيس وقد بدأ عمله في العام ١٩٤٣ ولم يترددوا في قتله لاحقاً. حين تم إعادة تأهيل الجميع لم يقدموا أي «اعتذار» ولم ينظموا حتى «لقاءات تذكارية». حتى أن قائد الفرقة طرد من منصبه بسبب هذه الحادثة وإلا لما كان قدم كاو كزوي إلى هذا المكان، وقد سمعت أخيراً أن الدعوى القضائية للنظر بشأن «هو» لا تزال مستمرة لغاية اليوم!.. أما «لي يجون» فكان مجرد مزارع يعمل في المزرعة الحكومية. كان نفّذ عقوبة أعمال شاقة «وألبس قبعة» مثلك تماماً، وقد قتلوه هو الآخر. من تراه يأتي على ذكره اليوم أو على ذكر الظلم الذي ألحق به؟»

هذا الرجل الذي اعتاد الحذر وقلة الكلام كان يدرك حقيقة الأمور الخفية. صمته الطويل كان أبقى على كل الأحداث محفورة في ذاكرته.

«أجل أنت على حق» قلت له وأنا أمزّق ما تبقى من سيجارتي إرباً إرباً. «في الواقع إن في موت لي يجون كماً كبيراً من الظلم حتى أنه يثير الاستفزاز أكثر من موت «هوشيمين». بإمكان المرء أن يتفهم موت «هو» لأنه كان مريضاً، بيد أن «لي» كان يضج بالحياة

إلى أن قرروا «تصحيحه» بالموت.

نحن في الواقع شاهدنا بأم أعيننا أموراً مماثلة حين كنا في السجن.

«حسناً إذا، ماذا يتوجب عليّ فعله برأيك؟»

بدا لي أن هذا الرجل يقيم حساباً لكافة الأمور وكنت جاداً حين طرحت عليه هذا السؤال طالباً مشورته، بعد أن لحظت صدقاً كبيراً في كلماته: «يا لاو زانغ إن الرئيس ماو قد أوضح كل الأمور حين ردد مرة «لا تخافوا عندما تسحق يوماً كل أواني مطابخكم».

في ما مضى، كنت أخاف من فقدان دفء منزلي وأمانه. أردت أن أحمي أيامي وأبعدها عن أي خطر يحدق بها، ولكن كل شيء تحول في نهاية المطاف إلى عكس ما كنت أتمناه...»

كانت يداه تتحركان وكأنما لترداد عباراته: «انتهى الأمر وغرق كل شيء في الفوضى. أنت رجل على قدر كبير من الذكاء ويتوجب عليك العمل بالمثل القائل: من بين الحيل الست والثلاثين، يبقى الهروب هو الوسيلة الفضلى للنجاة. لو كنت مكانك لسارعت إلى الفرار من هذا المكان».

حين شارف حديثنا على الانتهاء، اقترب دامبو وتوجه زو رويشينغ لملاقاته وشرع الاثنان يجمعان الخراف بواسطة سوطيهما ونجحا في دفعها إلى التقدم في قطيع منتظم مطيع.

ساعدتهما على سوق القطيع إلى الطريق المؤدية إلى الجبال. مددت يدي لأسلم على زو مودعاً وقلت له مبتسماً: «لسوف تتمتعان بوقت مسل أنت ودامبو في الجبال العالية. صدقني في أيام كهذه هذا النوع من الرجال هو الأكثر أمانة ووفاء».

«ليس بالضرورة» أدار رأسه متلفتاً إليّ ورمقني بنظرة تحمل معاني خفية: «لن يكون بعيداً ذلك اليوم الذي سيفتح فيه دامبو فمه».

توجه الفرس الأرقط إلى الشرق وتوجهت الخراف إلى الغرب باتجاه الجبال التي يعلو قممها الضباب الأسود. كانت الخراف تنشر وراء خطواتها الروث فانتشرت رائحته في البرد القارس والهواء الجاف ثم راحت تتبدد تدريجياً وتوارى الرجلان ومعهما الخراف.

4

حين دلفت إلى المنزل عائداً من العمل، وضعت الرفش خلف الباب ولاحظت أنْ سوطي لا يزال معلقاً في الزاوية، وقد بدأت تتراكم عليه طبقة رقيقة من الغبار. انتزعته عن الجدار بحركة عنيفة مقتلعاً معه المسمار وسارعت إلى كسره ورميه خارجاً».

«هل عدت؟» كانت تجلس على كرسي صغير أمام سلة مليئة ببيض البط. ابتسمت لي.

«أجل، عدت».

«لقد بيعت كل الأحصنة ـ هل تشعر بالأسى لرحيلها؟»

كانت تسقط بيض البط بتأن، الواحدة بعد الأخرى، في جرة خزفية ملأتها بالماء المملّح المغلي.

«ماذا تعنين بشعوري بالأسى لرحيلها؟ لقد سئمت من البشر أنفسهم فكيف بالأحصنة؟»

كانت الغرفة دافئة ومضاءة، والنار تتأجج في الموقد الحديدي. مددت يديّ فوقه لأدفئهما بحرارته وأغمضت عيني. ثم وضعت يديّ الدافئتين على جبيني فشعرت بالدوار. كان هذا منزلي. دفؤه

هذا هو ما يحتاجه كل إنسان على سطح الأرض. بيد أن ما يتكره الإنسان عادة سرعان ما يلتف حوله ويقيّده.

هذه النار في الموقد، هذه الأواني المطبخية، هاتان الغرفتان الصغيرتان... كل ذلك مُنح لي لكي أتنعّم به، بيد أني دفعت مقابله ثمن حريتي.

«إني أخلّل بيض البط من أجلك، أوترى؟» تكلمت من وراء ظهري.

«وما الذي يستحق أن أراه؟» فتحت عيني والتفت لأنظر إليها. لم يبد أن إجابتي هذه سببت لها الإهانة فصمتت لبرهة قصيرة قبل أن تردف قائلة: «إن الوقت يمر بسرعة. تلك البطات الصغيرة التي ابتعناها ولم يكن قد مضى على زواجنا سوى أيام قليلة، ها هي اليوم تعطينا كل هذا البيض».

كان ذلك صحيحاً. كبر الهر هو الآخر، وها هو يتكوّر مطمئناً أمام الموقد بعينيه الناعستين ومموائه البليد. هذا القط الرمادي كان نفسه الذي اندفع كالسهم من بين قدمي كاو كزوي في تلك الليلة.

مثل الفرس الأرقط العجوز، شاهد هذا القط أموراً عديدة: إن أكثر ما يخشاه الناس على هذه الأرض أمثالهم من المخلوقات البشرية ولا يبدون أي خشية من الحيوانات حتى الأكثر ضراوة منها. أخفضت رأسها وواصلت إسقاط البيض في الجرة. لم تغرق البيضات إلى القعر إنما بقيت طافية كمثل طبقة رقيقة من الثلج على سطح المياه المالحة. سألتني بنبرة سعيدة: «سمعت أن الجنوبيين يحبون أكل بيض البط. هل هذا صحيح؟...

«يبدو جلياً أنك سمعت أموراً كثيرة» أجبتها بشيء من الغضب.

رفعت رأسها ونظرت إليّ. خبا وميض عينيها حين توجهت إليّ قائلة بنبرة مؤنبة حذرة: «إنك لا تدعني أنسى، ولو للحظة واحدة، شيئاً واحداً مما قلته في الماضي».

«يسهل علينا نسيان الكلام لكن الأفعال تبقى محفورة عميقاً في الذاكرة».

قلت هذا ورفعت الستارة متوجهاً إلى الغرفة الداخلية. جلست إلى المكتب المصنوع من نصف الباب وأخرجت مفكرة. إن اللذة التي نجدها في الكتابة لا تكمن في الإبداع فحسب. نصف هذه اللذة يكمن في عملية الكتابة نفسها: تحليل الأمور وترتيبها ثم التفكير وإعادة النظر فالاستنتاج واتخاذ القرار. هذه النشاطات الذهنية هي أشبه بالتمارين الجسدية حيث ليس من الضروري أن يحل المرء في المراتب الأولى ليشعر بالسعادة تغمر قلبه، إذ أن مجرد تحريك عضلاته يكفي ليبث فيه شعوراً بالنشاط وإعادة الحيوية إلى جسده. طوال عشرين عاماً، لم أكتب شيئاً ذا أهمية تذكر، باستثناء «الانتقادات الذاتية» و«التحاليل الذاتية» و«التقارير الأسبوعية» و«طلبات لحصص إضافية من الحبوب» وطبعاً طلب الزواج إضافة إلى عدد من «المقالات الانتقادية الرائعة» ضد الآخرين.

على أية حال، لربما كانت هذه هي الغاية أساساً من «إعادة إصلاحي». مثلما يُسلخ جلد حيوان، كان عليَّ أن أكشط عني الثقافة. ورغم أن من يُسلخ جلده تفترسه آلام فظيعة، بيد أن هذه العملية بالنسبة للصياد نفسه هي عملية طبيعية وضرورية.

قبل أربعة أشهر، وبعد أن نجونا من خطر الفيضان وعدت «رجلاً طبيعياً»، تناولت قلمي من جديد وحاولت أن أكتب. وما

تمظهر أمامي في البداية كان مستنبطاً وغامضاً. توجّب علي أن أنحت كل حرف كما كان الأقدمون يحفرون الحروف على قشور الخيزران. وكأنما جهاز الإرسال بين دماغي وأصابعي كان قد تآكله الصدأ. الكلمات في رأسي لم تكن لتنتقل بسهولة إلى الصفحة أمامي، فكنت أجلس محدقاً في الفراغ باحثاً عنها، الواحدة بعد الأخرى.

وشيئاً فشيئاً، نتيجة التمارين المستمرة، انطلق المحرك من جديد. الكلمات الغريبة عادت لتصير مألوفة حميمة. حين نفتقد من نتكلم إليه على كل ما يجول في رأسنا بحرية وصراحة متناهيتين، تصبح الكتابة الوسيلة الفضلى التي تعطينا القدرة على الاستمرار في التفكير. ما إن يأخذ التصور الذهني شكله في كلمات على الورق، حتى يصير له وجود مستقل ومحسوس، فيقود المرء إلى اكتشافات جديدة وعلاقات يقيمها هذا التصور بالذات مع تصورات أخرى لا تلبث هي أن تصل مسرعة إلى الورقة البيضاء. بهدوء وروية تتجمع الأفكار وتنصهر في بوتقة واحدة، تنفض عنها الفوضى والشواش وتتحول إلى عملية منظمة منطقية.

حتى هذيان المجانين ودمدمات الأحلام يمكنها أن تنتظم بفعل سحر القلم.

إلى جانب السعادة بالحواس، الذوق والنظر والسمع واللمس، ثمة نوع آخر من السعادة يثيرها الدماغ نفسه. هي ليست بسعادة ناتجة عن مسبب ما. إنها تنبع في الواقع، من مكان عميق يخفي كل تقلبات الحياة وأوهامها الظاهرية. والنور الوحيد الذي شهده هذا المكان ليس صادراً إلا عن إشعاعات فكر الإنسان وعقله.

أن يُرمى المرء في محيط البشرية الواسع ليس بالضرورة بالأمر

السيىء: فالواحد لا يبلغ حرية الأفكار إلا من خلال هذا الواقع بالذات، إضافة إلى بلوغه درجة عالية من تطهير المنطق وتنقيته من كل الشوائب العالقة فيه.

وهذا المنطق المنقّى يكون أشبه بضوء فوسفوري لا يفتح بالضرورة درباً جديداً ولكنه على الأقل، ينير الدرب أمامنا.

الطريق أمامي كانت محفوفة بالمخاطر، وهذه المخاطر كانت تتفاقم بصورة مستمرة. اليوم لم أتحلَّ بالشجاعة اللازمة لكتابة كلمة واحدة، أو بالأحرى كانت أفكاري مشوشة إلى درجة شُلّت فيها إرادتي وأُحبط عزمي.

أغلقت المفكرة، وضعتها جانباً وتمددت على السرير بكامل ثيابي. احتكت ياقة سترتي الناعمة بخدي. لقد خاطتها لي بصبر وأناة، قطبة قطبة، ومن ثم قدمتها لي بكل فخر واعتزاز قائلة: «أراهن أنك لم ترتد معطفاً كهذا منذ عشرين سنة». كانت «ماينغوها» قد أعطتني مرة بنطلوناً قطنياً صنعته من سجادة قديمة بيد أن هذا كان منذ ردح طويل من الزمن. كانت للنساء آنذاك القدرة على إنجاز أشغال يدوية بارعة. كن يبرعن في استخدام الإبرة والخيط لخياطة الرجال إليهن. فحين يرتدي هؤلاء ما صنعته لهم أيديهن الصغيرة، كانوا بطبيعة الحال لا ينفكون عن التفكير بهن: برؤوسهن تحت الضوء بينما أصابعهن تغرز الإبرة وتلف الخيط بحركة لا تجيدها سوى النساء. كل قطبة كانت تحمل شيئاً من دفئهن، ورائحتهن وطيبتهن وجنسانيتهن. وفي النهاية، لا يشعر المرء بالقماش يلف جسده إنما بيديها الصغيرتين تضمانه إليها. «هل أن الحياة مجرد القيام بأكل لحم الضأن؟» ربما لا، ولكن هو جزء مهم منها، خصوصاً بالنسبة للفقراء أمثالنا.

في المزرعة الحكومية، كانت توزع على كل فرد حصة شهرية بمقدار ليانغ(*) واحد من زيت الطهو. ما إن تقترب بداية الشهر، حتى تبدأ هي - ليفانغ بإطلاق الشتائم: «اللعنة على كل هذا. إن الزيت الذي يوزعونه علينا بالكاد يكفي لملء قطارة لايمكنني أن استعمل سوى قطرة أو قطرتين أثناء الطهو».

لكن كزيانغجيو كانت تدّخر كل قطرة من حصتها من أجلي أنا وحدي. كانت تسكب مقداراً قليلاً من الزيت وتقلي فيه بضع بصلات خضراء وتضعها فوق كل وجبة عصائبية قبل أن تقدمها لي. أما هي، فكانت تكتفي بلعق الملعقة الصغيرة التي تستعملها في تكييل الزيت. هذه الحركة العادية، الأقرب إلى السوقية كانت لتعبّر من خلالها عن مدى حبها لي وحرصها على صحتي. وكما حصص الزيت، كانت توزع علينا المزرعة الحكومية حصصاً هزيلة من اللحم وكانت هذه الحصص أيضاً تعود إليّ أنا وحدي. لم تكن تأكل اللحم بل تكتفي بقرض العظام.

غالباً ما شعرت بأن هذا النوع من الحب يثقل عليّ ولكنها كانت تهدىء من روعي قائلة: «ألا ترى كم أنا متربلّة؟ لا آكل اللحم أو الزيت ومع ذلك أتمتع بصبحة جيدة». ثم كانت تطلب مني أن أتحسس عضلاتها وتقول: «سمعت أن الرجال بحاجة إلى وحدات حرارية تفوق بكثير تلك التي تحتاجها النساء. لقد كنت في المخيمات، أولا تعلم ذلك؟» كلانا كان يعرف ذلك جيداً، فمعظم الذين ماتوا في مخيمات العمل في العام ١٩٦٠ كانوا من الرجال.

(*) الليانغ الواحد يوازي خمسين غراماً أو ١,٧ أونسة.

بالاختصار، تبدّلت كل عادات حياة العزوبة التي عشتها في الماضي تبدلاً كلياً، لتحل محلها العادات العائلية. وبصورة أكثر تحديداً، تدربت على عاداتها هي حتى صارت كل حياتي اليومية تعوّل عليها؛ لقد أفرطت في تدليلي. المعطف الدافىء، الثياب الداخلية النظيفة، غطاء السرير، الفراش، الشراشف، السرير، كل ما في الغرفة ولا سيما كريم البشرة خاصتها في زجاجته البيضاء النقية، والستائر القطنية الرخيصة المعلقة فوق النافذة، كل شيء ابتكرته يداها، وكل ما هنالك تواطأ عليّ ليقيد حياتي.

لقد ابتكرت هذا المنزل الصغير وفقاً لتصورها الخاص للمنزل الزوجي. وضعتني في داخله ولم اعترض، فأصبحت جزءاً منه. ومغادرته لن تكون سهلة على الإطلاق إذ إنه سيتوجب علي أولاً أن أتخلى عن جزء مني.

احترت في أمري ووجدت نفسي غير قادر على اتخاذ القرار المناسب. رفعت عيني لأنظر إلى الجرائد التي تغطي السقف.

كانت محشوة بالسطور والكلمات، بيد أن أيّاً من هذه الكلمات ما كانت لتشرح الحياة أو ترشد المرء إلى كيفية العيش. لقد برهن الناس عن جدية مفرطة خلال السنوات العشرين سنة الفائتة، وباستقامة مطلقة تقيأوا كل الترهات والأكاذيب. إن الكلمات والأكاذيب التي لا تعد ولا تحصى قد نجحت في خلق عالم زائف ولكنه عالم مرعب.

بدا لي وكأني كنت أعيش في عالمين: عالمي الخاص والعالم الزائف. وفي الواقع كان العالم الثاني هو الذي يسيطر على أيامي ويتحكم بها ويقرر حياتي وموتي. أردت أن أخترق هذا العالم الزائف. أردت أن أتجاوز وجودي. بيد أن المستقبل كان يلفه

الالتباس. وفي أوقات كهذه، حين تهب العواصف وتثور من كل حدبٍ وصوب، ألا يستحق هذا العالم أن نتريث فيه لبعض الوقت...؟

فجأة، رفعت الستارة.ودلفت إلى الغرفة.

جلست على السرير وكان وجهها يستشيط غضباً: «أقول لك وأردد: لا تبقَ معلقاً بأمور الماضي وشجونه. أنت أيضاً لك ماضٍ» كان مئزرها لا يزال مربوطاً إلى وسطها جاعلاً ثدييها أكثر انتصاباً وأكثر اكتنازاً من ذي قبل. راحت تفرك يديها بالكريم المطرّي. وتلويهما بقوة كما لو كانت ترغب في انتزاعهما أو عصرهما عصراً يثير ألماً شديداً.

«ماذا؟» جلست مذهولاً وقد نسيت ما الذي قلته لها حتى آلمها لهذه الدرجة.

«يبدو لي وكأنك تستنبش باستمرار هذه الأمور من الماضي لتستخدمها كعذر تتسلح به لكي تهجرني. حسناً بإمكاني أنا أيضاً أن أستخدم أشياء من حاضرك ولن يكون أيٌّ منا هو الرابح». كانت عيناها تشعان غيظاً وامتعاضاً وبدا وكأنها على وشك أن تنفجر بالبكاء.

«وماذا تعنين بالأشياء من حاضري؟» كان عليّ أن أدرك منذ زمن بعيد أن بوسعها في أية لحظة أن تنفجر غضباً بهذه الطريقة رغم أنها لم تكن يوماً إلا في منتهى الهدوء والطاعة.

لا شك أنها كانت تشيّد قوتها هذه لبنة لبنة.

هذا الغضب لا بد وأنه كان يجيش حين كانت تضع بيض البط في المياه المالحة ولما انتهت باتت على استعداد للانفجار.

«ما الذي تكتبه كل مساء» سألتني «لسوف تلحق الخراب بهذا المنزل».

«حين لا يكون لدي ما أفعله في الليل، ما الضير في أن أكتب قليلاً. ما الذي يضيرك أنت؟» حاولت أن أبقى هادئاً.

«بالطبع إن هذا يضيرني». انطلقت بالصراخ «أنت تدرك جيداً أنك لم تعد أعزب. لديك اليوم منزل وثمة في هذا المنزل شخصان».

أخذت نفساً عميقاً: «أجل ثمة شخصان. لماذا لم أفكر بهذه النقطة من قبل؟ لقد أخفيت عنها أموراً كثيرة ومع ذلك أريد تحميلها كل المسؤولية.

قبل اليوم، كان بوسعي الإجابة. عادت إلى الصراخ: «إنك تحسب بأني غافلة عن كل ما يجري. في الليل يكون جسدك بقربي، هذا صحيح، ولكن رأسك يذهب بعيداً إلى حيث لا أدري..»

أزالت كلماتها تلك فكرة راودتني بأن أشرح لها كل شيء. ابتسمت لها بازدراء وقلت: «لا بد وأنك تمزحين. لقد قلت لك منذ زمن بعيد أن إدراكك لكل ما يحدث لهو مغاير عن إدراك الآخرين».

«لا تتظاهر بالغباء» قالت هذا وقد تجهم وجهها.

«لقد حذرتك منذ زمن بعيد إنه ليس بمقدورنا اختلاق المشاكل. لا يمكننا أن نحارب ونمشي ضد التيار، وإذا كنت تصر على عدم الإصغاء فإنك تبحث عن موتك بلا شك. ألا تعرف كم من الناس أرسلوا إلى مخيمات العمل لمجرد اقتنائهم مفكرة؟ هل أنت غريب عن تلك المخيمات؟ ألم يكفِك ما لاقيته نتيجة لهذه

الجريمة بالتحديد؟»

«لا، لم أكتف بعد». أجبتها بوقاحة وعناد.

«إذا كان هذا هو شعورك، فأنا مستعدة لأن أرافقك إلى النهاية المريرة ولكن عدني فقط أنك سوف تنسى كل ما هو متعلق بماضيّ».

أربكتني كلماتها وتركت فيّ للوهلة تأثيراً عميقاً.

هل يجدر بي أن أصارحها بما أنوي فعله، بما كنت أفعله في الواقع؟ هل هي من نوع النساء اللواتي يمتلكن القدرة على الفهم؟ رمقتها بنظرة سريعة: ها هي رائعة الجمال، شهوانية، جذابة وأيضاً جاهلة. كانت امرأة قادرة على إثارة رجل من أمثال كاو كزوي وكانت من صنف النساء اللواتي يغويهن رجل من أمثاله أيضاً.

مرت في ذهني صورة رجل كان استاذاً في المرحلة الابتدائية وكنا أمضينا معاً عقوبة ثلاث سنوات من العمل الشاق في سجن واحد: لقد أُدخل إلى السجن بسبب «آرائه الثورية المعارضة» ومن بلّغ عنه لم يكن سوى زوجته.

بشفتي المشدوهتين قلت لها: «أنسي الأمر. لن أدع الأمر يصل إلى حده المأساوي على أية حال. أتريدين الصراحة؟ كنت أخشى أن أنسى كل ما درسته في الماضي فرحت أدوّن بعض التوافه على صفحات المفكرة».

«ألم يسبق أن قلت لي أنك لا تنسى أبداً شيئاً من الماضي؟» ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة ما لبثت أن اختفت ليحل محلها صف من الأسنان العدائية البيضاء.

«التوافه قلت. على الأقل أنت تعرف أن ما تكتبه تافه. ولكن

قل لي هل ثمة كلمة واحدة مما تكتبه لا تعارض السياسات القائمة؟ أو لا تعارض «انتقاد حقوق الطبقة الرأسمالية» أو «انتقاد سونغ جيانغ؟» لحسن حظي أو لسوئه، أني قد أتممت المرحلة المتوسطة ولا أزال أجيد القراءة.

وماذا عن ذلك الراديو الذي ابتعته لك! لقد ابتعته لتستمع إلى المسرحيات وتروّح عن نفسك. ماذا تحسب نفسك حين تضع المسماع كل ليلة، تماماً كمثل عميل سري...؟»

«حسناً، حسناً. لا أريد أن أتشاجر معك». أردت أن أضع حداً لصراخها المتصاعد، وتمددت على السرير لأشير إلى رغبتي في إحلال الهدنة.

«ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟ ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟»

كان جسدها مشدوداً حين أخذت تحدق بي وتردد هذا السؤال وهي تحاول كبت دموعها.

أريد أن أهجركِ. لا بل أريد أن أغادر هذا المكان برمته. رغم ذلك، عدت إلى صمتي ورحت أحدق من النافذة. هنالك في البعيد، في امتداد هذه السماء الرمادية، ثمة ما يثير فيّ أحاسيس غريبة.

حلّق عصفور دوري بدا وكأنه يتوق إلى بعض الدفء في مهب الرياح الباردة. كانت الغرفة دافئة ولكنني تمنيت لو أكون مكانه.

«حسبت أنك مثل باقي الرجال، حسبت أنك عاقل. كنت أراقبك وأنت نائم وأداعبك وأحبك... واليوم يتبين لي أنك رجل مغفل لا تملك ذرة واحدة من الدماغ. على الأقل صرت أفضل اليوم وقد أصبحت رجلاً. لم أخدعك سوى مرة واحدة وها أنت

تذكرني بهـا في كـل لحظة وتتمسك بها لتمارس عليّ ضغوطك.

اؤكد لك أن الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها. اؤكد لك، أني لو نقلت للقادة كلمة واحدة عما تكتبه، فلن يعود اسمك زانغ يونغلين. أوتحسب أني مغفّلة؟ أو تحسب إني لست على علم بكل الأفكار الشيطانية التي تدبرها؟ أو تحسبني سهلة حتى ترمي بي متى تشاء؟ ما عليك إلا أن تحاول وسوف ترى ماذا سيحصل...» راحت تشهق بالبكاء، ما أثار فيّ شعوراً بالغضب والحنان في آن.

لم أشأ أن أنظر إليها بيد أنها أصرّت على التحديق في وجهي. عندما كانت تفيض رقة وطاعة، كانت أشبه بقطة صغيرة تروح تتكوّر في حضني لكي أداعبها. لكنها عندما تغضب كانت تصير أشبه بجدجد يتأهب للهجوم على فريسته: كانت تقف متأهبة قبالتي وهي على أتم استعداد لمواصلة المعركة حتى النهاية، إلى أن يتقرر موت أحد الطرفين.

كانت عيناها داكنتين تنمان عن حزم وعناد لكن دموعاً راحت تتسلل على خديها. أجل كانت هذه كزيانغجيو. «الحب» هذه الكلمة التي ترددت مراراً وتكراراً في روايات مضجرة، لم تعرف طريقها إلى شفتيها يوماً. ورغم ذلك ها هو حبها أمامي: متطلباً ووحشياً في آن. إن الحب يثير الرغبة والاشمئزاز في آن. لا يمكن للمرء أن يعيش من دونه ولا يمكنه أيضاً أن يعيش في الكثير منه.

«هل قلت مرة واحدة»، ضحكت بجفاء «إذا كنت تريدين قتل أحدهم فإن كل ما يقتضيه الأمر طعنة سكين واحدة. وهذه «المرة الواحدة» خاصتك قد آلمتني في العمق، ومن الصعب تصحيحها اليوم. وإذا كنت تفكرين في التبليغ عني، فأنا أتساءل فقط هل أنك تملكين الجرأة الكافية لذلك. لو بحتِ للآخرين بكلمة واحدة

عني، اؤكد لك بأن زواجنا يكون قد وصل إلى نهايته».

«ما عليك إلا أن تراقبني لترى إذا ما كنت أملك الجرأة أم لا».

بانت في عينيها نظرة شك وحذر وبدا لي أنها تتساءل عن كيفية إنقاذ الموقف، ولكنها في الوقت عينه لم تشأ أن تبدو ضعيفة أمامي. لقد قرأت الجفاء في عينيّ وليس المنطق. لم تفهمني. كانت لا تزال تحسب أني جزء منها لذلك لم تفهم حتى نفسها. «لو عدت للكلام مرة واحدة على الماضي فلسوف ترى بأم عينيك إذا ما كنت أملك الجرأة أم لا». راحت تردد: «إن ماضيّ وماضيك أمران مختلفان تماماً». قلت «لا يمكنك المقارنة بينهما أساساً ولا يمكنك بالتالي أن تفكري باستخدام هذه المقارنة لابتزازي».

«آه! أنت تسميه ابتزازاً إذا؟» أصبحت فجأة تتكلم على الأخلاق كما لو أنها لم ترتكب قط ما يمكن أن تلام عليه.

«وأنت بماذا تفكر؟ أو تحسب أنه من السهل أن تتخلص مني؟»

«لا، لم أكن أفكر في التخلص منك. ولكن طالما أنت قد أثرت هذا الموضوع فلا أدري ما يمكنني فعله غير ذلك. يبدو جلياً أنك كنت تفكرين في التبليغ عني منذ فترة طويلة». جلست على السرير ومددت يدي إلى جيبي لأتناول علبة السجائر. كان عليّ أن أجد لنفسي عذراً ولن أجد حتماً أفضل من هذا لكي أهجرها. استشاطت غضباً بصورة مفاجئة حتى صار وجهها أبيض اللون وبدا جسدها وكأنما يلتف التفافاً. حسبت أنها تتأهب لتقفز علي ولكنها، كمثل قطة، وثبت إلى رف الكتب واختطفت مفكرتي وضمتها إلى صدرها.

«لست مضطرة لأن تتشبثي بها بهذه الطريقة. لن يحاول أحد انتزاعها منك على أية حال».

قلت هذا وعدت لأتمدد على السرير. أشعلت سيجارتي ورميت بعود الثقاب باتجاه الباب وبالحركة نفسها أشرت إليها قائلاً:

«لو رأيتك تقومين بخطوة واحدة باتجاه الباب... مجرد خطوة واحدة...»

كنت أعلم أنها لن تجرؤ على القيام بذلك ولكنني في الوقت عينه، تمنيت أن تخطو خطوتها تلك. كنت بحاجة لسلوك أحمق تقوم به حتى أشعر براحة ضمير.

حين تفكر في هجر إنسان من الأفضل أن تدعه يقوم بما يؤلمك أولاً. «حاولي فقط ـ لو رأيتك تتقدمين خطوة واحدة...»

«حسناً، هل ستستمر في تذكيري بالماضي أم لا؟»

«ولم لا؟ سبق أن قلت لك إن هذا موضوع مختلف».

تبدّل وجهها وكدت أعجز عن التعرف إليه. أصبح وجه كائن فقد كل قدرة على المنطق. كانت تضم المفكرة إلى صدرها وأجهشت بالبكاء وهرعت صوب الباب. جلست بنزق ورميت السيجارة ورحت أحاول التنصت إلى ما كانت تفعله. هرعت إلى الغرفة الخارجية. انحنت إلى الطاولة وراحت تشهق بالبكاء. سمعت صوت تحطّم إناء الزهور على الأرض.

ها هو الصدع قد أُحدث. هل أسارع إلى ترميمه أم أدعه ليكبر أكثر فأكثر؟ وقفت على حافته وشعرت بالدوار وأنا أنظر إلى أعماقه؛ شعرت أن ثمة قوة جاذبة هائلة تشدني إلى قعره. لن أتمكن من النجاة من العالمين إلا إذا رميت بنفسي فيه ولسوف أجدني إما انتقلت إلى أرض جديدة وإما قد صرت في السجن من جديد.

تظاهرت بالغضب وقفزت من على السرير وهرعت إلى الغرفة الخارجية بخطوات عملاقة. تقدمت نحوها متظاهراً بأني أنوي انتزاع المفكرة من قبضتها. لم يخطىء ظني حين أسرعت إلى الباب الخارجي وهي تقبض على المفكرة وكأنما لتتوجه «بأداة الجريمة» فوراً إلى القادة.

أمسكت بها وراحت تقاومني بكل ما أوتيت من قوة. جسدها الناعم الرقيق، ذلك الذي أثار شغفي في ما مضى، أصبح صلباً عنيداً وعدائياً بين ذراعي. مددت يدي لأنتزع المفكرة وكانت تقبض عليها قبضة الموت. رحنا نتجاذب ونتدافع كما لو كنا نقدم مشهداً مسرحياً، بيد أن السيناريو انتهى فجأة. تردد الممثلان وهما لا يدريان ما الخطوة التالية التي يتوجب عليهما القيام بها. وأدركا أن عليهما الاعتماد على موهبتهما الفطرية لتأدية دوريهما وتحويل المسرحية المزيفة إلى أخرى حقيقية.

في تلك اللحظة، فتح الباب بقوة ودلف هاي ـ تز إلى الغرفة. أخذتنا المفاجأة وقفنا بلا حراك وكلٌ منا يتشبث بالكتاب من جهته. بنظرة واحدة، أدرك هاي ـ تز سبب شجارنا. أبعد يديها وصرخ بها قائلاً:

«أعطه الكتاب يا هوانغ زيانغجيو. لو كان لديك ما تقولينه فمن الأفضل أن تقوليه فوراً...»

دفعت بالمفكرة إليّ وركضت إلى الغرفة الداخلية وهي تجهش بالبكاء. غمز إليّ هاي ـ تز بعينه. دسست المفكرة في جيب معطفي. هدأت أنفاسي ورافقته إلى الخارج. كانت رياح الشتاء تستعرض قوتها وتعصف بشدة حاملة نفايات البلدة إلى السهول. كانت غيوم الغبار الأصفر الكثيف تندفع في الأشجار العارية بعد

أن تتصاعد من الطريق الترابية التي تقود إلى خارج البلدة. إنزوينا في ناحية نائية عن الرياح وجثمنا أرضاً وسحب كل منا سيجارته من جيبه وأشعلها بصمت. بعد نفخات قليلة، أغمض هاي ـ تز عينيه نصف إغماض وقال: «لم أرَ شيئاً ولا أعرف شيئاً. ولن أسألك كذلك عما هو مكتوب في المفكرة».

أطرق مفكراً للحظات ثم بصق بصقة ضخمة: «لقد سبق أن شهدت أموراً عديدة مماثلة. كان ذلك حين كنت في الحرس الأحمر... اللعنة على كل شيء... في شوارع بكين. تلك العاهرة الملعونة سرقت دفتراً كان زوجها يدوّن عليه ملاحظاته ومدتني به حتى أبلّغ عنه. اللعنة، كم كنت غبياً آنذاك: لم أتردد لحظة واحدة وخلت أني سأجني فائدة كبيرة إذا ما قدمته للقادة. أُدين الرجل وأنزلت به عقوبة وكوفئت العاهرة بمنحها الطلاق.

يا لاو زانغ، ليس مهماً أن تكون المرأة كسولة أو جشعة، ولكن الله في عونك إذا ما كانت زوجتك من المخابرات الروسية. تصوّر أنه في كل ليلة عليك أن تحضن قنبلة موقوتة. سبق أن قلت لك منذ زمن بعيد إن زوجتك بحاجة لمن يضربها ضرباً مبرحاً. وقلت لك أيضاً إن تلك العاهرة على علاقة وطيدة بابن الزانية ذاك. أذكر أني تضايقت كثيراً منك آنذاك، ثم عدت وقلت لنفسي إنها لا شك تملك شيئاً ضدك.

هذا هو إذاً! أعجب بك يا لاو زانغ هل مازلت ترغب بهذه المرأة زوجة لك؟

لسوف تتسبب في إرسالك إلى المخيمات مجدداً وفي أي لحظة ممكنة. عليك أن تفكر بطريقة لتتخلص منها...» كانت أزقة القرية مقفرة وكأن الناس قد جرفتهم الرياح بعيداً. بعد نفخات قليلة

كانت سيجارتي تشغل نفسها وتحترق كلياً. من يستطيع فهم مشاعري؟ إن الأعصاب لا يمكن وصلها مثل الكهرباء لننقلها إلى الآخرين. إن الظروف الحرجة التي يمر بها المرء قد تبدو سهلة للناظر إليها من الخارج.

«شكراً يا هاي ـ تز. لقد كنت لي عوناً كبيراً. لا أدري ما ستكون نتيجة كل ما يحصل... أما بالنسبة إليها...»

وما عساها أن تكون تلك النتيجة؟ أعرف تماماً أنها لن تذهب بالأمور إلى أبعد من ذلك بعد كل ما حصل هذه الليلة. إن غضب امرأة وثورتها أشبه بنهر يفيض في الصحراء: في البداية يكون ثائراً ومندفعاً بأقصى قوته ولكنه ما إن يتدفق على بعد مسافة صغيرة حتى يروح يتوارى شيئاً فشيئاً.

رميت السيجارة بغضب. «اللعنة» فجأة بدا الانزعاج واضحاً على محيّا هاي ـ تز.

«كل هذا كاد ينسيني.... ما جئت لإخبارك عنه. حين كنت في العمل بعد الظهر أذاعت مكبرات الصوت أن الرئيس زو قد توفي».

«لا». نظرت إلى وجهه ولم أفهم على الفور ما قاله. إن الوقت مبكر جداً!

دفعت الباب بعنف، وبحركة لا تقل عنفاً أمسكت بالرفش من ورائه ثم هرعت إلى حيث الموقد.

أزحت عنه الغطاء. كان الجمر يتأجج في داخله واللهب يتقدّ أحمر كمثل عين التنين. سحبت المفكرة من جيبي ومزقت غلافها البلاستيكي وشرعت أنتزع ورقاتها، الواحدة بعد الأخرى، وأرميها في اللهب: «اقرأوا هذا! حققوا بشأن هذا!»

لفظت الأوراق ألسنة صفراء اللون قبل أن تتحول إلى اللون الأسود ومن ثم الأبيض. تساقط الرماد على قطع الجمر الملتهبة كمثل أرواح تنشر أنفاسها. كانت للكلمات المحترقة حياتها الخاصة، كانت دماء قلبي، كانت مركّباً كيميائياً ابتكره دماغي. وها هي الآن قد أحيلت إلى نيران الموقد لتتخبط فيها وتتململ، بلا حول ولا قوة. «أيتها الأوراق، إذا كان لا بد لك أن تحترقي، فاحترقي! هذه الإشارات المكتوبة عليك سوف تبقى محفورة في ذاكرتي إلى الأبد. سواء طفتُ كل أنحاء العالم أو أُودعت وراء القضبان من جديد، لسوف لن أنساك قط تماماً كما لا ينسى الأب ابنه. سوف يأتي يوم، لا بد أن يأتي يوم لأنطق بك بصراحة متناهية، أمام كل الناس. «سوف ينقضي الشتاء بسرعة ولكن الربيع لن يعود».

«لا، لا أصدق هذا ـ أنا متأكد من أن الربيع سوف يعود».

كانت لا تزال في الغرفة الداخلية وتعذّر علي سماع ما كانت تفعله. بعد فترة هرعت إلى الخارج لا بد وأنها اشتمت رائحة الورق المحترق.

«ماذا تفعل؟» كان جسدها يرتعش وأسرعت نحوي لتحاول أن تنتزع من يدي ما تبقى من وريقات. دفعت بها جانباً بمرفقي: «وما برأيك أنا فاعل؟ هل ما زلت ترغبين في تحصيل بعض نقاط الاستحقاق؟»

فتحت عينيها واسعتين وراحت تحدق بي كما لو كنت رجلاً غريباً عنها. وفجأة خطت بعض الخطوات المترنحة وتراخت على الكرسي الصغير.

«لن تموت بشكل لائق يا زانغ يونغلين. إن رأسك هذا محشو

بالضلال ـ هل صدّقت حقاً أني كنت سأذهب للتبليغ عنك؟ أنا كائن بشري أيضاً».

راحت تفرك يديها بعصبية مؤلمة، شفتاها مشدودتان إلى الوراء وعيناها الحمراوان تحدقان في اللهب. فجأة انهمرت الدموع غزيرة من عينيها. أعرف أنك لم تكوني لتبلغي عني، ولكن عليّ أن أمضي بما أقوم به حتى النهاية. لأني أحبك، لا يمكنني البقاء معك. يتوجب عليّ أن أتسبب لك بألم كبير حتى تنتزعيني من رأسك.

«انتهيت!» حشرت آخر ورقة في الموقد.

«وانتهت قصتنا كذلك!»

٥

سار القرويون في جماعات من اثنين أو ثلاثة، في طريق عودتهم من عملهم حيث قاموا بنشر السماد في الحقول.

كانوا مفعمين بالنشاط، وكل الحيوية التي حرصوا على إخفائها طوال النهار عادت لتنبثق عند حلول المساء. اقتربت مني هي ليفانغ وبادرتني من وراء ظهري، بصوت انفجاري خافت: «سمعت يا لاو زانغ أنك وهوانغ كزيانغجيو تستعدان للطلاق».

«وما الذي تعرفينه أنت؟»

«بل وما الذي لا أعرفه؟» ضحكت كما لو أن المسألة تثير الضحك. «الجميع يعرفون. لقد جاءتنا هوانغ كزيانغجيو في ساعة متأخرة من تلك الليلة لتطلب منا، هاي ـ تز وأنا، التدخل لمناشدتك العدول عن قرارك».

«وما كان رد هاي ـ تز؟»

«لم يعرها أي اهتمام».

«وأنت؟»

«أنا أرثي لحالها».

كانت هي ليفانغ أرسلت ولدها الوحيد ليعيش في بكين ولم يعد لديها ما تفعله طوال النهار سوى التطواف حول الفرقة بحثاً عن الثرثرة والأقاويل. وفي بعض الأحيان، كانت تنطلق في الصباح الباكر من دون حتى أن تسرّح شعرها أو تغسل وجهها. كانت اهتماماتها منصبة كلياً على الأكل والشرب والعلاقات بين النساء والرجال.

«لماذا تريد الطلاق؟» ها هي تتبع الترتيب التقليدي المعروف في طرح الأسئلة.

«ولماذا عليّ أن أخبرك؟ في جميع الأحوال أنت لست أحد القادة».

ضحكت: «بيد أني، وفي جميع الأحوال، أعرف كل شيء حتى ولو لم تبح لي بكلمة واحدة».

«إذاً لا داعي لأن تسألي».

«آه من النساء!» رمقتني بنظرة مغناج وأضافت: «يا لاو زانغ، أنت في الواقع لا تفهم النساء. ليس مهمّاً كم ضاجعت من الرجال قبلك، فإن كزيانغجيو، في أعماق قلبها تحبك أنت وحدك، هل تصدقني؟»

لم أجب، تابعت السير وأنا أركز اهتمامي على الطريق أمامي.

«خذني أنا على سبيل المثال». بكل اندفاع وحيوية قلبت الحديث وحوّلته إليها: «أقول لك بصدق إني قد ضاجعت عدداً كبيراً من الرجال ولكن في أعماق قلبي أحببت رجلاً واحداً هو هاي ـ تز. هل تصدقني؟»

«أجل أصدقك». قلت.

«حسناً أوليس هذا رداً على كل تساؤلاتك؟» بدت وكأنما قد تأكدت من أن كل المسألة قد حلّت.

«ثمة أمر لا أفهمه. إذا كنت فعلاً لا تحبين سوى هاي ـ تز، فكيف تضاجعين هذا العدد الكبير من الرجال بحسب قولك؟»

لم يردعها هذا السؤال قط فقهقهت قائلة: «أنت لا تفهم النساء».

«أنت محقة. أنا لا أفهمهن» أجبتها مذعناً.

خلافاً للعادة في مثل هذا الوقت من السنة، كان النهار مشرقاً كمثل بدايات فصل الربيع. كانت السماء صافية، ما من غيمة واحدة تعكر صفاءها ولا حتى ذلك الضباب الرقيق الذي ينتشر عادة فوق الجبال. في البعيد، ثمة رقعة أرض صغيرة تنتشر فيها الصخور وكأنما متراخية في وادٍ يستلقي هانئاً بين الجبال. في مثل هذا الوقت من العام الفائت فكرت في نفسي، كنت هنالك أرعى الخراف، وها أنا هنا هذا العام أتناقش بأمر طلاقي.

عشر سنوات من الحياة الآلية مرت وكأنها يومٌ واحد وأشعرتني تغيراتها الكثيرة بالدوار. راودني مجدداً شعور بأن هذا العام كان حلماً. كل ما انقضى كان أشبه بالحلم وكل ما هو آتٍ يبدو لي أيضاً أشبه بالحلم...

«ورغم ذلك، فإنها امرأة من النوع الذي لا يستهويك». كانت هي ليفانغ تحاول إقناعي بأساليب غريبة.

«لماذا؟»

«أولاً لأنها غير قادرة على الإنجاب. ثانياً، ألم تسمع بالقول

الشائع إنه كلما أكثرت المرأة من الطلاق، ازدادت اشتعالاً، وكلما أكثر الرجل من الطلاق ازداد برودة؟ إن النساء اللواتي تطلقن مرات عديدة يفتقدن دائماً التوازن، على عكسي أنا طبعاً، وثالثاً...»

«اغربي عن وجهي». توقفت ورمقتها بنظرة عابسة وأنا أحاول أن أطردها بيدي». إذهبي في طريقك. وكفي عن إزعاج الآخرين».

«انظر إلى نفسك، إنك تستشيط غضباً».

لم تغادر وجهها الابتسامات والضحكات: «أريد أن أقول لك شيئاً، إن هذه المرأة...»

«هل سترحلين أم لا؟» أنزلت الرفش عن كتفي ولوحت لها به.
«أما في ما يتعلق بالنساء فأؤكد لك أني أفهمهن أكثر منك بكثير».

لم تشعر بذرّة من الإهانة وابتسمت لي ابتسامة عريضة قبل أن ترحل عني وهي تدمدم: «أرسل لك وردة...»

حسبت برحيلها أن الهدوء قد عاد إليّ ولكني سرعان ما سمعت من ورائي السيدة العجوز «ما» تقترب مني.

وكما عادتها، كانت تتأبط رزمة من الحطب. من خطواتها السريعة أدركت أنها كانت تحاول اللحاق بي. تنحيت إلى جانب الطريق ووقفت في انتظارها.

«أنا أتعذب. آه كم أتعذب!»

مثل الشخصية النسائية في أوبرا بكينية، تناهى صوتها إليّ في نغمات مرتفعة حيناً ومنخفضاً حيناً آخر، ولاحظت أن تعابير وجهها لم تكن لتخفي أي عذاب أو شدة على الإطلاق، إضافة

إلى أن التجاعيد التي زحفت إلى وجهها كانت تخبىء وراءها ابتسامات عديدة. كانت تمشي رافعة رأسها ونافخة صدرها وكان وقع خطواتها النشيط أشبه بقردة تضرب في الأرض. فكرت في القول الذي درجت على ترديده: «إن المرأة تسير ورأسها منخفض أما الرجل فيسير رافعاً رأسه. أيّاً تكن المشاكل التي يعاني منها المرء لا يجب عليه أن يظهرها أثناء سيره على الطريق».

لا شك في أن هذا القول كان لوصف الفوارق العامة بين أطباع النساء والرجال ولم يكن له أية علاقة على الإطلاق بالسيدة العجوز «ما»، ولكن إذا أرادت هي أن تفهمه على طريقتها فإن ذلك عائد إليها.

لقد عملت على تحليل مشاكلها الخاصة وشعرت بأن السعادة تكمن في غمرة هذه المشاكل بالذات.

«لاوزانغ، لماذا تريد أن تطلق كزياو هوانغ؟» لحقت بي وسألتني.

«لا تعودي إلى الموضوع. كفاني كل الناس الذين طرحوا عليّ هذا السؤال. إنه لمضحك فعلاً كيف أن الجميع باتوا يبدون رغبة جامحة في التدخل في شؤون الآخرين ومشاكلهم».

«إن الجميع قلقون بشأنك وهذا كل ما في الأمر». نظرت إليّ بهدوء وأردفت: «رغم أنك قد «أُلبست قبعة» فإن لا أحد ينظر إليك من هذه الزاوية».

«أنت على حق. إن الجميع يعاملونني بكل طيبة». أجبتها بصوت خفيض: «ولكن ما إن تظهر حركة جديدة حتى تتبدل كل الوجوه. يصعب على المرء خوض القتال حين يعرف مسبقاً أنه سيخسر.

بعد كل هذه السنوات، أدرك الناس ضرورة الحرص على حماية أنفسهم. أنت تعرفين جيداً أن كل الوجوه تتحول إلى مزاج القادة ومشيئتهم». زمت شفتيها وسألتني بمكر «وهل ستظهر حركة أخرى؟»

«أنت فعلاً تعيشين خارج الزمن». ابتسمت لها: «لقد ظهرت بالفعل وتدعى «مقاومة اليمينيين ونقض كل الأحكام الخاصة بهم». «هاي ماذا عن طلب الاستئناف الذي كنت بصدد كتابته؟ هل تلقيت رداً؟»

«لا، لحسن حظي أني لم أكتبه». بدت في عينيها سعادة مفاجئة وكأنها ربحت جائزة البطاقة الملونة.

«كما تذكر، فإن كزيانغجيو لم تتمكن من صياغتها بشكل مناسب وأنت أيضاً لم تكتبها بتاتاً».

طلبت من زيو رويشينغ أن يكتبها من أجلي آنذاك، ولكن ذلك التافه اكتفى بالهمهمة والتأجيل من يوم إلى آخر حتى أثار غضبي وقلت لنفسي «أنسي الأمر وتقبلي ما قد دبرته لك الحياة».

«عليك إذاً أن تشكري نجماتك السعيدة». قلت لها مهنئاً: «لو أعيد تأهيلك لكنت أصبحت اليوم مثالاً نموذجياً لكل الذين نقضت الأحكام الخاصة بهم».

«وماذا عنك أنت؟» أشارت إليّ بذقنها وسألتني.

«وهل ثمة نفع في كل ما أقوله أنا؟ حتى ولو لم أكتب رسالة استئناف فسوف يحكمون عليك «بنقض الحكم» الخاص بي. لقد تقررت كل لحظة في حياتي في هذا العالم وما من جدوى لمحاولة تغيير ما قرره قدري».

أطلقت تنهيدة وقالت: «مع أن الأمور كانت مستقرة طوال هذا العام».

ضحكت وأجبتها محذراً: «حاذري من أن يسمعك أحدهم تتفوهين بهذا. فإن الشعار الذي أطلق مؤخراً يستهدف تماماً ما قلته للتو. اتبعوا التعليمات الواردة في البرنامج المقرر لما أن الاستقرار والوحدة يقتضيان استمرار النضال الطبقي. يجدر بك الاحتراس...»

«اللعنة». مدت لسانها لتعبّر عن قرف «كيف يمكنك أن تشرح أمراً مماثلاً: الاستقرار والنضال في آن؟»

«ما عليك إلا أن تبحثي بنفسك عن حلّ لهذه المسألة». قلت.

«حسناً»، في هذه الحال، يجدر بك يا لاوزانغ العدول عن قرارك في هجر كزياو هوانغ». رفعت أصبعاً نحوي مشيرة إليّ بنصيحة تقتضي مصلحتي: «في حال وقعت في مأزق وتمّ إرسالك إلى السجن كما في العام ١٩٧٠، سوف يكون لديك من يرسل إليك الثياب والطعام».

«أن تكون للمرء زوجة لكي ترسل إليه الطعام إلى السجن...» إن هذا لزمن رديء يصعب تصديقه.

لقد نصحني زونغجي أن أتزوج لكي يتسنى لي كتابة مقالة مطولة؛ وها هي السيدة العجوز «ما» تتوسل إليّ للعدول عن الطلاق حتى يكون لدي من يرسل إليّ الطعام إلى السجن. تلك كانت مفاهيم العائلة السائدة آنذاك. حاولت أن أكبت ضحكة مريرة ولم أستطع.

«إذاً ما العمل؟» ضحكت السيدة العجوز «ما» هي أيضاً.

«إنها الحياة. اؤكد لك أن كزياو هوانغ كتب لها أن تعيش قدراً تعيساً».

«وكيف لك أن تعرفي ذلك؟»

«ألم تلاحظ»، أجابت السيدة العجوز «ما»، بنبرة توحي بالغموض والأسرار، «إن ثمة فوق فمها، بين أنفها وشفتها، خطاً رفيعاً؟...»

«لا لم ألاحظ ذلك». قلت لها وأضفت مازحاً: «هيا دعيني أرَ إذا ما كان على وجهك خط أيضاً...»

«أيها الوغد!» ضحكت ودفعتني عنها.

«كيف يمكن أن يكون على وجهي خط؟ لم أتزوج سوى مرة واحدة. هذا الخط نجده فقط على وجه من تزوجت مرات عدة». أجابت وفي نبرة صوتها ما يوحي بأنها تحسد كل اللواتي كان لهن هذا الامتياز.

تنهدت مجدداً وقالت: «على أية حال أنت رجل بلا ضمير وفي نهاية المطاف أنت وهوانغ كزيانغجيو تشكلان «ثنائياً كوارثياً»(*).

«ولماذا تعتبرين أننا نشكل ثنائياً كوارثياً؟ فنحن حين تزوجنا، وكما قلت للتو، كانت الحالة مستقرة نسبياً هل تذكرين؟»

«على أية حال، لا أزال عند رأيي بأنك مجرد من الضمير. لقد بذلت هوانغ كزيانغجيو جهوداً كبيرة لكي تؤمن لك الطعام وتخيط لك الثياب. أي ذنب يمكنك أن تحمّلها؟ هل نسيت لما كنت تتوجه إلى مدخل المائدة الجماعية متأبطاً كوب أرز، وتروح

(*) عبارة تعني أن الزوجين لم يلاقيا سوى الظروف الصعبة والحظ العاثر وهذه العبارة قد أصبحت شائعة في الصين.

تنتظر لقمتك مثل شحاذ بعد أن تكون قد تأخرت في العمل ونفدت كل حصص الطعام؟ ماذا عن الثياب المرقعة التي كنت ترتديها فتبدو أشبه بحمل يتساقط وبره؟ انظر إلى نفسك الآن». قاستني السيدة العجوز «ما» بنظراتها: «انظر كم أصبحت أنيقاً!»

نظرت بعينيها الحزينتين إلى البعيد وكأنها تفكر في قدرها الكئيب.

«أجل كيف لي أن أنسى؟» شعرت بحزن عميق أنا أيضاً وقلت: «لكني أؤكد لك أن سبب قراري هذا ليس لكوني مجرداً من الضمير أو لأني شيطاني، إنما لأنه عليَّ أن أفكر في نفسي قبل أي شيء آخر، أن كل الأمور باتت خارجة عن إرادتنا. لكي نستمر في العيش، علينا أن نفكر في أنفسنا».

كانت تجلس وحيدة في الغرفة الخارجية.

لم تكن خرجت إلى العمل منذ أيام. وكانت تمضي وقتها، إما نائمة وإما جالسة على الكرسي الصغير تحدق في الفراغ. تجمعت طبقة رقيقة من الغبار على مختلف الموجودات في الغرفتين. حتى بياض زجاجة الكريم الناصع فقد لمعانه. وكان يمكن للداخل إلى الغرفة أن يلاحظ على الفور أن لمعانها السابق قد خبا.

حتى خارج النافذة، كانت أشعة الشمس تبدو وكأنها منزعجة من ألوان الربيع.

رأتني أدخل ورمقتني بنظرة باردة وقاسية.

تحركت شفتاها مراراً ولكنها لم تتفوّه بكلمة واحدة.

كانت تكتفي بالجلوس هناك. بدا عليها الشحوب والهشاشة، وكمثل أي شيء آخر في الغرفة، فقدت إشراقتها هي أيضاً.

ألقيت نظرة عجلى على أنفها، بيد أني لم ألحظ أي خط بينه وبين شفتها ولكني اكتشفت أن صفاً من التجاعيد قد أضيف إلى جبينها، أشبه بخطوط البيانات أو بصف طويل من نقاط الاغفال. لزمني جهد كبير لأمنع نفسي من التوجه إليها لأهدىء من روعها وأداعبها: لما كنت أستعد لتكريس حياتي لقضية، لم يكن من الضروري أن أحمّلها ذكريات مريرة إضافية.

خلعت معطفي وغسلت وجهي. رفعت أكمامي لأوحي بأني أنوي تناول الصحن الفارغ من على الخشبة المخصصة للقطع لكي أعدّ لنفسي شيئاً من الطعام.

«هل تنوي إعداد ما تأكله؟ لقد حضرّت لك الطعام، ووضعته قرب الموقد هناك ليبقى ساخناً».

صمتت قليلاً قبل أن تضيف: «لا تقلق، ليس بمقدوري أن أسمّم لك حتى ولو كان قلبي أسوأ مما هو عليه».

فوق طبق الأرز الناصع البياض، كانت هناك بيضة بط مقلية.

في فصل الشتاء لم تكن الخضراوت متوافرة وذلك على عكس بيض الدجاج والبط التي يربيها المزارعون وهي عندهم أفضل أصناف الطعام التي يعرفون. قلت لنفسي، لا شك أن قلي هذه البيضة قد استلزم ليانغا كاملاً من الزيت. إلى جانب البيضة المقلية، كانت حضّرت بعض الخضروات المدمّسة وقد قطعتها قطعاً رقيقة. فوق لونها الأخضر الداكن كان يتوهّج لون رشة الفلفل الأحمر القاني. أثار اجتماع الألوان الثلاثة الرئيسة، الأحمر والأخضر والأصفر في نفسي حزناً وإحباطاً، فانقطعت شهيتي للطعام.

بعد زواجنا بمدة قصيرة، كانت السيدة العجوز «ما» تفاخرت بكزيانغجيو قائلة إن الزوجة الحكيمة هي التي تجيد تحضير

الخضروات المخللة. ولكنها اليوم قالت لي إنه كتب على كزيانغجيو أن تعيش «قدراً تعيساً». هل يا ترى أن «زوجة حكيمة» ورجلاً «مثقفاً» إذا ما اجتمعا معاً فإنه مكتوب على قدرهما أن يكون تعيساً؟ صعب عليّ ابتلاع الطعام. راحت عيدان الطعام تلتقط حبات الأرز، الواحدة بعد الأخرى. فهمت فجأة: كل تلك الأيام الفائتة، كانت تعطيني كامل حصتنا الهزيلة من الأرز، وتعتني «بالجنوبي» أشد اعتناء.

وبالرغم من أنه تمّ «إصلاحي وتنقيتي» من كل العادات الجنوبية لم يكن بوسعي إلا أن أرفع إليها نظرات الشكر والامتنان.

كانت لا تزال جالسة إلى جانب الطاولة، بظهرها المحني ويديها المثنيتين فوق حضنها كمثل لوحة زيتية رائعة لمايكل أنجلو. كانت أشعة الصيف المبكر تتسلل من النافذة لتحوطها بهالة فائقة الرقة والجمال.

راح المشهد وكأنما يصرخ إليّ من الأعماق: «عليك أن تتذكر هذا. عليك أن تتذكر هذا. في المستقبل، حين تستعيد هذه اللحظات سوف تستحوذ عليك مشاعر الحزن والألم التي ستثيرها هذه الذكرى الخاصة. عليك أن تتذكر هذا. احتفظ بكل هذا محفوراً في ذاكرتك».

عند المساء، توجهنا إلى السرير من غير أن نتلفظ بكلمة واحدة. بعد أن أطفأنا النور، تنهّدت فجأة وقالت: «إن هذا المنزل أوشكت نهايته. بت الآن متأكدة من ذلك. لقد اختفت اليوم بطاتنا ومعها الهر. إن هذه المخلوقات الصغيرة لهي حكيمة بالفعل. حين يواجه الناس المصاعب أو تكون العائلة على وشك الانهيار، تراها تشعر بالأمر قبل أيٍّ كان وتلوذ بالفرار باكرا».

بدا وكأن صوتها اخترق عتمة كثيفة وسواداً قاتماً قبل أن يصل إلى أذني. كان صوتاً قد صفّته العتمة من كل ألوان الأحاسيس والمشاعر فبدا بارداً وعارياً ومجرداً من الحياة. لو كان بمقدور الميت أن يتكلم لكان تكلم بمثل هذا الصوت. اجتاح الصقيع كل أنحاء جسدي. في هاتين الغرفتين كانت انتشرت قوة خارقة للطبيعة راحت ترفع، بروِيّة، ستارة الزمن الثقيلة لتكشف لنا لمحات مرعبة يخبئها المستقبل.

كتمت أنفاسي تحت الغطاء بانتظار كلماتها التالية بيد أنها لم تتفوه بكلمة واحدة إضافية.

بعد برهة، استجمعت شجاعتي وسألتها: «هل اختفت البطات والهر؟»

لم تجب.

«اختفت اليوم؟»

لم تجب كذلك.

«غريب!»

ظلت صامتة.

أصابني رعب شديد، بيد أني كنت لا أزال أسمع صوت أنفاسها الرقيقة وهي تحوم في أرجاء هذا المنزل الذي أوشكت «نهايته». بعد برهة، شرع إيقاع أنفاسها، مرتفعاً حيناً ومنخفضاً حيناً آخر، يطوف في الهواء كمثل نسيج عنكبوت يطفو في الهواء بعد أن يصفو الجو، وراح يلتف تدريجياً كمثل أفعى ليتحول إلى شعاع أزرق شاحب من الضوء. من النظرة الأولى، كان أشبه ببدر مكتمل، ولكن ما إن نمعن النظر إليه حتى يستحيل شبيهاً بفوهة

مسدس ضخم. في وسط دائرة الضوء تلك، هجعت عتمة يستحيل اختراقها. في طرفها، كانت رصاصة موجهة صوبي. أصابني رعب شديد ورحت أقاوم بكل ما أوتيت من قوة محاولاً الهروب، وأينما كنت أقفز كانت فوهة المسدس تلاحقني. فجأة تحوّلت إلى البطات التي فقدناها ورحت أنكمش وأتقلّص داخل عش البط. كان المسدس يسدّ طريقي، مصوباً إلى الزاوية حيث أختبيء. سوف أتحول إلى فأر! ما إن خطرت ببالي هذه الفكرة حتى تحولت بالفعل إلى فأر.

وبينما كنت أزحف مذعوراً باتجاه الجحر، رأيت جيشاً من الناس الصغار الحجم يندفعون منه. كانوا بحجم حبات فول الصويا وكانوا يحملون أعلاماً صغيرة ويرفعون رايات مكسوة بالشعارات. كانوا يندفعون خارج الجحر بصخب وفوضى ويترذذون كما الرصاصات في جميع الاتجاهات.

كانوا يصرخون بأعلى صوتهم فاتحين أفواههم الصغيرة المثيرة للشفقة. لم أتمكن من فهم ما كانوا يصرخون به فقلت لنفسي: إنهم تحولوا لتوّهم من فئران إلى رجال، ولذا فإن كل ما يقولونه لا يزال بلغة الفئران.

لم يلحظوا وجود الفأر الضخم حين مروا بهياج، جماعات جماعات، بالقرب من وجهي. ما لبثوا أن تواروا جيمعاً هاربين.

لم يبقَ سوى إنسان قصير القامة كان سقط على الأرض قبلي. كان وجهه متجهاً إلى الأعلى وأوصاله الأربعة تنتفض انتفاضاً. دنوت منه لأنظر إليه عن كثب واكتشفت أنه ليس إنساناً قصير القامة إنما طفل تخلّى عنه أهله. كان الطفل الذي رأيته يوماً إلى جانب الطريق بينما كنت متوجهاً إلى كزينجيانغ في العام ١٩٦٠.

كان وجه الطفل مغطى بالتجاعيد مثل وجه رجل عجوز حليق الذقن. راح يشهق بالبكاء ويصرخ: «أنا أرملة! أنا أرملة!»

ثم راح الطفل يتأكسد بفعل الدموع. اختفت أولاً عيناه ومن بعدها وجهه ثم شرع رأسه يذوب تدريجياً. وما تبقى منه كان مرعباً وشنيعاً.

وأخيراً ذاب كل جسده واستحال بركة صغيرة من المياه. شعرت بالبرد والبلل كما لو كانت قدماي تغرقان في سائل ما. أخفضت رأسي لأنظر وما شاهدته لم يكن ماء إنما انتشار بقعة هائلة من الدماء راحت تنشر رائحة كريهة كمثل رائحة مستنقع نتن. أردت أن أهرب من هذا المستنقع الدموي وما رفعت رأسي حتى بانت أمامي من جديد فوهة المسدس المعدنية الزرقاء. كان المسدس مصوباً إلى وجهي إلى ما لا نهاية...

ولم يكن أمامي إلا أن أندفع نحوه. وحين رحت أقترب منه شيئاً فشيئاً، كان هو ينكمش شيئاً فشيئاً ويذوب على مهل ليستحيل تدريجياً إلى عقدة على شكل دمعة منسكبة. استحال إلى أنشوطة حبل جميلة لماعة وسمعت صوتاً مرتفعاً يقول لي: «هذه هي نهايتك! هذه هي نهايتك!»

استيقظت مذعوراً، ولكن خيّل إليّ أن الصوت لم يتوقف عن الترديد: «هذه هي نهايتك، هذه هي نهايتك!...»

أمام عيني، كان الحبل المعقود لا يزال معلقاً في وسط العتمة. أثقلت الأغطية على عنقي لتشعرني بأني شنقت نفسي. رميتها عني بحركة عنيفة وعدت لأستلقي صامتاً، من غير حراك، وأدع الحلم المرعب يزول عني تدريجياً. سمعت مجدداً أنفاسها الرقيقة تنسكب في عتمة الليل كمثل شبكة عنكبوت، كما لو أنها لا

تملك مكاناً آخر لتتسلل إليه. كانت أنفاسها حميمة حتى ليطيب للمرء أن يستمع إليها وإلى دقات قلبها. كزيانغجيو! أود لو آخذ كل أنفاسك لتمتصها رئتاي. دعيني أحملها معي إلى أطراف الأرض، حتى لتخترق روحي. دعيني أحملها معي إلى آخر الدرب، إلى أن أرمي بنفسي في النهاية المقدرة لي، إلى أن أتحول إلى رماد. تناول لويو زونغكي من الدرج عدداً من الأوراق البيضاء ووضعها أمامي.

«لديك أفكار غريبة بالفعل...» قال وهو ينظر إلي ويغرق، متكاسلاً، في كرسي من الروطان. كان الإرهاق الشديد بادياً عليه. «أنا هنا بصفتي عضواً في الحزب - كيف لي أن أعطيك الإذن وأختم ورقة بيضاء بختم رسمي؟»

رغم ذلك، رأيت الأختام القانونية تُطبع على أعلى يمين الأوراق، الواحدة بعد الأخرى، وكانت أختام المزرعة التي كان لويو قائدها. بأختامها الحمراء، كانت هذه الوريقات البيضاء تتخذ أهمية غير اعتيادية.

تناولتها من على الطاولة وطويتها بتأن ودسستها في جيب سترتي الداخلي.

وقلت له بلهجة العارف «ومن الذي سيخطر بباله أنك أنت من زودني بها على أية حال؟

إن جميع الناس يتنقلون هذه الأيام في كل الأرجاء والرسائل المماثلة منتشرة في كل مكان، حتى أنه بإمكاننا أن نلتقطها من على الطرقات».

لم يتغيّر منزله قط عما كان عليه منذ عام حين جئت لزيارته. المطبخ الذي شيّده بدأ يتداعى وقشّات القمح تطل برؤوسها من

الجدران الترابية المشبّعة بمياه الأمطار الغزيرة. الغرفة الكبيرة بدت كئيبة وبائسة أكثر من ذي قبل. على حائطها الشمالي علّقت صورة «زو أينلاي» الذي توفي مؤخراً، التقطها له صحافي إيطالي، وقد لفّت كمثل تابوت بقماش قطني أسود. الأريكة التي صنعها بيديه غرقت مقاعدها وصار الجلوس عليها أشبه بالسقوط في حفرة. هزل عن العام الفائت وشاب الشعر على صدغيه كلياً.

كان صرير الكرسي الذي يجلس عليه يزيد من كآبة المكان، وبالرغم من أن الوقت كان ربيعاً، بدا كل شيء بارداً. بعد أن انتهى من تسوية الأعمال المذكورة آنفاً، قال: «إن الرسالة التي بعثتها لي استغرقت خمسة أيام قبل أن تصل. لماذا يا ترى استغرقت كل هذا الوقت والمسافة لا تتعدى الثلاثة عشر ميلاً؟ لقد تفحصت المغلف جيداً خشية أن يكون أحدهم فتحها». قطب جبينه ثم أطلق ضحكة حزينة وقال: «كوني قائد هذه المزرعة، لا يغير الواقع، فأنا في قلق وحذر دائمين، تماماً كما حين كنت لا أزال في السجن...»

«إننا لم نخرج قط من السجن، في جميع الأحوال».

«هذا صحيح». أخذ نفساً عميقاً وأضاف: «خلال هذه السنوات الأخيرة، حتى فمي تعلم كيف يستشم الأمور: وكل ما تنبأ لي به من سوء قد حدث بالفعل. أما الأشياء الجميلة، ففي الواقع، لم أشهد حدوث أي منها. هل تذكر ما قلته لك في مثل هذا الوقت من العام المنصرم؟»

«وكيف لي أن أنسى؟ لقد حصل كل شيء بسرعة كبيرة».

«أوتعتقد أنه حصل بسرعة؟ على العكس. أشعر بأن كل شيء قد سار ببطء شديد. طوال هذه السنوات، كانت بلادنا أشبه

بحجر يتدحرج على التلة، وكلما تراها اقتربت أكثر من المستقبل، ازدادت سرعتها أكثر. يبدو لي أنها أوشكت أن تصل بتدحرجها إلى النهاية».

رفع رأسه وتحرك أنفه كما أنه اشتم رائحة انبعثت لتوها. لمحت في عينيه نظرة من عانى عذابات كبيرة، نظرة إنسان حمله اليأس إلى حدود ما بعد نهاية الأمل، فهمت مشاعره.

«لقد أوشكت النهاية أن تقترب» قلت.

«لا أنفك عن التفكير بأن ثمة حركة سياسية أخيرة سوف تظهر، حركة تنتمي فعلاً إلى الشعب».

«وهل ثمة من حركة تنتمي إلى الشعب؟» تحرك في كرسيه والقلق لم يفارق محياه. «طوال سنوات عديدة كنا جماهير تتحرك» في ما درجوا على تسميته «حركات الجماهير».

حركة تنتمي فعلاً إلى الشعب؟ لسوف يسارعون إلى تصنيفها «بالحادث العرضي المعارض للثورة». إذا كنت لا تصدقني فما عليك إلا الانتظار لترى ماذا سيحصل».

«ليس مهماً ذلك التصنيف الذي سيسارعون إليه وليست مهمة تسمية الحركة بأي نوع من أنواع الحوادث العرضية؛ إنه محتم أن تكون للشعب في نهاية المطاف، حركة حقيقية تخصه وحده».

انطلقت في الكلام على ما كان يهتاج في رأسي طوال الأيام الأخيرة. «لقد توفي الرئيس زو وطرد دينغ زياوبينغ من منصبه. وطالما أن حركة «معارضة اليمينيين ونقض الأحكام المتعلقة بهم» مستمرة وما من شيء يردعها، فإن «الديمقراطيين» أمثالك سوف يستسلمون الواحد بعد الآخر.

لقد تمزقت الشاشة من أمام أعين الشعب؛ وإذا لم ينتفض الشعب الصيني وينتصب ليتكلم، إذا لم يتقدم إلى خطوط المقاومة الأمامية، فلسوف يتم تجريد بليون نسمة من حقها في العيش على الكرة الأرضية. لسوف نكون الجنس البشري الأكثر غباءً والأكثر ضعفاً والأكثر جدارة بالازدراء على هذه الأرض».

بالكاد تمكنت من كبت الدموع في عينيّ. «إنهم يتلاعبون بنا منذ ما يقارب العشرين عاماً ويستخدموننا في تجاربهم كمثل الخنازير الهندية. لقد خُدعنا ودُبرت لنا المكائد والحيل. هل يعقل أننا، بعد فشل التجارب وبعد أن أصبحنا على شفير الموت، بتنا نفتقد الشجاعة حتى لنصرخ ونقول: «إننا نتألم؟» إن الشعب الخدر، العاجز حتى عن الصراخ والإعلان عن ألمه، لهو شعب الأفضل له أن يموت».

كاد حلقي يختنق من الانفعال بينما أنا جالس في حفرة الأريكة التي صنعها بيديه.

جلس هو أيضاً بلا حراك ولا كلام وخيّم الصمت لبرهة على الغرفة التي ظلت ترتعش بذبذبات الانفعال.

ثم قال بهدوء: «حسناً ما الذي تنوي فعله؟ الرحيل؟ ترحل إلى أين؟»

«لم أضع بعد مخططاً دقيقاً لما أنوي القيام به».

هدأ روعي ثم قلت بمرارة: «في زمن الشواش هذا، حتى الوطن نفسه لا يملك خطة فكيف يمكن لفرد أن يمتلك واحدة؟ أعرف فقط أني لن أستطيع الاستمرار في العيش هنا. ثمة ما يربطني «باليمينيين» و«بنقض الأحكام» في آن، وفي حال استمرت الحركة

في تصاعدها، فلسوف أكون أول من يرمى به في السجن مجدداً تماماً كما حصل في العام ١٩٧٠.

أن ندع النار تأكلنا في السجن على مهل لهو أسوأ بكثير من أن ننفجر في انفجار ضخم نهائي.

«ثمة أمر آخر ـ أنت تعرف أني عندما خرجت من مخيمات العمل في العام ١٩٦٨، توجهت كالمغفل لأبحث عن مكان ما يدعى «مركز ليو ودينغ الرئيس». ومن ثم كان مقدراً لمحاولاتي أن تبوء بالفشل. واليوم، إن لم تسارعوا أنتم «الديموقراطيين» إلى الالتفات نحو الشعب لحشده وتنظيمه، أو على الأقل لمساندته، فلسوف يتكرر كل ما حصل في الماضي، وأنتم جالسون مكتوفي الأيدي بانتظار حلول الكارثة. سوف تعودون إلى السجن على حين غفلة، لتستجدوا الرحمة وغفران كل جرائمكم، بأردافكم إلى الأعلى ورؤوسكم منخفضة. وماذا بعد، سوف يكون الذنب ذنبكم».

رفع أصبعه وأشار إليّ محذراً: «إياك أن تكتب أشياء مماثلة عنا. على الأقل، لقد فعلت ما بوسعي لأهوّن الأمور عليك».

«هذا صحيح، ولهذا السبب، أنا متأكد أنه في هذه اللحظة بالذات، وفي كل أرجاء الصين، ثمة أناس مجتمعون ويتناقشون مثلنا نحن تماماً».

من المستحيل أن نشكل وحدنا ظاهرة لا مثيل لها: واحد من أعضاء الحزب الشيوعي يجلس إزاء يميني ويتحادثان بشأن أمور الساعة؛ كلٌ منهما قد سار على دربه الخاص لمدة أكثر من ثمانية عشر عاماً. ولكنهما في نهاية المطاف، سوف يدركان أن تجاربهما كانت متشابهة. ها نحن، مثلاً؛ نتناقش بأمور شتى وتراودنا

مشاعر وأحاسيس واحدة. إن التاريخ هو الذي دبّر كل هذا وكيف عساك أن تفسر ما يحصل بغير ذلك؟ أنا متأكد بأن ثمة حركة تتأهب للظهور في الصين، في هذه اللحظة بالذات، وهي حركة تنتمي فعلاً إلى الشعب. أنا مقتنع أيضاً بأن وحده هذا النوع من الحركات السياسية سوف يقدم للبلاد وللحزب فرصة ذهبية لانطلاقة جديدة مثمرة.

تحولت نظرة عينيه العميقة فجأة إلى نظرة تنبّه إلى الخطر:

«هل أجريت التحضيرات اللازمة؟ هل لديك معارف واتصالات...؟»

«لا ليس لدي أيّ منها». كانت إجابتي سريعة ومباشرة.

«ومن عساني أعرف؟ لقد بذلوا جهوداً هائلة، إبان العقدين الأخيرين، لكي يحولوا دون نشوء علاقات جديدة بين الناس، لا بل عملوا أيضاً على تشتيت كل الروابط التي تجمع بينهم. وبرأيي أن هذا هو الجرم الأفظع الذي ارتكبوه. لقد دمروا كل معاني الثقة التي تميز العلاقات بين الناس. وعوض أن يعملوا على توطيد النوايا الطيبة في النفوس وتنمية روح التعاون بين الشعب، تراهم حولوا الناس إلى حيوانات ضارية. وحدها حركة من وسط الشعب قادرة على إعادة توطيد العلاقات الطيبة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

إذاً، لا تقلق بشأن الاتصالات التي قد أجريها والمعارف الذين قد اتصل بهم. أنت نفسك كنت في داخل الثورة لأكثر من عشر سنوات ـ هل مازلت اليوم على اتصال بزملاء السلاح القدامى؟

هل بمقدور أحدكم أن يبوح للآخر عما يدور في خلده؟»

«لا» أقرّ قائلاً: «ما إن يرحل الزائر حتى يبرد الشاي أليس هذا قولاً مأثوراً؟» أخذ نفساً عميقاً وأضاف: «لكن هذا لا يعني أن

الاتصالات كانت مقطوعة بيننا نهائياً، بيد أنها كانت تقتصر على الأخبار الشفهية التي يتناقلها المسافرون.

قد تمضي سنوات عديدة، على سبيل المثال، من دون أن تسمع خبراً واحداً عن أصدقائك، ومن ثم يعبر فجأة أحدهم ليخبرك عما يحصل معهم وعن كل المشاكل التي تعترضهم».

شعر كلٌّ منا بقشعريرة باردة تخترق جسده.

كنا نعيش في أرض ممتدة حولناها بأيدينا إلى صحراء. وراحت الصحراء، بالمقابل، تمارس ضغطها علينا.

وبالرغم من ذلك، وسط هذا المكان اليائس، وفي تلك اللحظة بالذات، سمعنا أحدهم ينطلق في غناء منفرد تناهى إلى مسامعنا خلف جدار حديقته الصغيرة: «الرياح الشرقية، تهب، طبول الحرب تقرع، في هذا العالم من تراه يخاف ممن؟...»

رحنا نصغي مذهولين، كما لو كنا نفتش عن تنوير ما في كلمات هذه الأغنية، بيد أننا لم نعثر فيها على أي وحي. في تلك الأيام، كل صوت كان يصدح في أغنية عالية أو في صراخ عال، كان صوتاً بلا معنى، كان صوتاً مكتوماً فارغاً.

بعد برهة من الصمت، تابع لويو كلامه: «ما تفكر فيه لن ينتهي على خير... لأنه...»

رفع أصبعاً إلى الأعلى: «لأنه لا يزال هناك. لن يتغير شيء، طالما أن الرجل العجوز لا يزال على قيد الحياة».

«فهمت». اتكأت على ظهر الأريكة وقلت: «لقد سأل الرئيس زو مرة: كم من الحظوظ تصادف حياة إنسان وتتيح له فرصة مناسبة لمقاومة مشكلة تعترضه؟ في هذه اللحظة، كل شيء يشير

لي بأنه يتوجب علي المقاومة. بإمكان الآخرين أن ينتظروا. وأنا أيضاً، لكنت مستعداً للانتظار، بيد أني بت لا أشعر بالأمان حتى في منزلي ليلاً. إن الهراوى سوف تضرب قريباً داخل كل بيت. كيف لي أن أنتظر؟ إذا أردوا الإمساك بالديمقراطيين أمثالك، عليهم أولاً تحضير الملصقات بأحرفها الضخمة ومن ثم حث الجماهير وإثارتهم لفترة من الوقت، ومن بعدها عليهم أن يدبروا «حادثة» ما قبل أن يسارعوا إلى كتابة عدد من المقالات الصحافية التافهة... أما لو أرادوا الإمساك بي، فما من ضرورة لأي من كل هذه الأمور. جلّ ما يحتاجون إليه زوج من الأصفاد ولسوف أجد نفسي في السجن ين ليلة وضحاها. طوال كل هذه السنوات، استخدم أمثالي كغطاء لأمثالك. لقد حاربنا نحن في خطوط المعارك الأمامية التي تخصكم أنتم».

كان لا بد للويو زونغكي أن يوافق على ما أقوله. «هذا ما يسمّى التخلص أولاً من الدفاع الخارجي». ضحكت معه. «بإمكانك أن تسميه أيضاً تفكيك ما تدعوه أنت «الأسس الاجتماعية». طوال السنوات العشر الأخيرة، تشرفت أن أكون ممثلاً «للأسس الاجتماعية» الخاصة بكل أنواع الناس. في البداية، كنت بمثابة «الأسس الاجتماعية» لمركز ليو ودانغ الرئيس» ثم لحادثة ١٦ آذار. وفي ما بعد، أصبحت بمثابة الأسس الاجتماعية لكل من لين بياو وكونفوشيوس. واليوم ها هو التاريخ يعيد نفسه. جاء دور «نقض الأحكام المتعلقة باليمينيين» وبات من السهل أن أصبح «الأسس الاجتماعية» لدينغ كزياوبينغ.

لحسن الحظ، أن ظهري قاسٍ وسميك كمثل ظهر السلحفاة، وإلا لكانت سحقتني الأقدام منذ زمن بعيد. ما إن تفوهت بكلمة

سلحفاة حتى قفز قلبي من مكانه واحمرّت وجنتاي. ولحسن الحظ أن زو جوشون قد دخلت علينا في تلك اللحظة بالذات، حاملة صينية ودعتنا لتناول العشاء. كان القلق يشوب محياها كما لو أن زوبو زونغكي معرّض في أي لحظة لأن يرمى في السجن مجدداً.

تعابير وجهها قد فقدت السعادة التي كانت عليها في العام الفائت وبدت وكأنها تعيش في خشية دائمة حتى من إصدار أي صوت.

لم يكن قد حصل شيء في الواقع، لم يكن قد حصل أي شيء بعد، ولكن الجرائد والإذاعات كانت تعمل على نشر الأجواء المسممة داخل كل المنازل.

وكان ذلك يضع الرجال في حالة إحباط والنساء في حالة هلع وخوف. أكلت الزلابية من دون أن أتذوق طعمها وأطرقت مفكراً: «أنا محق في قراري».

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، رفعت زو جوشون المائدة وسألتني بنبرة قلقة: «إذا كنت ترغب في الرحيل فارحل ولكن لماذا عليك أن تطلّق؟ هل هي السبب؟...

«إنها طيبة معي» أجبت بسرعة. لم يكن بوسعي أن أقول عنها سوءاً، ولم أشأ أن يتساءل الناس عن عيوبها. حاولت أن أبحث عن الكلمات المناسبة وأجبتها: «بعض الأزواج يصلون إلى الطلاق، لأن مشاعرهم ليست بالقدر المطلوب. وآخرون يصلون إلى الطلاق. لأن مشاعرهم في منتهى التعقيد. حتى ولو لم أرحل، فإننا بدون أي شك كنا سنصل إلى الطلاق. إن الأزواج الذين يشيخون معاً يملكون المقدار المناسب من المشاعر والأحاسيس».

في الخارج، انطلق الرجل الذي كان يغني في غنائه من جديد.

كان يغني «أغنية ثورية» أخرى. هذا رجل سعيد، فكرت في نفسي.

بحدسها الأنثوي، فهمت زو جوشون ما عنيته ولم تطرح علي أسئلة أخرى. أما لويو زونغكي فلم يتمكن من فهمي بيد أنه لم يسأل هو الآخر. حين بدأت ألاحظ انقباض مزاجنا، شعرت بأن الوقت قد حان لرحيلي.

«أنا ذاهب» قلت.

بذل لويو زونغكي جهداً كبيراً ليسحب نفسه من كرسي الروطان ونجح أخيراً في الوقوف. بدا وكأنه ظل مستغرقاً في أفكاره. كان رأسه في مكان آخر وكانت عيناه تائهتين. بعد وهلة شعر بارتباك ومد إليّ يده.

صافحته عليه وشعرت بكفه رطبة وساخنة ـ لعله كان فعلاً يعاني من مرض ما.

«أجل لقد حان الوقت» قال.

مشينا إلى الباب الأمامي: «وأدرت رأسي وأومأت إلى زو جوشون: كان هذا وداعنا الأخير. وقفت في وسط الغرفة مستخدمة دفء عينيها لترافقني إلى الباب. ألقيت نظرة أخيرة على أرجاء الغرفة. هذا البيت وهبني الصداقة ومكاناً أستطيع أن أتكلم فيه بكل حرية ومن دون أي خشية من التحقيق أو التوقيف. شعرت أنه قد لن يتسنى لي العودة إليه بعد اليوم.

رافقني لويو زونغكي إلى الحديقة الصغيرة. عند حافتها، خلف ممر ضيق، كان ينتصب صف من شجرات الحور وكأنما ليحرسنا. كانت الشجرات تلتمع بلحائها الفضي وتموجاتها الخضراء.

في الجانب البعيد من صف أشجار الحور، كان الطريق العام المصنوع من الحجارة المسحوقة. كنت أسلك هذا الطريق في عودتي إلى الفقر.

«لاو زانغ، أود أن أعطيك هذه». نظر في جميع الاتجاهات ليتأكد من عدم وجود أحدهم في الجوار. تذكر فجأة وخلع الساعة من معصمه.

«هذه الساعة لا تزال في أحسن حالاتها. سوف تحتاجها بلا شك حين تصبح هنالك في البعيد».

أخذتها من يده، كان عقرب الثواني يسير بسرعة متناهية كما لو أن ثمة من يلاحقه.

هذه الساعة سوف تكون مفيدة للغاية. إن حياة الفارين تقررها في الغالب مسألة ثوانٍ قليلة.

لم أرفض هديته ودسستها في جيبي الداخلي مع أوراق الرسائل البيضاء.

«أشكرك» قلت.

لوّح بيديه مدمدماً: «تشكرني على ماذا؟ يبدو وكأن كل شيء سوف يعتمد على الوقت لإيجاد الحلول المناسبة. في حال واجهتك أي مشاكل، يمكنك أن تراسلنا».

«سوف أفعل». قلت «هذا إذا ما كنت لا أزال قادراً على الكتابة».

سرت في الطريق لمسافة ستة أميال تقريباً من دون أن ألتقي بآلة نقل واحدة. مرت بي في الاتجاه المعاكس بضع عربات واكتفى سائقوها بالتلويح بأسواطهم ورأيت في وجوههم النكد والكآبة.

كانوا ينقلون الآجر إلى المدينة وكانت ألواح العربات الخشبية مكسوة بغبار الآجر الأحمر.

تابعت المسير وأصبح بوسعي الآن رؤية نهاية الطريق، عند نقطة صغيرة سوداء تحت زرقة السماء.

تلك كانت المدينة الصاخبة: مدينة باتت اليوم تعلن الحرب حتى على سكانها. كانت أولاً تستخدم الكلام والكتابة ومن ثم يأتي دور الهرواى لتلجأ أخيراً إلى الرصاص. إلى الشمال، توارى الطرف الآخر من الطريق، وسط المساحات الصحراوية مثل نهر تفرّع إلى قنوات عديدة، قبل أن يفقد كل أثر للنقطة التي انطلق منها. على جانبي الطريق الرئيسي، كانت آثار أقدام بشرية تمتد في القفر. مشيت بمحاذاة قناة جافة ثم غيّرت وجهة سيري باتجاه إحدى خطوط هذه الآثار التي تقود إلى فرقتنا.

السهول المعشبة كان أتلفها أولئك الذين «تعلّموا من دازاي». في المساحة المنتشرة أمامي، كانت الحقول المهجورة تمتد في كل الاتجاهات وقد باتت تغطيها طبقة سميكة من الملح فبدت وكأنها حقولٌ ثلجية متسخة أو أشبه بيتامى يرتدون ثياب الحداد.

عواصف عديدة قد شهدتها هذه الحقول منذ أن هُجِّرت، ولكن آثار الأخاديد كانت لا تزال بادية على بشرتها. هنا انهالت الأسواط على الطبيعة والإنسان في آن: «التعلم من دازاي» كان قد تسبب في ولادة هذه الأرض القاحلة التي لن تنبت على سطحها القلوي بعد اليوم عشبة واحدة. هبّت نسمة ربيع رقيقة قادمة من ضفاف النهر الأصفر. حين وصلت إلى هذا المكان، تحولَتْ فجأة إلى أنين، ترثي لحال هذه الأرض التي استحالت خرائب بعد أن كانت سهولاً خضراء ممتدة. هذا ما قد حصل لأرضي.

ما وراء حقول الملح، كان يستلقي مستنقع جاف، تفصل بينهما بقعة من الأرض الرملية. جذور بعض الأعشاب الشديدة القدرة على الاحتمال كانت تحيط بها تلال رملية صغيرة تروح تعلو بينما الرياح مستمرة في هبوبها حتى لتطرد كل أثر للحياة الخضراء.

هذه الأرض لم يكن أمامها خيار آخر: كان الاخضرار يتقهقر والحياة نفسها كانت تختفي وتنسحب مهزومة واهنة. كان الربيع قد عاد إلى الأرض بيد أنه لم يجد في هذا المكان موطئاً لقدميه. تابعت سيري إلى ما وراء الحقول والأرض الممتدة التي تحولت إلى رمال. كانت قدماي المتمرستان اعتادتا المشي بين الكثبان المتحولة. عند الولادة، كانت هاتان القدمان بيضاوين وطريتين حتى أن الأحذية كانت قاسية عليهما، وكانتا تدفآن بين كفيّ يدي أمي. اليوم اعتادتا على المشي عاريتين على الحصى والشوك، على أراضي الملح التي بدأت تختبىء من الناس.

إلى الجانب البعيد من حقول الملح والسهول الرملية، كانت تمتد حقول القمح. وكان يمكن للناظر إليها من بعيد ملاحظة بداية التقلية على حفافي هذه الحقول حيث نباتات القمح كانت مشتتة وضعيفة.

كانت تلك هي الحدود بين الحياة والموت؛ حدود المواجهة بينهما من دون مطلق ما يشير إلى من سيكون الرابح ومن سيكون الخاسر. على بعد مسافة قريبة، كانت نباتات القمح تضج حيوية ونضارة.

على جانبي الحقول، نمت طبقة سميكة ناعمة من العشب. لم تكن الأرض بحاجة إلى الري في فصل الربيع وهي كانت بطبيعتها

رطبة وخصبة. في فصل الربيع الفائت، سلكت هذه الدرب في طريق عودتي إلى الفرقة. كان المشهد مطابقاً لما رأيته اليوم: بدا لي وكأن كل ما حصل خلال هذا العام كان من صنع خيالي.

في الماضي، حين كانت تصادفني نكبات مفاجئة وعصية على الفهم، كنت أحلم أحياناً بقلب مرور الزمن.

كنت أتمنى أن تتاح لي فرصة البدء من جديد، عند نقطة معينة، وكنت على ثقة من أن الأمور ستكون أفضل مما هي عليه، بعد أن عرفت السبيل إلى مواجهتها، لكنت قمت بأشياء أكثر حكمة بغية تحاشي الكوارث الممكن اجتنابها وبذلت ما بوسعي لأتهيأ لمواجهة الكوارث التي لا مفر منها.

عندما أنظر إلى الوراء كنت لأتساءل: هل كنت سأرغب في تجنّب ما حصل خلال العام المنصرم؟ لا، لكنت قمت بما قمت به تماماً. حتى ولو أن ثمة سحراً أسود أتاح لي أن أبدأ من جديد، لكنت عدت إلى الغرفة كما أفعل الآن، لأسألها أن تتزوجني.

ذلك العام الفائت، كان الأجمل في حياتي القصيرة. وقد أنبأني حدسي بأن تلك اللحظات الجميلة لن تتكرر في المستقبل.

لن أتعرّض بعد اليوم لكل ما تعرّضت له من إذلال وآلام ولكني لن أعرف كذلك سعادة مماثلة. هذه الانفعالات والمشاعر القوية لا تصادف الإنسان سوى مرة واحدة في حياته.

تابعت سيري بخطوات طويلة وثقيلة.

لدى عودتي، سوف أنال الطلاق. مثلما قدّر لنا أن نتزوج، كتب علينا أن نفترق.

يا أرضي، يا أرضي المالحة، يا جنتي الرملية، يا سهولي المكسوة

بالراسب الطفالي، سوف أرحل عنك قريباً مثلها سحقك الرجال بأقدامهم وأحدثوا فيك الخراب. بيد أنك كنت تتمددين تحتهم وتهبين نفسك لهم بملء إرادتك. لم تكوني وفية لي، لقد خدعتني وعاقبتني. أنت مستنقع جاف: كم من العرق ذرفته حتى أغذّيك وقد امتصصته من دون أن تتركي لي أثراً.

أنت بشعة، أنت شريرة ولكنك أيضاً تمتلكين جمالاً أقرب إلى الصوفية. أنا ألعنك وأحبك أيتها الأرض الشيطانية، وأيتها المرأة الشيطانية.

لقد امتَصَصْته عرقي ودموعي، وغيّرتِ روحي أيضاً: من الآن وصاعداً لم يعد لديّ ما أهبك إياه من حب.

تابعت سيري. غرقت دمعتي الأخيرة في أرض الربيع تحت قدميّ.

7

اقتباس من أقوال الرئيس ماو
«المقاومة بوعي وصدق ـ النقد ـ التحويل».

طلب

منذ زواجهما في العام المنصرم، لم يتمكن المزارعان زانغ يونغلين وهوانغ كزيانغجيو من تحقيق التناغم والانسجام، إنْ في حياتهما اليومية أو في مشاعر واحدهما للآخر. وإذا ما استمرت هذه الحالة، لسوف تتسبب في إلحاق الأذى لإنتاجية الفرقة ولسوف تكون سلبية أيضاً في ما يتعلق بتحويل الفردين.

وبعد أن تشاورا حول هذه المسألة، وصل الزوجان إلى اتفاق نهائي يقتضي طلاقهما. إنهما يتعهدان من الآن وصاعداً ببذل جهود أقوى للمساهمة في بناء القواعد الاشتراكية وتحويل الفرد. نقدر اهتمام القادة وموافقتهم.

بكل احترام

زانغ يونغلين

هوانغ كزيانغجيو

نيسان/أبريل ١٩٧٦

وضعت هذا الطلب أمام أمين السر كاو كزوي.

شرع يحدق فيه متحاشياً النظر إلى عينيّ، ماضغاً شفتيه ومقطباً جبينه. شرع يقيس الطلب بنظرته وهو لا يدري بماذا يجيب.

لم أنتظر دعوته للجلوس، وسحبت كرسياً صغيراً بلا ظهر وجلست قبالة مكتبه. أسندت ظهري إلى الحائط وأشعلت سيجارة. لم أكف لحظة عن التحديق في عينيه. خلع قبعته العسكرية الخضراء وراح يحك شعره الذي بدا أشبه بفرشاة تنظيف، ثم عاد واعتمر القبعة. راحت إحدى ساقيه تهتز لتصيب جسده بارتعاشة جانبية. لامست يده زجاجة الحبر ثم أخذت تعبث لهنيهة بالورقة أمامه. تناول القلم، ولما حسبت أنه سيوقع اسمه، عاد ووضعه على الطاولة.

«لقد سمعت بالأمر، سمعت...» أخذ يدمدم أخيراً.

«ممن». سألته بنبرة عدائية «هل أخبرتك هوانغ كزيانغجيو؟»

«لا، قطعاً لا». أجاب بسرعة «إن الأخبار تنتشر بسرعة في هذه البلدة، هذا كل ما في الأمر». مكثت صامتاً بانتظاره.

خلته سوف يثير المشاكل ويضع أمامي العقبات بسبب استخدامي لعبارة ماو، المتضاربة والمتنافرة مع المسألة برمتها، بيد أنه لم يلحظ قط تلك الزاوية.

لو كان سيثير الموضوع، كنت مستعداً لأن أطلب منه مشورة وأسأله أي اقتباس عن الرئيس ماو كان ملائماً لرأسية طلب الطلاق؟ قبل أن أغادر الفرقة، أردت أن تسنح لي الفرصة على الأقل لأعبث بالهستيريا السياسية القائمة. وقلت لنفسي بأنهم إذا ما جاؤوا لتوقيفي أكون قد صرت بعيداً.

بيد أنه لم يمنحني الفرصة لأسترجع شيئاً من رجولتي.

في الخارج كان شفق المساء يقترب.

مرّ ظل أحدهم بالقرب من النافذة ورفع كاو رأسه لينظر. من الواضح أنه كان يأمل قدوم أحدهم ليقاطعنا، ولكني كنت قد اخترت وقتاً يكون فيه الجميع في العمل. حتى هوانغ كزيانغجيو كانت تعمل في الحقول.

«هل يعقل... أن يأتي أحدهم ليتوسط في تسوية خلافكما؟» أمسك الورقة بإحدى يديه وأحنى رأسه وسألني بتمهل.

«ومن برأيك سيأتي ليتوسط؟» أجبته سائلاً «أوتعتقد أن ثمة من سيأتي من المركز الرئيس؟»

تنبّه إلى معنى هذه العبارة المتعمدة وقال معترضاً:

«ما من ضرورة لأن يأتي أحد من هناك ـ إن أي رجل من فرقتنا سوف يفي بالغرض. أليس كذلك؟ ما رأيك بهاي ـ تز؟»

«أعتقد أنه من الأفضل عدم توريط الغرباء في المسألة». قلت ببرودة.

«آه، حسناً، حسناً... وبحسب القول الشائع إن موظفاً رسمياً مستقيماً يعجز حتى عن تسوية النزاعات العائلية».

رغبت في أن أتناول زجاجة الحبر وأرمي بها على وجهه المربع الداكن. كان ذلك شعوراً باندفاعة خاطفة، لم ألبث أن شعرت من بعدها بالخجل من جبني. أن أعلن بكل صراحة عما يجول في خاطري أمام «قائد» كان أمراً لا يزال يستلزمني تربية معينة. كان يجب أن «يتم إصلاحي» بالوجهة المعاكسة.

بالرغم من أن كلماتي كانت حادة، اكتشفت أن وضعيتي

كانت لا تزال في وقت من الأوقات، تنزلق وتدفعني إلى الانحناء. أن أحط من قدري عبر سلوك معين أتّبعه، كان أمراً أصبح طبيعتي الثانية.

صبراً، قلت لنفسي، عليك أن تصبر قليلاً بعد.

دعه يوقع هذه الورقة الضرورية لتحقيق هناءة بالها. أدركت أنه كان متلهفاً لطلاقنا، ولكنه كان مضطراً لأن يؤدي هذا العرض الصغير، هذا المشهد القصير ضمن مسرحية طويلة.

«هل أن هوانغ كزيانغجيو موافقة؟» دمدم في نفسه ثم أعاد طرح السؤال بصوت مرتفع.

«بالطبع إنها موافقة». أجبته.

«يبدو لي أن هذا ليس بتوقيعها». قرّب وجهه إلى الورقة كما لو كان يود القول: هل ترى كم أحاول أن أكون مسؤولاً تجاهكما؟»

«هل تريدني أن أرسل بطلبها لتسألها بنفسك؟»

«آه، لا. لا حاجة لذلك».

ضحك ضحكة باردة، وراح يفرك يديه بعصبية شديدة. «أذكر جيداً أنكما حين تزوجتما في العام المنصرم، أنت الذي كتبت طلب الزواج أيضاً».

«إن ذاكرة أمين السر ماو ممتازة فعلاً».

بعد أن استعرض ما يكفي للدلالة عن حسن نيته، تناول القلم قائلاً: «إذا كنتما موافقين، فماذا تعني موافقة القادة على أية حال؟ إن الزواج، كما تعرف، مسألة خاصة. وإذا ما رغبتما مستقبلاً في الزواج من جديد فلن يستطيع أحد ردعكما وسوف يكون الأمر ممتازاً كذلك. حالياً ثمة عدد كبير من حالات الطلاق وأيضاً بعض حالات الزواج ثانية».

إن كلمة «القادة» كانت لتعنيه هو. هو كان «القائد». وقّع اسمه بضربات سريعة.

شعرت فجأة بأني في آن خسرت شيئاً ثميناً وألقيت عن كاهلي ثقلاً هائلاً. وقفت بطريقة غريزية وانتشلت الورقة. الختم، التوقيع... تلك كانت الرموز المضحكة التي كانت لتقرر حياتنا.

«أفكر في العودة إلى غرفة زو رويشينغ. هل من مانع؟» قلت.

لمحت في عينيه نظرة تعجب تلتها نظرة تعاطف.

وقال: «لا تتعجل الأمور في الوقت الراهن، تلك الغرفة مهجورة منذ مدة طويلة، حتى إن النار لم تشتعل فيها طوال فصل الشتاء. انتظر حتى تدفأ من جديد لتنتقل إليها. على أية حال، لديكما غرفتان أليس كذلك؟ ألا يمكن لكل منكما احتلال واحدة من الغرفتين؟»

أعتقد أنه من الأفضل أن أنتقل إلى مكان آخر».

«إن الأمر عائد إليك». قال وهو يصفق بيديه.

نجحت أخيراً في دفعه للنظر في عينيَّ للحظات.

في تلك اللحظات القليلة، فهمت أخيراً ما قالته لي منذ زمن بعيد في حظيرة الخراف.

كان قد وقّع اسمه على الطلب. ما الذي يمنعني من مهاجمته الآن؟

«يمكنك أن تذهب إلى الجحيم». قلت له بهدوء.

بعد العشاء، خيّم ليل قاتم. كانت ليلة مشؤومة، ليلة داكنة تقود المرء إلى الجنون.

انسحبت أشعة النهار الأخيرة من إطار النافذة كما تنسحب الحياة بهدوء من الجسد.

في الوقت عينه، تسلل برد الربيع من شقوق النافذة ليجتاح كل زوايا الغرفة جاعلاً الجو فيها بارداً دبقاً كمثل جو القبر.

خارجاً، في القفر، لم يكن حزام الأشجار قد أورق بعد، لكن الأغصان كانت تبدو طرية لدنة وقد اكتنزت بالنسغ. كانت الأشجار تئن وتتنهد في مهب الرياح. كانت ليلة حملت معها اليأس والأمل في آن.

وضعت يديّ خلف رأسي واستلقيت على المصطبة ـ السرير. عنكبوت صغير رمادي اللون بدأ يزحف على أحد المقالات في الجرائد المعلقة فوق رأسي كما لو كان هو أيضاً إنساناً يبحث عن الاقتباس المناسب لحياته ومستقبله.

في ما مضى، كان هذا اليوم «عيد الحشرات»(*). حيث كان من المفترض أن تخرج كل أنواع الحشرات الصغيرة إلى العالم.

انتهت من غسل الأواني في الغرفة الخارجية، ثم رفعت الستارة وأشعلت النور وهي تدلف إلى الغرفة. أضيئت روافد الغرفة فجأة بنور متوهّج. أغمضت عيني لوهلة ومكثت في مكاني، لا أجرؤ على النظر إليها.

جلست كعادتها على حافة النسرير، أحنت جسدها وراحت تفرك يديها بدون توقف. كانت تفركهما بكريم للبشرة ابتاعته من القرية في علبة على شكل محارة.

(*) عيد شعبي في الصين كمثل الأعياد التقليدية الأخرى وقد تمّ إلغاؤه.

كانت تهوى الزينة وتعتني بنفسها أشد اعتناء. لم تكن تلك، ميزة امرأة ولدت بين عائلات المزارعين. لو أنها لم تفقد مكانتها في الحياة ويتم إرسالها إلى الأعمال الشاقة لكان قدرها مختلفاً تماماً عما هو عليه اليوم.

لقد قضت عقوبة «الأشغال الإصلاحية» بيد أنها دفعت دفعاً لممارسة الدعارة: كان ذلك قدرها أيضاً.

كانت مستغرقة بكليتها في فرك يديها. وفي تلك الأثناء، رحت أفكر من أنىّ لي أن أبدأ. إن صبر النساء لعظيم جداً خصوصاً في ما يتعلق بموهبة الصمت. عيل صبري أخيراً فتنحنحت وقلت: «لقد تمت الموافقة على طلبنا اليوم». وشددت على كلمة «طلبنا» بضميرها المتكلم.

لم تتفوه بكلمة واحدة وراحت تتفحص أظافرها لما أن شيئاً من الكريم قد تسرّب إلى تحتها.

كان أمامي حقل ألغام، ولكن كان يتوجب علي اجتيازه لكي أصل إلى حيث أريد. جلست وتناولت الورقة من جيبي ووضعتها أمامها على السرير.

رمقتها بنظرة سريعة من غير أن يطرأ أي تغيير على تعابير وجهها. استمرت في الفرك للحظات ثم مدت أصبعين والتقطت الورقة وبحركة واحدة مزقتها إلى نصفين.

مذهولاً، بدأت أعترض ومن ثم توقفت فجأة عن الكلام وقد افتقدت الجرأة على المتابعة. كانت طبقة الجليد رقيقة للغاية ومجرد حركة واحدة غير واثقة مني قد تتسبب في سقوطي ولن أعرف بعدها طريقاً للعوم مجدداً إلى السطح.

أبديت استعدادي للقيام بأي شيء ورحت أنظر إلى وجهها. لم ترفع عينيها عن أظافرها. ثم قالت بكل هدوء وروية: «أي لعبة هي لعبتك هذه؟ إذا كنت ترغب في الزواج فلا أحد يمنعك وإذا كنت ترغب في الطلاق فلن يجبرك أحد على البقاء إلى جانبي. بما أن كل المشاعر معدومة بيننا، ما الضير في أن نفترق حتى ولو لم يعطونا موافقتهم؟»

«بالطبع، بالطبع»، عبّرت عن موافقتي بسرعة. ولكن ألا يجب علينا أن نحمل هذه اللعبة إلى المركز الرئيس لإجراء المعاملات الضرورية؟»

ثم تذكرت فجأة: في العام الفائت، حين حمل إلينا هاي ـ تز الطلب وعليه موافقة كاو كزوي، خشيت أن أصطدم بعقبات وروتين الدواوينية وارتأيت أنه لم يكن من الضروري أن نتقدم بطلبنا إلى المركز الرئيس لإنهاء المعاملات الضرورية طالما أن عضو الحزب المحلي قد وافق عليه، وعملت بالأساس المنطقي القائل: «إن الجبال عالية والأمبراطور بعيد...»

وفكرت أيضاً، آنذاك، أنه حتى ولو قدم الجنود واندفعوا إلينا من الباب، فلن يسارعوا حتماً إلى التدقيق في «الموافقة على الزواج». تلك كانت الطريقة التي تزوجنا بها.

أطلقت ضحكة مكبوتة. هآنذا، رجل كان يعيش في «ظل نظم الجماهير الانضباطية» ومتزوج من امرأة بصورة غير شرعية لمدة سنة كاملة! تلك الجماهير هي نفسها التي كانت اعترفت بزواجنا، إلى جانب الزمن والمشاعر.

لقد نسيت حتى أننا لم نكمل الإجراءات القانونية.

إذا، فإن قلقي طوال كل هذه الأسابيع الأخيرة لم يكن ذا

جدوى. لو رغبت في الرحيل لكان بمقدوري أن أرحل بكل بساطة.

لقد نسيت ولكنها تذكرت. نظرت إليّ بشيء من الاشمئزاز وقالت لي بنبرة وحشية فظة: «لم تكن صادقاً معي منذ بداية زواجنا!»

تحولت شفتاها المكتنزتان المغويتان إلى خط دقيق يكشف عن أسنان بيضاء: «إن أعماقك تعج بالشياطين». وتابعت: «اليوم أدركت أخيراً حقيقتك».

سقطت كلماتها على وجهي كمثل وابل من البرد.

شعرت بألم في أعماقي وقلت: «أنت مخطئة. لم أكن غير صادق معك ولم أكن أعبث طوال هذا الوقت. ضحكت فقط لأن المسألة برمتها مضحكة. لقد قال هاي ـ تز إن الأيام الفاسقة هي أيام سهلة ويبدو لي أن الأيام غير الشرعية سهلة هي الأخرى».

أخذت نفساً عميقاً: «يبدو الأمر كما لو كنا فعلاً في لعبة أو كما لو كنا في حلم».

«لقد استيقظت أنا من هذا الحلم». قالت.

لو كان ثمة من استيقظ من هذا الحلم فإنه أنا بالتأكيد. رغم ذلك فإنها تقول إنها هي التي استيقظت.

وقفت حذراً على طبقة الجليد الرقيقة ولم أجرؤ على التقدم خطوة إضافية واحدة: لم أكن أدرك حقيقة ما كان يجول في خاطرها أو ما كانت ستقوله. هل أن رجلاً وامرأة يعيشان دوماً في حلم وما إن يستيقظا حتى يتأكدا من وجوب افتراقهما؟ أجل، إن

حياة مشتركة لأي رجل وامرأة هي حلم بالفعل؛ وفي حال لم يكن حلماً جميلاً فإنه يتحول إلى كابوس، ومهما فعل الزوجان، عليهما أن يبذلا جهداً كبيراً لئلا يستيقظا.

بدت فجأة وكأنها قد تذكرت أمراً ما. وقفت ورفعت الغطاء عن الصندوق ـ الخزانة وراحت تخرج ثيابي، القطعة بعد الأخرى. كل قطعة كانت تحمل شيئاً منها. كانت باردة كالثلج أو على الأقل كانت تطفو على سطح المياه. لم تكن غريبة قط عن سير عملية الطلاق.

«أن يكون المرء معدماً ليس بالأمر السيىء، فالفقراء يسهل عليهم الطلاق على ما يبدو! أنت وأنا ـ صدع واحد وينتهي كل شيء». على الأقل كانت لا تزال تحافظ على حس الفكاهة. أخيراً تناولت راديو الترانزيستور ووضعته فوق ثيابي قائلة: «أنا أعطيك كل هذا ـ لا بد وأن الجواسيس لا يختلفون كثيراً عنك».

لم يكن بوسعي أن أصدق. إن «الواقع» قد حطم حياتها ومع ذلك كانت تبذل كل ما بوسعها لمعاكسة «القدر» وتحاول العثور على أساليب مغايرة للحياة، على كيفية إشعال «ثورة معاكسة».

وحين كان الأمر يقتضي ذلك، كانت تدفع ردفيها الصغيرين وتصرخ قائلة: «إسحقوا هؤلاء الثوار!» قلت لها بفتور: «أنت التي ابتعته، لا يمكنني أن أحمله معي».

«إذاً، فإن هناك ثمة ما لايمكنك أن تحمله معك؟» تظاهرت بالذهول، بسطت يديها وقالت: «إحمل كل هذه الأغراض معك. لا تخلّف وراءك سوى الغرفة. لست بغبية. أنت تتخلى عني وعلي الاعتناء بنفسي. سحبت شيئاً آخر من الصندوق المفتوح الذي كان أشبه بصندوق سحري يحتوي أغراضاً لانهاية لها. سحبت من

منديل صغير رزمة من الأوراق المالية وبحركة سريعة، أخرجت منها عشرين ورقة؛ «هاك مئتي دولار، خذها معك».

هذه المرة فاجأتني بحق. «ماذا تعنين بإعطائي المال؟ على أية حال يستحيل أن نكون قد ادخرنا هذا القدر من المال خلال هذه السنة!»

لم يكن بوسعها الاستمرار في وضعيتها هذه أكثر من ذلك. كمثل عيدان يشيّدها طفل صغير بكل كد واجتهاد، انهارت فجأة وفقدت كل برودتها وتهكمها. استخدمت يديها الصغيرتين لتغطي فمها وراحت تبكي بصمت. «يا زانغ يونغلين، لقد ولدت بقلب ذئب ورئتي كلب. إذا كنت ترغب في الرحيل عن هذه القرية فما عليك إلا أن ترحل بكل بساطة. لماذا تمارس عليّ ألاعيبك هذه. ما من حاجة إطلاقاً لأن تتظاهر بأنك لا ترغب في الرحيل. ليس عليك إلا أن تقول «أنا راحل» وترحل بكل بساطة! لن يتشبث بك أحد ليمنعك».

تدلت كتفاها وتراخى رأسها متعباً. وبينما كانت واقفة هناك بدت وكأنها الصورة النموذجية للاضطهاد والهزيمة.

إن حالتها تلك كانت تستدعيني بكل وضوح لأهدىء من روعها، وأتخلص من هذا الدين الأخير. ترددت. أدركت أنه ما من سبيل لأشرح لها مَا يدور في خلدي.

لم يكن بوسعي أن أجعل من هذا الطلاق مجرد قرار اتخذته لصالحها أو أن أحوله إلى مسألة تتعلق بالمشاعر وحسب. إن قراري نتج عن اعتبارات أخرى أكثر تعقيداً.

لم يكن رأسها ليفهم سوى الأسود والأبيض. أما اللون الرمادي والألوان المشوشة فكانت تشكل مسألة غامضة بالنسبة إليها

والمقدرة على شرح كل هذا كانت تفوق طاقتي.

إن المنطق لا يمكن أن يقوم مقام المشاعر ولا يمكن حتى أن يحللها كما يجب. حين تعجز روحان عن التواصل، تصبح كل الكلمات غير كافية.

إن ما ربطنا ببعضنا البعض لم يكن سوى إثارة الرغبة الجسدية: كان الأمر مجرد اتصال جسدين وحسب.

والحب الذي شعرنا به لم يكن ناتجاً إلا عن شعورنا بالمتعة ـ من دونه فقدنا القدرة على التواصل. ومع ذلك، دنوت منها وأحطتها بذراعي: «كيف عرفت أني سأرحل عن هذا المكان؟»

«وكيف لا أعرف؟ أعرف أن معدتك مليئة بالديدان».

التصقت بصدري وهمست قائلة: «إنك تحسب أني عاجزة عن الرؤية بوضوح؟ لو أنك لن تغادر هذا المكان، هل سيكون بمقدورك الانفصال عني؟ أنا أعرفك جيداً. لقد أمضيت عقوبة عشرين سنة من الأشغال الشاقة ومع ذلك فإنك لا تزال في أعماق قلبك سيداً صغيراً». أنت بحاجة إلى من يسهر على راحتك ويلبي حاجاتك. ولا تنسَ، أنا التي أتحت لك الفرصة لكي تعثر على دعوتك الحقيقية. لقد مهدت لك الطريق لكي تبحث عما يجدر بك فعله. لو لم أوافق على الطلاق هل تظن أنه كان بإمكانك أن تتركني؟ حتى لو انضممت إلى أولئك الأميركيين الأمبرياليين أو التعديليين السوفيات أو حتى إلى ليو شاولي أودينغ زياوبينغ. لا تقلق في حال نجحت «ثورتك المضادة»، لن آتي لألطخ «مجدك وعظمتك وثروتك ومنزلتك» ولكن لماذا عليك أن تعاملني بهذه الطريقة؟»

كانت فاتنة بغبائها ومضحكة بذكائها. كانت تتكلم كما لو أنها انتظرتني طوال عشرين عاماً وكانت تجلب إلي الطعام بينما

كنت أقضي عقوبة «الإصلاح عبر العمل». كان لها إدراكها الخاص للعالم.

كانت تفسّر كل شيء بطريقة واحدة. كل ما كان يتعارض و«خط ماو الثوري» كان بالنسبة إليها «معارضاً للثورة». ومع ذلك وقعت في حب معارض للثورة.

تعذّر عليّ كبت ضحكة، وأومأت برأسي غير موافق على ما تقوله وقلت لها: «أي مجد ذلك وأي عظمة وأي ثروة وأي منزلة؟ من الأجدى أن تقولي كثير من المحن وقليل من الحظ. لهذا لم أشأ إطلاعك على الأمر».

«ها»، شخرت بفظاظة وراحت عيناها الدامعتان تنظران إلى وجهي بحنان وطيبة بيد أن نبرة صوتها كانت مسموعة: «هذا ليس صحيحاً» اؤكد لك أنك لن تموت ميتة صالحة وذلك لأنك تشعر بالذنب».

«أجل». ضحكت ضحكة حزينة. إني أشعر بالذنب. بدت وكأنها هدأت قليلاً وقد أسندت رأسها إلى كتفي ونحن واقفان في وسط الغرفة بعد هنيهة قصيرة، أخذت نفساً عميقاً وقالت: «في البداية فكرت في أن أتسبب لك بمشكلة كبيرة. كنت سأبلّغ عنك إلى السلطات فأفضحك وأرسلك إلى مخيمات العمل من جديد ومن ثم فكرت في أن تصرفي ذلك سيكون في منتهى الحقارة لما أنك أنت، الرجل المثقف، سوف تُخدع في عقر دارك. إن لك أسبابك التي تشعرك بالعذاب. من الأفضل أن نطلق وتفترق بهدوء حتى ليظل كل منا محتفظاً بشيء من الذكريات الجميلة عن الآخر. ولكن مهما تحسنت حالتك في المستقبل ومهما أحاطت بك النساء الحسناوات فلن تجد من سوف يحبك بقدر ما

أحببتك أنا. أما في ما يتعلق بي، فإني فكرت ملياً بالأمر وقلت لنفسي، ها أن السيدة العجوز «ما» عاشت كل حياتها وحيدة ومع ذلك فإنها سعيدة. أحسب أنه بإمكاني أن أكون مثلها».

«لسوف تكونين على أحسن ما يرام لوحدك. لا تزالين في ربيع شبابك يا كزيانغجيو. جدي لنفسك رجلاً يناسبك أكثر مني». رحت أواسيها رغم اقتناعي بأن ما أقوم به ليس بعين الصواب.

«إنس الأمر، لا تسخر مني». مسحت الدموع عن عينيها وراح أنفها الأحمر الصغير يرتعش. تبللت رموشها بالدموع مثلما تغطي قطرات الندى ضفة بحيرة معشبة. كانت لا تزال قادرة بجمالها على إغواء الرجال.

«لن أبحث عن أي شيء من هذا القبيل» قالت «لم يكتب لي قدري أن أحظى برجل مناسب في حياتي. حين أجد واحداً تراني عاجزة عن الاحتفاظ به، وسرعان ما يقرر الرحيل. خذ المال، لسوف تكون بحاجة إليه. حين واجهت الطلاق في المرتين السابقتين، لم أنفك لحظة عن المقاومة والصراع من أجل المال، من أجل الحاجيات حتى أني رفعت قضيتي إلى المحكمة. هذه المرة أنا سعيدة في أن أمنحك بعض المال. خذه ولا تقلق، ما زال بحوزتي ثلاثمائة دولار».

قالت ذلك واستدارت لتدنو مني أكثر. التصق ثدياها المكتنزان بصدري وأردفت بنبرة شهوانية آمرة: «إلى السرير! هذه الليلة، أريد أن أعبث معك لتشبع كل رغباتك. ضاجعني حتى تصبح عاجزاً عن نسياني».

كان القمر ارتفع وصار في كبد السماء.

وحين أطفأنا النور سكب ضوءه في الغرفة الصغيرة كما

يسكب الشلال ماءه. راحت نبرة صوتها الناعمة تترقرق في أمواج ضوء القمر...» لقد خنت قلبك يا زانغ يونغلين ولن تموت بشكل لائق.

ولكن مهما تدافع الناس ليذرفوا الدمع على قبرك، وحدي أنا سأبكيك من كل قلبي. أينما كنت سأحرق لك المال في كل سنة في «الكينغمينغ»(*). يمكنك أن تأتي إليَّ أينما أكون وتأخذ مالاً لتنفقه كيفما تشاء... تعال، اخلع ثيابك ـ بسرعة! لماذا تبدو مرتبكا؟»

شعرت بذارعين ساخنتين تلتفان حولي وتجذبانني إلى تحت... إلى الأعماق، إلى قعر بحيرة ضوء القمر.

من أعماق المياه تناهى إلى مسامعي صوت يردد:

«لا تنسَ، أنا التي جعلت منك رجلاً حقيقياً.

إن امرأة هي أحب الأشياء على الأرض،

ولكن ثمة ما هو أهم،

إن النساء لن يمتلكن يوماً الرجال الذين خلقنهم.

راحت حشرة صغيرة تتسلق الحائط ببطء. لقد عاد الربيع إذاً. بعد شهر من اليوم سوف يحل عيد الكينغمينغ. هل سأعود إليها لأسلّم بذكراها؟

كم هو واسع القمر وكم هو مستدير!»

٢٢ تموز/يوليو ١٩٨٥

انتهى

(*) عيد ربيعي يقدم خلاله الصينيون الهدايا والأموال ويرفعون الصلوات عن أرواح الموتى.

نصف الرجل امرأة

ولد زانغ كزيانليانغ في نانجينغ العام ١٩٣٦.

تلقى دروسه في بكين ثم أرسل إلى مقاطعة بعيدة في نينغكزيا وهو في التاسعة عشر من العمر ليمارس فيها مهنة التعليم. في العام ١٩٥٧ وقع ضحية حركة «معاداة اليمينية». وأرسل إلى مخيم للأعمال الشاقة مماثل لذلك الذي تمّ وصفه في «نصف الرجل امرأة». تلقى عفواً رسمياً في العام ١٩٧٩ واستقر في نيشوان، عاصمة نينغكسيا.

وهو لا يزال يعيش في شمالي غربي الصين ويتابع العمل في الكتابة. في الوقت الحالي، يعمل على إنجاز كتاب حول الصين المعاصرة.

بدأت مارتا أفيري دراسة اللغة الصينية في العام ١٩٧٠ ودراسة اللغة اليابانية في العام ١٩٧٢.

تحمل شهادة البكالوريوس في اللغتين إضافة إلى شهادة الماجستير من كلية وارثون.

قامت برحلات عديدة إلى الصين طوال ثماني سنوات خلال عملها لحساب الناشر العلمي جون ويلي وأبنائه.

تعيش حالياً مع زوجها في أولانباتار في مونغوليا حيث تقوم الشركة التي تمتلكها (منشورات أفيري) بنشر صفحة بيئية خاصة عن منغوليا عبر شبكة الأنترنت. قامت مارتا أفيري كذلك بترجمة كتاب «باوتاون» لوانغ آني (الصادر عن دار بنغوين للنشر العام ١٩٩٠).

نصف الرجل
إمرأة



هذا الكتاب

نصف الرجل امـرأة رواية تنتمي بقـوة إلـى الأدب الواقـعي، وتكشف بمتـانة و ألم وأيضـاً انـدحـار شـعـب بأكـمله تحت سطوة نظام قاس شديد الوطأة.

هذه الرواية تكشف عالم الصين الداخلي وناسـه المقـمـوعين في مـعـسكرات العـمل والمزارع النائيـة حـيث يتـحـول الإنسـان إلى مـخلوق مـجـرد من كل أحـاسـيسـه ورغـبـاته، ومنفذ فقط لأوامر مكبرات الصوت.

مـأسـاة الصين تحت وطأة الشـيـوعـيـة يرويها المثقف الصيني المنفي داخل غياهب بلاده، وداخل ذاته وتساؤلاته وعجزه المريع.

انهـا رواية غـريبـة وآسـرة لعـالم نكتشـفـه مـجـدداً، لقـارة إنطـوت وناسـهـا عـلى نفسـهـا، وراء سـورهـا العظيم. ولعل رواية نصف الرجل إمـرأة هـي واحـدة من أهم الروايات الصينيـة الحـديثـة منذ قـيـام الشـيـوعـيـة.

علي مولا